(قررت نظارة المعارف العمومية طبع هذا الكتاب على نفقتها)
(وتدريسه بالمدارس الاميرية)



تاريخ المشرق

ألفه بالفرنساوية مسيو ماسبيرو المشهور

ترجمه الى اللغة العربية

احمد زكى بك

السكرتير الثانى لمجلس النظار



آثار أسلافنا فى الشرق مشرقة
هذا لو عملنا مثل ما عملوا
م . خاطر

الطبعة الاولى

بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحمية
سنة ١٣١٤ هجرية
١٨٩٧ ميلاديه

(قررت نظارة المعارف العمومية طبع هذا الكتاب على نفقتها)
(وتدريسه بالمدارس الاميرية)

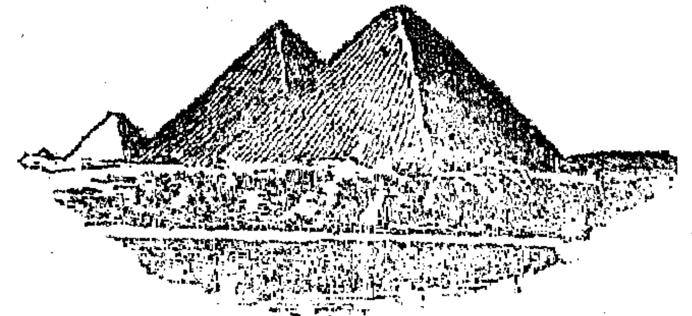


ألفه بالفرنساوية مسيو ماسبيرو المشهور

ترجمه الى اللغة العربيه

احمد زكى بك

السكرتير الثانى لمجلس النظار



آثار أسلافنا فى الشرق مشرقة
حبذا لو عملنا مثل ما عملوا
م . خاطر

الطبعة الاولى

المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحمية

سنة ١٣١٤ هجرية
١٨٩٧ ميلاديه



مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد بالبقاء والقدم مبيد الامم ومعيدها
من العدم والصلاة والسلام على نبيه الذى بعثه بلسان الصدق
لهداية الخلق الى صراط الحق وعلى آله وأصحابه الذين خلدوا من
المآثر والآثار ما يتجدد لنا به الافتخار على تعاقب الليل والنهار

وبعد فهذا كتاب فى تاريخ الامم القديمة ببلاد المشرق
مهبط أسرار الحكمة ومشرق أنوار العرفان وضعه باللغة الفرنساوية
العلامة الثقة الحجة الموسيو ماسبيرو الذى يُرجع الى معارفه فى بيان
ظلمات التاريخ القديم ويُعتمد على أقواله فى شرح أحوال الامم الماضية
والقرون الخالية وخصوصا أجدادنا المصريين لوثيق معرفته
بكتاباتهم وكناياتهم وتمام درايته فيما يتعلق بحياتهم حتى أصبح
ببلاد أوروبا وهو عمدة أهل التحقيق والتدقيق وأستاذ المستنبطين
والمستكشفين وقد ضمنه الرجل كثيرا من آثار بحثه وتنقيبه
واجتهد فى تقريبه للاذهان بعبارة امتزجت فيها الفائدة بالطلاوة
وشخصت للقارئ معيشة أولئك الاقوام كما هى بالتمام فى تلك الايام..

لذلك مالبث هذا الكتاب ان ظهر بفرنسا حتى أهرعت الأمم المتمدنة الى ترجمته للغات أوروبا كلها بعد أن تعدد طبعه فى فرنسا جملة مرار

ولما اطلع عليه سعادة يعقوب باشا أرتين وكيل نظارة المعارف العمومية ورآه منطبقا على برنامج التدريس بالمدارس الاميرية أراد أن لاتكون مصر محرومة من غرائبه فان أهلها أولى الأمم بمعرفة أحوال أسلافهم فندبنى لاتحاف أهل مصر بل أهل اللغة العربية بهذا الكنز الثمين فشمرت عن ساعد الجد فى تعريبه طبق الاصل بالتمام مع العناية بضبط مافيه من الأعلام واختيار الالفاظ الموفية بالمرام

وقد رأيت من باب الواجب تعليق بعض الشروح فى متن الكتاب أوفى حواشيه بحسب المقام وكلها فيما يختص بالتاريخ والجغرافية والترجمة ونحو ذلك من أبواب العرفان وأظن أن المطلع عليها سيعرف لى تعبى اذ يرى فى هذه الحواشى كثيرا من الفوائد المشتتة فى كتب العرب مما اعتاد الناقلون عن ألسنة الاعاجم فى هذا الزمان على اهماله أو عدم التنقيب عنه من باب التكاسل أو التجاهل

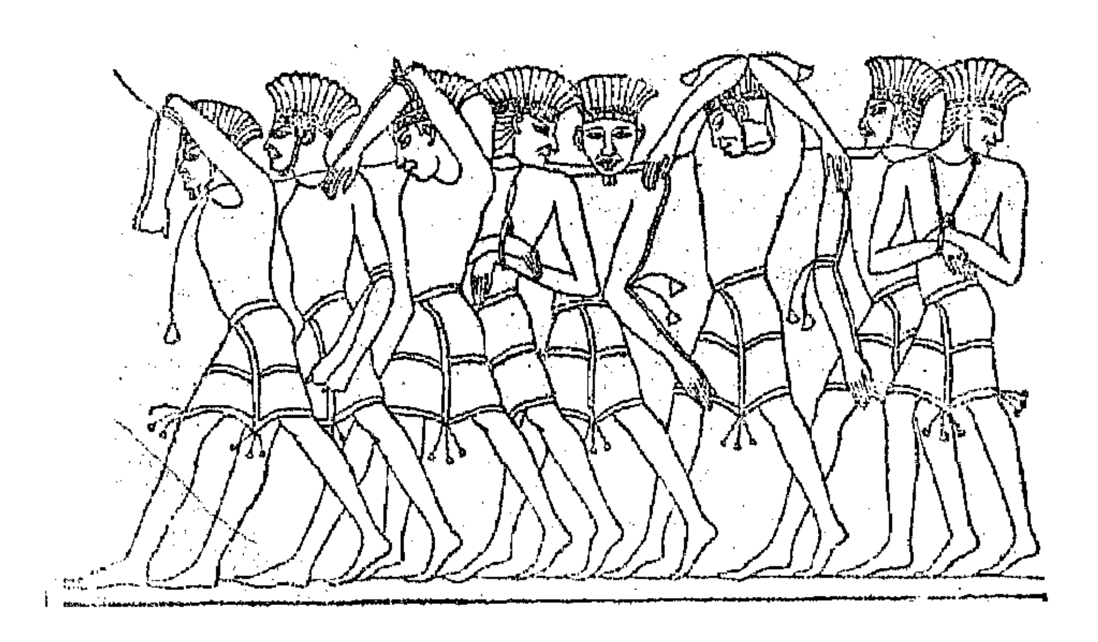
وقد حليت ترجمتى هذه بالصور التى ازدان بها الاصل الفرنساوى كما انى بذلت فى تعريب الخرط وضبط أسماء المواقع الجغرافية عناية وتعبا لايشعر بشىء منهما الا من كابد مثل هذا العمل الشاق الذى يوجب ضياع الايام بحثا فى المطولات المتنوعة والمعاجم المتعددة للوقوف على حقيقة اسم واحد خصوصا وان هذه الخرط أغلبها يختص ببلاد الشرق وقد نقل الافرنج أسماءها محرفة مشوهة

أو تعارفوها مختلة معتلة فكان ارجاعها الى أصلها موجبا التعب كثير قد لا يخلو الخائض عبابه من الزلل والتقصير ولكنى أقدر أجاهر بانه لم يظهر فى اللغة العربية الى يومنا هذا خرائط أكمل من التى ترجمتها ضبطا واتقانا أو أوفى منها إحكاما وبيانا

ولى حينئذ أمل وطيد فى أن يكون لترجمتى هذه نصيب وافر فى استفادة الدارس وتذكير الباحث حتى تكون حسنة من حسنات مولانا وولى نعمتنا الخديو الاعظم ﴿عباس حلمى الثانى﴾ الذى رفع رايات المعارف وسعى بهذه الامة فى طريق الجدّ والمجد والكمال أدامه الله بدرا فى سماء مصر وفخرا لهذا العصر آمين

سكرتير ثانى مجلس النظار





تاريخ المشرق

الكتاب الاول
تاريخ مصر

الباب الاول
وصف مصر القديمة والكلام على النيل

(١) النيل (٢) النيل فى مصر (٣) فيضان النيل (٤) نباتات مصر وحيواناتها (٥) الاله النيل وعبادته

١ — النيل

يخرج النيل من عيون وراء خط الاستواء فى النصف الجنوبى من الكرة الارضية ثم يذهب مستمدا بالمياه الجارية من البحيرات الكبيرة بافريقية الوسطى ويأخذ نحو الشمال مارا بسهول فسيحة وفدافد واسعة تتخللها غابات ومستنقعات ويمده بحر الغزال من جهة اليسار بما يزيد من مياه الحوض الذى يمتد بغير انتظام بين دارفور والكونجو ومن جهة اليمين يجيئه نهر سوبات والنيل الازرق ونهر تقزى بالمياه التى تنحدر من جبال الحبشة ثم لا يلبث أن يمر بالهضبة الكلسية (الجيرية) التى فى الصحراء ويمر فى أخدود متعرج بتلك الهضبة ثم يأخذ

مجراه بتثن وانعطاف فيقاطعه خمسة من الجنادل ثم يسير الهوينا غير مستمد بعد بشيء من المياه الى أن ينصب فى البحر الابيض المتوسط . ومصر هى القسم الشمالى من هذا الوادى فيما بين شلال اسوان والبحر الملح ومازالت معتبرة كذلك فى كل عصر

٣ - النيل فى مصر

قالوا ان مصر هبة من هبات النيل (١) وهى من ابتداء اسوان الى ما يجاور مدينة طيبة (ثيبة) محصورة حصرا ضيقا بين جبلين قد يتقاربان تقربا كليا فى بعض المواضع كما هو عند جبل السلسلة حتى لا يكون لواديها أثر سوى مجرى النهر يحف به من الجانبين صخور شامخة من الجلمود وعرضها فيما بين طيبة والقاهرة خمسة عشر كيلومترا بعد التعديل المتوسط وينقسم النيل فيها الى فرعين يذهب كل منهما بحذاء سلسلة من السلسلتين الجبليتين الحافتين بهذا الوادى فالفرع الغربى أشبه شئ بترعة غير منتظمة تتنابه أسماء مختلفة فى مجراه من ضواحى دندرة الى البحر الملح وكثير من أجزائه تجف مياهه مدة شهور كثيرة من السنة ولا يشبه فى سيره النهيرات حقيقة الا فيما بين أسيوط والفيوم (وهو المعروف ببحر يوسف) ومع ذلك فلا يتيسر للسفائن أن تسير فيه الا أيام الفيضان وتوارد المياه (٢) أما النيل الشرقى وهو النيل

(١) هو قول هيرودوت المؤرخ اليونانى المشهور

(٢) تقسيم النيل بهذه الكيفية هو بحسب تفرعه فى الازمان القديمه لا فى عهدنا هذا فتنبه

الحقيق فالاحرى به أن لا يدعى نهرا بل بحيرة ذات تعاريج مشحونة بالجزائر الصغيرة وهو يجرى بقوة وانتظام فيما بين سواحل سوداء مقطوعة قطعا عموديا فى أراض خصبة مكونة من طمى النيل والناظر الى البر لا يقع نظره الا على غابات صغيرة من النخيل أو أيكات من شجر الاقاقيا (١) والجميز ومزارع القمح والشعير أو غيطان من الفول والبرسيم أو كثبان من الرمال يستثيرها أقل ريح أو منازل مجتمعة متجاورة أو قرية علاها الغبار أو أخرى صغيرة ألبسها ظليل النخيل رواء وبهاء

وفيما وراء القاهرة يأخذ الجبلان فى الابتعاد عن بعضهما فتذهب جبال لوبيا الى أن تنقطع عند البحر المتوسط غربى الاسكندرية وتذهب سلسلة جبال العرب نحو الشرق الى أن تكون على مقربة من البحر الاحمر وهناك منقطعها وكانت المسافة الفاصلة بين هذين الجبلين فيما سلف من الزمان خليجا من البحر الملح يصب النيل فيه قريبا من المكان القائمة عليه الاهرام فى هذه الايام وهى الآن سهل فسيح مثلث الشكل تكون من الطمى وتقوت بتربته وانفسح

---

(١) هذا هو اللفظ الوارد فى الكتب العربية القديمة ومترجم عن لفظة Acacia اليونانية وهى تدل على الشجرة التى يستخرج منها الصمغ العربى مثل السنط وغيره ثم توسع النباتيون فى هذا الاسم فصار يطلق على أجناس نباتات كثيرة من فصائل مختلفة بحيث بلغ عدد أجناس الاقاقيا ٤٢٠ أكثرها لا تعرف طريقة استعماله

وفى شماله كثبان متقاطرة وبطائح متوالية وكانت ترويه فى الاحقاب الخالية ثلاثة فروع كبيرة وهى الفرع البيلوزى (١) فى الشرق والفرع السبنيطى (٢) فى الوسط والفرع الكانوبى (٣) فى الغرب وقد زال الفرع الاول منذ أجيال طوال وكانت هذه الفروع الثلاثة مرتبطة بعضها بجملة من الترع الطبيعية أو الصناعية بعضها يصب فى البحر مباشرة فتزيد فى عدد الاشاتيم أى فروع النيل فتجعلها سبعة أو أربعة عشر أشتوما بحسب اختلاف الاوقات

٣ - فيضان النيل

تهطل الامطار الغزيرة فى شهر فبراير من كل عام فى البقعة التى فيها البحيرات الكبيرة فيكون من ذلك ازدياد النيل وفيضانه ويمتد هذا الفيضان بسرعة من الجنوب الى الشمال وينتشر فى الوادى كله فى بضعة شهور وتصل مياه الفيضان الى مدينة الخرطوم فى أواخر شهر ابريل ويظهر أثرها بما يرد اليها من مياه النيل الازرق ثم تسير الهوينا فيما بين أراضى النوبة حتى تصل مصر فى أواخر شهر يونيه ويظهر أثرها فى اسوان يوم ثمانية منه وفى القاهرة يوم سبعة عشر منه وبعد ذلك بيومين تعم أراضى الدلتا بأكملها

(١) نسبة الى بيلوز التى هى الطينة بقرب الفرما

(٢) نسبة لمدينة قديمة سبنيطه كائنة بالدلتا بالقرب من تفرعه الآن

(٣) نسبة لمدينة كانوب القديمة وهى مدينة صقع كان بها دير التوبة ومعبد تحنى فيه الارباب وكان يحج اليه أغلب الناس ثم عرفت بسد أبى قير

وقبل ذلك بخمسين يوما تهب على مصر ريح الخماسين وتتوالى عليها من جهة الغرب من غير انقطاع فتلفعها بنارها وسمومها حتى ان كثيرا من جهات القطر تكون كأنها قطعة من البادية متصلة بهذه الديار ومتى طلعت عليها الشمس علاها الغبار وثار فوقها وهى جرداء قحلاء فأينما رمى الانسان بطرفه رأى الارض على مدى البصر مشققة تشقيقا متقاطعا ثم ترتفع فى الجو طبقة من الغبار الازرق فتحيط بالاشجار وتعدمها البهجة والحياة وأما النيل فيقل اتساعه الى نصف عرضه المعتاد وتهبط مياهه حتى تكون نصف عشر ما كانت عليه فى شهر اكتوبر ثم لا يلبث أن يعود زاخرا حتى يركب الجسور وفى نحو منتصف شهر يوليه يخشى من تجاوزه لها وطغيانه عليها فتقطع السدود المانعة له فتنساب مياهه الى أرض المزارع وتعمها فى بضعة أيام حتى تضرب من الجبل الشرقى الى الجبل الغربى فيصبح الوادى وهو لجة من الماء العكر يجرى بين امتدادين من الرمال والصخور تطفو عليها القرى والروابى وتلوح للرائى كأنها اقم خضراء ونقط سوداء وتخترق اللجة جسور تجمع بين القرى فتقسمها الى مربعات غير منتظمة ويكون منتهى الزيادة فى بلاد النوبة فى آخر شهر أغسطس وفى القاهرة والدلتا بعد ذلك بشهر واحد ثم يقف الفيضان فلا يزيد النهر ولا ينقص نحو ثمانية أيام متواليات وبعد ذلك تأخذ المياه فى التناقص والهبوط بسرعة حتى اذا ما حل شهر دسمبر عاد النيل الى مجراه فلا يتعداه

٤ – نباتات مصر وحيواناتها

لا جرم أن القطر الذى تهاجمه المياه فى كل عام لا يكون فيه كثير من الاشجار على أن الجميز وأصناف الاقاقيا والسَّلَمَ والاثل تنبت بها وتعيش فيها ومن أشجار بساتينها التين والمشمش واللبخ[1] والسنط الحساس (المستحية) والكرم وأما نخل الدوم فينبت فى الصعيد من غير فلاحة تقريبا وأرضها موافقة كل الموافقة لانبات النخيل فحيثما وجه الانسان ناظره أبصر أشجاره صنوانا وغير صنوان فى أفواه المجارى وحوالَىْ القرى وعلى امتداد السواحل مصفوفا الى جانب بعضه بنظام يحاكى نظام العمدان ومغروسا باتساق واعتدال بحيث تتكوّن منه غابات غير كثيفة وكلها فى غاية البهجة والجمال وقد يزرعون حول النخيل أشجارا اخرى فيختلف بها المنظر اختلافا يشرح الصدر وترتاح له النفس وأما النباتات المائية فهى كثيرة فى الدلتا تنمو فى بحيرات الساحل نموا عجيبا وتشتبك أغصانها حتى انها كانت فى كثير من الاوقات ملجأ للمغضوب عليهم المهدور دمهم والامراء المنهزمين يأمنون فيه من كيد العدو ومباغتة الغريم وقد اشتهر من هذه النباتات نوعان هما البردى والبشنين بما كان لهما من الشأن والاهمية فى تاريخ مصر المقدس والملوكى فكان البردى علامة رمزية على الدلتا واتخذوه ورقا للكتابة فى قديم الزمان وأما البشنين فجعلوه عنوانا لاقليم طيبة

(١) هو شجر كان يوجد بمصر قديما وله ثمر بقدر اللوزة يؤكل ولكنه انقطع الآن من مصر بالمرة فاللبخ المعروف اليوم ليس منه فى شئ

(الصعيد) وكان القدماء يطلقون اسم البشنين على ثلاثة أنواع من النبات ما بين زرقاء وبيضاء وحمراء من غير تفرقة في الاطلاق وقد كاد البردي يكون معدوما وأما البشنين فهو نادر الوجود وكان سكان وادى النيل يتناولون كلا من النباتين غذاء مصلوقا أو مشويا أو مطحونا ومتخذا خبزا وكان هذا الغذاء خاصا بالفقراء والمساكين وكان القوم يؤثرون عليه ما تخرجه الارض من غير كبير عناء ولا شديد عمل كالترمس والفول والحمص والبامية والعدس والقمح خصوصا وغير ذلك من أنواع الحبوب مثل الشعير والاذرة والاذرة العويجة وكثير من الحيوانات المستخدمة المعروفة عندنا الآن كانت مجهولة في مصر الاولى فان الفرس لم يدخلها الا في حدود القرن العاشر قبل الميلاد والجمل في أيام البطالسة أما الثور والضأن والعنز والخنزير فقد وجدت صورها ورسومها على أقدم الآثار وكذلك كثير من أنواع الكلاب الاهلية المستخدمة والغزلان المستأنسة وأما الاوز والبط فكان كثيرا فيها ولكن الدجاج لم يظهر له أثر بها وبقى نادرا مدة طويلة من الزمان وفيها شئ كثير من الاسماك منها ما هو كبير جدا وأغلبها صالح للاكل وأما الحيوانات المضرة المؤذية فهى قليلة وكانت الآساد وبعض وحوش من فصيلة السنور كالفهد والغيلس والببر وكثير من أصناف الضباع وبنات آوى والذئاب تختلف الى أطراف الصحراء وكثير من العقارب والثعابين السامة مثل الحية القرناء والثعبان الناشر تدب في المزارع والمساكن أما فرس البحر فقد غادر بطائح الدلتا

فى أواخر القرن السادس عشر بعد الميلاد وقد بقى التمساح فى مكانه الى أيامنا هذه حتى جاءت البواخر فطردته الى ماوراء الشلال الاول

٥ ـ الاله النيل وعبادته

النيل هو مدار النظام فى أرض مصر وكل مافيها من نبات تخرجه أرضها وحيوان يدب عليها وطيور تعلو فى جوها وقد أدرك المصريون هذه المزايا كما ينبغى وعلموا أنه أس الحياة فى بلادهم فألهوه وسموه (حابى ومعناه النيل السعيد) وكانوا يترنمون على الدوام بمديحه وذكر نعمه وفضائله (شكل ١) فكانوا يقولون



ش ١ الاله النيل
(نقلا عن التمثال المحفوظ فى المتحف البريطانى)

«النيل هو موجد القمح ومخرج الشعير»
«من الارض وسبب الابتهاج والسرور فى»
«المعابد والهياكل فاذا تفرغت أصابعه عن»
«العمل أو ألم به ألم نزلت البلواء والبأساء»
«بالاقوام لان الآلهة فى السماء متى حل»
«بها الصغار والهوان هلك الانسان ونفق»
«الحيوان وصُبّ العذاب على الارض كلها»
«يعن فيها من كبير وصغير ولكن متى أقبل»
«النيل تغيرت جميع هذه الاحوال أمام»
«الانسان فانه بمجرد ما يبدو للعيان بعد أن يخلقه خنوم إله الشلال»
«ترى الارض وقد أخذت زخرفها وازينت وجميع البطون وقد»
«فرحت واستبشرت وجميع القدود وقد استولى عليها الطرب»

«والسرور فاهتزت وترنحت وجميع الثنايا وقد ابتسمت لما قضمت»
«فترى الترح قد زال وحل محله الفرح فى كل حال فدم أيها النيل»
«فى عز ويمن واقبال وأحى الاقوام بالأنعام والأنعام بالحدائق»
«والرياض ألا فدم يانيل فى عز ويمن واقبال هيا بنا»

خلاصة ما تقدم

(١) يخرج النيل من البقعة التى بها البحيرات الافريقية الكبرى ويستمد فى سيره مياه الحبشة الواردة اليه بواسطة النيل الازرق ونهر تقزى ثم يجرى بها فى خلال النوبة ومصر الحقيقية حتى يصب فى البحر الابيض المتوسط

(٢) ومصر هبة من هبات النيل وتمتد من شلال اسوان الى البحر المالح وليست فى بدئها الا واديا ضيقا جدا يبلغ متوسط عرضه ١٥ كيلومترا وفيما وراء القاهرة يكون هذا الوادى مثل سهل فسيح أو دلتا يتفرع فيها النيل فروعا كثيرة وترعا ثانوية قبل أن ينصب فى البحر من الفروع الثلاثة الاصلية التى لم يبق منها سوى اثنين فى هذا الزمان وهما فرع رشيد وفرع دمياط

(٣) يفيض النيل فى كل عام وتصل الزيادة الى أرض مصر فى أوائل شهر يونيه ثم تغمر الوادى بأكمله الى أن يحل شهر اكتوبر وفى أوائل ديسمبر تكون قد بلغت نهاية الكمال

(٤) ان تعاقب الفيضان فى أوقات معينة يجعل الحيوانات والاشجار غير متوفرة فى مصر بكثرة تشبه ما هو حاصل فى بلاد أورباو غيرها وليس فى هذا الوادى الا قليل من الاشجار الكبيرة مثل أصناف الاقاقيا والجميز وغابات من النخيل وفيها كثير من النباتات المائية مثل البردى والبشنين وأغلب الحيوانات الاهلية كانت معروفة فيها من قديم الزمان ولكن الفرس لم يدخلها الا فى حدود القرن المتمم للعشرين قبل التاريخ المسيحى وقد تلاشى منها كثير من الحيوانات الكاسرة والوحوش الضارية مثل الاسد وفرس البحر ولم يبق من التمساح الا عدد قليل

(٥) وكان المصريون يعتبرون النيل الها من آلهتهم ويحتفلون له بمواسم عظيمة تمجيدا لشأنه وتعظيما لقدره

الباب الثانى

فى أصل المصريين وتكوين بلادهم

(١) أساطير المصريين عن مبادئ العالم (٢) مصر الاولى والكلام على مينيس
(٣) الفرعون والكلام على العائلات بحسب ترتيب مانيثون
(٤) الثلاث عائلات المنفية

---

١ — روايات المصريين عن مبادئ العالم

فى الازل كان (نو) أى البحر المحيط الاول وكانت اصول الاشياء وعناصر الموجودات تسبح فى أقصى أعماقه مختلطا بعضها ببعض ثم خرج منه (رع) الذى هو الشمس وخلق الكون بادئ بدء من غير سماء فاوجد الارض وحدها بنباتها وحيوانها وأهلها ثم حكمها قرونا طويلة وأجيالا عديدة الى أن تآمر عليه الناس فى أيام شيخوخته فذبح فريقا منهم وخلق السماء على دعائمها ثم استقر فيها وهو الذى يترآى فى كل صباح فى المشرق ليضىء اليوم الجديد

فلما كمل العالم بخلق السماء تولى الملك بعده أربعة من أكابر الآلهة وكان القوم ينسبون الى الثالث منهم وهو أوسيرس وزوجته إيسس ايجاد جميع الاختراعات التى جعلت الانسان قادرا على احتمال الحياة فانه نظم حقوق الملكية ورتب العائلة ووضع الشرائع وعلم النسج وحراثة القمح والكرم وتربية الماشية وقد قتله أخوه تيفون وتولى مكانه ولكن لم تمض عليه سنون قليلة حتى هاجمه ابن أخيه

حوروس واضطره لان يتنازل له عن أرض الدلتا وأن يبقى لنفسه الوادى الكائن فيما بين ضواحى منف ومدينة اسوان ومن ذلك الوقت لم يبق العالم دولة واحدة ولما انقسمت مصر الى مملكتين بارحها أولياء تيفون وأشياعه وانتشروا فى البلاد المحيطة بها فزنوج كوش فى الجنوب وأهالى آسيا فى الشمال واللوبيون فى الغرب والاعراب من البدو فى الشرق

ثم حكم على مصر بعد حوروس عائلتان إلهيتان من طبقة ثانية وبعد ذلك صعد الآلهة الى السماء وقام الناس مقامهم فى ولاية الاحكام فجاء مينيس من مدينة ثينيس وأسس أول دولة بشرية

٣ — مصر الاولى والكلام على مينيس

تلك هى الروايات التى تناقلتها ألسنة الاهالى ولا يبعد أن يكون المصريون جاؤا من آسيا عن طريق برزخ السويس والظاهر أن الاماكن التى استوطنوها أولا كانت فى الدلتا فان رواياتهم ونقولهم تدور مواضيعها كلها على مدائن الدلتا فيما يتعلق بآلهتهم الذين يبالغون فى اعظامهم واجلالهم أى مبالغة مثل «رع» و «أوسيرس» و «إيسس» و «نيث» كما أن قواعد العقائد قد وضعت فى مدينة هليوپوليس (١) التى يزعم مؤرخوهم أنها كانت مقرا للدول الالهية

---

(١) هى عين شمس المعروفة الآن بالمطرية بجوار مصر القاهرة وفيها مسلة قائمة الى اليوم

وكانت الدلتا في ذلك العهد عبارة عن بطيحة فسيحة تتخللها جزائر رملية وتغشاها آجام وغياض تجري خلالها فروع النيل متنقلة على الدوام من مكان الى مكان ولم يكن الوادي الى حدود الشلال الاول مرتبا ترتيبا طبيعيا أحسن من الدلتا فان الصحراء كانت تنهال رمالها حيث لا يجيء الفيضان من نفسه فيغمر الارض ويحييها وأينما وصلت مياه الفيضان فلكونها لم تكن مدبرة على يد الانسان كانت تسيل بسرعة شديدة لا يتأتى معها اخصاب الارض أو ترسب عليها مدة طويلة حتى انها بعد جريانها فيها تتركها ذات وحل متراكم تنبعث منه الاوبئة وأنواع الطاعون

وقد تغلب المصريون على طبيعة الارض بالصبر والمواظبة فاتخذوا للنيل جسورا تحفظ مياهه وجففوا الارض وشقوا فيها الترع والخلجان وهي التي مازال حفظ ثروة البلاد متوقفا عليها الى يومنا هذا وأسسوا في هذا العهد القديم معظم مدائنهم مثل تنيس وبوباسطة وبونو وكوئيس ومنديس وبسايس وهليوبوليس وهيرا كليوبوليس وسيوط وخميس وثينيس ودندره وطيوة وهرمنتيس وكانت كل مدينة منها عاصمة لولاية مخصوصة كانوا يميزونها عن الاخرى بحسب الرمز الخاص بالاله المعبود فيها فيقولون ولاية الطرفاء أو الجميزة أو البقرة أو الخاطوف (وهو الكُلاب) أو ابن آوى أو القنومة (١) وقد تجزأت هذه الولايات جملة مرات حتى آل بها الامر الى أن صارت

(١) سمكة توجد في الصعيد وتعرف عند الفرنساوية باسم *Oxyrrhynque*

في الحقيقة كورا إدارية ليس الا وكان عدد هذه الكور في العادة أربعة وأربعين نصفها في الدلتا والنصف الآخر في الوادي وكان القائم على رأس هذه الولايات زعماء يتولون الحكومة فيها بالوراثة وقد حازوا في أيديهم جميع فروع السلطة من ملكية وعسكرية ودينية ثم اتحد بعضها ببعض على توالي الايام وصارت كلها عبارة عن مملكتين متمايزتين احداهما مملكة الوجه البحري في الدلتا والاخرى مملكة الوجه القبلي في الوادي أي من حدود الفيوم الى جبل السلسلة ثم الى الشلال الاول

وفي رواية لا تخلو غالبا من الصحة التاريخية أن منا أو مينيس أحد عرفاء ولاية ثينيس هو الذي حاز الشرف وأحرز الفخار بضمه المملكتين الى بعضهما وبتشييد دعائم الدولة المصرية عليهما وكان ذلك في حدود سنة ٥٠٠٠ قبل المسيح

٣ — الفرعون والكلام على العائلات بحسب ترتيب مانيثون

كان الملك عند قدماء المصريين بمثابة ملكين اثنين في شخص واحد لانه كان سيد الوجه البحري وسيد الوجه القبلي وأحب ألقابه لدى رعيته هو لفظة (فرعون) وهذا الاسم مشتق من اسم داريه الكبيرتين (بير — عوى) اللتين يتألف منهما قصره وكل منهما رمز الى احدى مملكتيه وكان من سلالة الآلهة مباشرة ويدعو نفسه بابن الشمس ولذلك كان له سلطة أحد الآلهة التي ليس لها حد تقف عنده وكان القوم يقومون له في ظروف كثيرة بالتعظيم والاجلال على وجه هو أشبه

بالعبادة منه بالتأدب المعتاد مع الملوك فكانوا يبخرونه بالبخور ويهللون أمامه ويدعونه بدعوات دينية ويسجدون له ويقربون القربان الى صوره وتماثيله ويتقربون اليها بالصلوات فاذا مات قالوا (انه طار ليلحق بقرص الشمس الذى هو جده) وحينئذ يخلفه على سرير الملك أكبر أولاده ويكون عادة من الذكور ولكن الاناث كان لهن أيضا من حقوق الملك ما للذكور من غير فرق فاذا انقرضت الذكور أو وقعت فتنة فقلبت دولتهم وأنزلتهم عن سرير الملك كان الفرعون الجديد يتزوج بمجرد ولايته بواحدة فأكثر من هذه الاميرات لتأتى باولاد يكون بهم استمرار جنس الشمس فى الوجود ولذلك يؤكد المصريون بان الذين حكموهم من مبدأ الامر انما هم أبناء عائلة واحدة توالت فروعها على عرش المملكة فتكونت منها عائلات متوالية بمقدار عددهم على أن المؤرخين منهم لم يتفقوا على عدد هذه العائلات ومدة حكمها وذلك لان أحد هؤلاء المؤرخين وهو مانيثون[1] من سبنيطوس الذى كان فى عصر بطليموس فيلادلف وقد كتب لليونان تاريخ بلاده قال ان عدد هذه العائلات واحد وثلاثون من عهد مينيس الى أن افتتحها الاسكندر وقد اختار الحديثون هذا التقسيم ولو أنهم لم يقفوا على حقيقة أسبابه الى الآن وتمتاز كل عائلة عن الاخرى باسم البلد الذى خرجت منه ولم تكن هذه العائلات سواء فى الشوكة والاقتدار

---

(١) هو كاهن مصرى ألف تاريخ مصر القديم من معدنه بأمر بطليموس فيلادلف الثانى وذيله بجدول يشتمل على أسماء الملوك

ولكن المصريين كانوا يعتبرونهن كلهن متناسلات من الشمس تناسلا شرعيا صحيحا وهذه العائلات تنقسم بالطبع الى ثلاث طوائف تختلف مدة حكم كل منها عن الاخرى

١ ـ فاقدمها وهي العائلة الاولى فالثانية الى العاشرة قد حكمت في أيام كان مستقر الحياة السياسية والدينية فيها بالجزء من مصر الكائن في مدخل وادي النيل وهذه هي الدولة القديمة أو العصر المنفي

٢ ـ وأما العشر عائلات التي جاءت بعدها فقد رفعت شأن الصعيد وأعلت مكانته على الوجه البحري فسمي عصرها بالعصر الطيبي وقد أغارت الرعاة وهم العمالقة (العائلتان ١٥ و ١٦) على أرض مصر في وسط ذلك العصر فانقسمت الدولة الى دولتين وهما الدولة المتوسطة من العائلة العاشرة الى العائلة الرابعة عشرة والدولة الاخيرة من العائلة السابعة عشرة الى العائلة المتممة للعشرين

٣ ـ ومن ابتداء العائلة الواحدة والعشرين كان لمدائن الدلتا الشأن والسيطرة على بلاد الصعيد وكانت هي مقر الحكومة وفيها تصاريف السياسة في مصر الى أن أتاها المقدونيون وهذا هو العصر الذي حكمت فيه العائلة الصاوية

٤ ـ الثلاث عائلات المنفية الاولى

لا يكاد يكون لدينا تاريخ للعصر المنفي (فيما بين سنة ٥٠٠٠ وسنة ٣٥٠٠ ق م) وقد جاء في الروايات والنقول أن مينيس نظم مجرى النيل بجسور متينة مكينة فوق رأس الدلتا بقليل وشيد على

هذه الارض المستحدثة مدينة منف أو منفيس واتخذها مقرا لحكومته وعاصمة لمملكته ولم يرد عن خلفائه الأحوال خصوصية وأشياء خوارق للعادات مثل ظهور غرنوق له رأسان والطاعون الجارف وقحط توالى سبع سنين وانفجار هوة عميقة على مقربة من مدينة بوباسطة ابتلعت كثيرا من الناس ولذلك لا يمكن للانسان الى اليوم أن يحكم على معظم ملوك العائلتين (الاولين الطينيتين) هل كان لهم مسمى فى عالم الوجود حقيقة أو أنهم من اختراع الوهم والخيال

على أن الاسفنكس [1] الكبير المعروف بأبي الهول الكائن بجوار اهرام الجيزة وهو من أغرب الآثار وأعجب الاعمال فى العالم بأسره قد كان تشييده فى عهد أولئك الملوك ان لم نقل فى أيام الذين سلفوهم وهذا الاسفنكس الكبير هو رمز تمثيلي للاله الشمس وبعبارة أقرب وأولى هو تمثال لوحش هائل مرعب له جسم أسد ورأس انسان

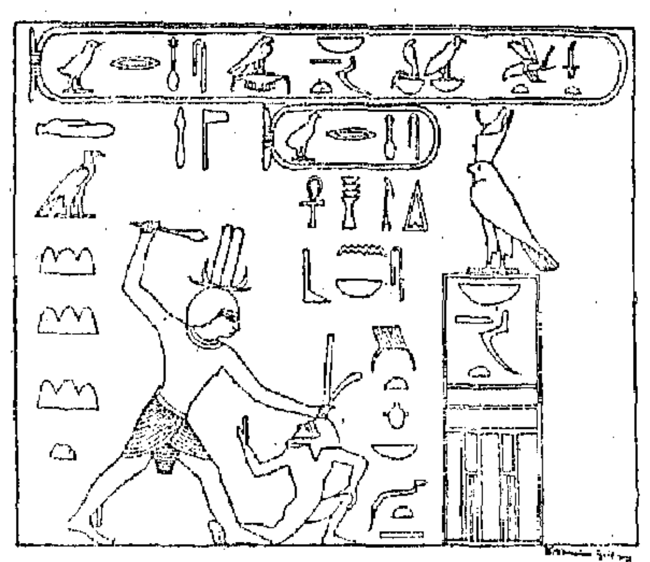
(١) الاسفنكس (واسمه عند قدماء المصريين ارماخيس) هو فى خرافات الاغارقة عبارة عن وحش كان له رأس ونهدان كما فى المرأة وجسم شبيه بجسم الكلب ومخالب أسد وأجنحة نسر وفى ذنبه سهم حاد وورد فى خرافاتهم انه كان يعيش فى بلاد الصعيد على جبل عال ويلقى الالغاز على من يمر به من الناس فمن لم يفسرها افترسه فى الحال فنادى أحد ملوك طيبه بانه يزوج ابنته ويعطى تاجه لمن يريح العالم من شر هذه الآفة فجاء رجل اسمه أديب وحل اللغز فهوى الوحش بنفسه من فوق الصخور وتحطم جسمه وخلص الناس من ضرره وأما اللغز فهو (ما هو الحيوان الذى يمشى على أربع فى الصباح وعلى اثنين فى الظهر وعلى ثلاثة فى المساء) وجوابه هو الانسان يحبو على قدميه ويديه فى الطفولية ويسعى على رجليه فى الشبيبة ويتوكأ على عصا فى الشيخوخة

يزعمون أنه كان موجودا فى الصحراء وقد أرصدوه للاله الشمس على سبيل الوقف والنذر وهو منحوت من جلود أنوابه من أقصى أطراف هضبة لوبيا وأقاموه بحيث يظهر كأنه يرفع رأسه فوق الوادى كله ليكون أول من يمتع ناظره بالقرص المضئ والسراج المنير وقد انهالت عليه الرمال وانتهك جسمه فلم يبق فيه من الاسد الا هيئته العامة وشكله الاجمالى ثم جاءه قوم متعصبون للديانة فحطموا أسفل عُمارته (١) ولحيته وأنفه هذا وان الطبقة الحمراء التى كانت تخيل الحياة على تقاطيعه قد كادت تكون لا أثر لها على أن مجموع هذا التمثال يتجلى مع ما أصابه من صروف الزمان ومحن الايام فى جلباب الرفعة ويترا آى بمظهر القوة والسلطان لا جرم أن الصانع الذى تصور فى مخيلته تصوير هذا التمثال على هذا المنوال وأفرغه فى قالب الكمال وهو يصطنعه فيما بين الجبال لجدير بالمدح والاجلال فان عمله هذا يدل على تقدم فائق وحذق غريب

وقد نشأ التمدن المصرى على يد الاجيال المجهولة لنا التى تعاقبت تحت أقدام هذا التمثال الهائل وسعت فى انماء حضارتها وترقيتها محصورةً فى بلادها لا تتخطاها ولا بد أن آثار هؤلاء الاقوام موجودة باقية ولا شك أن الايام ستكشف لنا مخبآها وتوقفنا على مكنوناتها

(١) العمارة بالضم هى كل ما يوضع على الرأس لتغطيته ويقابلها فى الفرنساوية لفظة *Coiffure*

وأما الآن فنقول ان حقيقة التاريخ لا تبتدئ أمامنا الامن العائلة الثالثة فان الملك سنفرو آخر ملوكها هو أول فرعون وقفنا له على أثر صحيح ونبأ صادق فقد عثرنا على نقوش بارزة على صخرة فى أحد وديان الطور يذكر فيها فوزه وانتصاره على المتبربرين المستوطنين ببادية العرب (شكل ٢)



ش ٢ سنفرو منتصرا على أعدائه
(كما فى نقش بارز على أحد جبال الطور)

خلاصة ما تقدم

(١) كان المصريون يعتقدون أن آلهتهم حكمت الدنيا مباشرة فى مبدأ الامر وأن رع أى الشمس هو أول الملوك وبعد أن توالت الاجيال الطوال على حكم الآلهة جاء مينا من مدينة ثينيس وأسس العائلات الدولية البشرية

(٢) والظاهر أن أصل المصريين من آسيا وأن أقدم مواطنهم كانت بالدلتا وقد حصروا النيل وأبعدوا حدود الصحراء فظهرت بذلك أرض مصر وأحدثوا

فيها ولايات صغيرة تجزأت وانتظمت فيما بعد وتعدلت فتكون منها ٤٤ قسما اداريا أو كورة ثم اتحدت هذه الولايات فصارت مملكتين اثنتين وهما الدلتا اى الوجه البحرى والصعيد أى الوجه القبلى وقد ضمهما مينيس الى بعضهما وأقام عليهما مملكة الفراعنة

(٣) وعلى هذا يصح القول بان الفرعون هو ملك مزدوج واسمه مشتق من لفظة پيرعو ى المجعولة علما على قصر به وهو عندهم من سلالة الشمس مباشرة وكان يلقب نفسه بابنها وكان عبارة عن إله منتعش بالحياة على وجه الارض

وقسم المؤرخ ما نيثون الفراعنة الى احدى وثلاثين عائلة فالعائلات العشر الاول يسمى عصرها بالعصر المنفى أو الدولة القديمة والعشر عائلات الثانية (العائلة ١١ الى ٢٠) عصرها هو المسمى بالطيبى وقد شطرته اغارة العمالقة (الهكسوس) الى قسمين هما الدولة الوسطى والدولة الاخيرة وأما العائلات الباقية فهى داخلة فى العصر الصاوى

(٤) لا يكاد يكون عندنا تاريخ للعصر المنفى (فيما بين سنتى ٥٠٠٠ و ٣٥٠٠ ق م) ولا نعلم شيأ عن أمر العائلات الثلاث التى جاءت بعد مينيس الا أسماء بعض الملوك و بعض الاقاصيص عن حوادث خارقة للعادة وأول فرعون حصلنا على أثر صحيح له هو آخر ملوك العائلة الثالثة وهو سنفرو الذى قاتل بدو الاعراب فى جزيرة الطور

الباب الثالث

الكلام على منف والدولة القديمة

(١) العائلة الرابعة وذكر الملك خيوبس وخفرن وميقرينوس والكلام على احتلال المصريين شبه جزيرة الطور (٢) الأهرام الكبرى (٣) الملوك المنفيون الاخيرون (من العائلة الخامسة والسادسة) افتتاح بلاد النوبة (٤) العائلات الخارجة من قسم هيراكليوبوليس وجلوس العائلات الطيبية على سرير الملك

---

١ ــ العائلة الرابعة وذكر الملك خيوبس وخفرن وميقرينوس والكلام على احتلال المصريين شبه جزيرة الطور

الظاهر أن أغلب ملوك العائلة الرابعة (المنفية) كان لهم حزم ودراية في التدبير وقد رزقهم الله السعادة في ادارة شؤون البلاد نخص بالذكر منهم الملك خيوبس والملك خفرن والملك ميقرينوس على أنهم لم يوجهوا همتهم واجتهادهم الى الاشتغال بما هو خارج عن الديار المصرية بل حصروا أعمالهم فيها ولما كانت مصر تحف بها البوادي وتحدق بها الصحارى من كل جهة فليس لها في الحقيقة من جيران ثم ان اللوبيين القاطنين بالواحات الواقعة غربي النيل والاعراب الذين كانوا يحومون ويتوترون(١) على قلة عددهم وسوء عددهم في الجهة الشرقية فيما بين النيل والبحر الاحمر كانوا قد يضايقون القطر ولكنهم

---

(١) أي يجيئون ويذهبون

لم يكونوا بالقوم الذين يخشى بأسهم أو يرهب جانبهم فلذلك كان حسب ملوك مصر أن يغزوهم من حين الى حين لالقاء الرعب فى روعهم ومنعهم عن العدوان وحفظ الوادى من غاراتهم

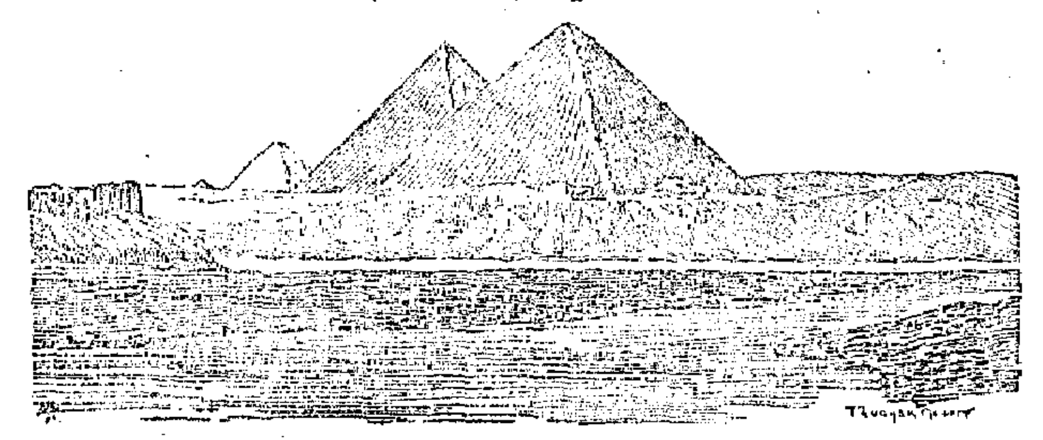
على أن الفراعنة الاقدمين صمموا على الخروج من ديارهم الى نقطة واحدة أسسوا فيها مستعمرة باقية مستمرة وهى شبه جزيرة الطور لانها كانت تحتوى فى بعض وديانها المواجهة لمصر على معادن يكثر فيها النحاس والفيروزج ومالبثت هذه الجهة أن توطنت فيها العمال واشتغلوا باستخراج هذه المعادن مدة أجيال طوال وقد أقاموا فى مواضع مختلفة جسورا لحبس مياه الامطار فكانت منها بحيرات صغيرة أمكن بواسطتها فلاحة بعض الاراضى وتربية قليل من الماشية وكان البرابرة من أهل الجيرة ينازعون أولئك المستعمرين فى امتلاك هذه الواحات الصناعية وبعد سنفرو قد صد هجماتهم كثير من الفراعنة ولكن لم يقم بفكر أحد من هؤلاء الملوك أن يتم غزوته ويستقصى نصرته ولم يكن بين كور آسيا الممتدة خلف الصحراء التى نشأت منها فيما بعد بلاد فلسطين ويهوذا وبين الديار المصرية الا علاقات تجارية وكانت القوافل تتردد بانتظام فيما بين أفريقيا وآسيا وأما الجيوش فلم تسلك هذه الدروب

٣ ـ الأهرام الكبرى

كان الامن والسكينة ضاربين أطنابهما فى داخل البلاد المصرية ويظهر لنا من الاوراق المكتوبة فى ذلك العصر أن الفلاحة كانت

فى غاية الفلاح وأن الصناعة ارتقت فى معاريج النجاح وهنالك مثات من القبور تفصح بلسان الحال عن الدرجة السامية التى بلغها فن العمارة والنقش فى ذلك الزمان

وكان الملوك فى ذلك العصر كلفين ببناء القبور العظيمة لانفسهم مدة حياتهم على شكل هرمى قاعدته رباعية وقد وقف الباحثون فى هذا الزمان على اطلال نحو ستين هرما تتقاطر وراء بعضها فى مصر الوسطى من أرباض القاهرة حتى مدخل الفيوم وأشهرها هى المعروفة بالأهرام الكبرى وهى قائمة على سفح سلسلة جبال لوبيا الى الغرب قريبا من المدينة المستحدثة المعروفة بالجيزة (شكل ٣)



ش ٣ (الأهرام الكبرى بالجيزة)

وفى كل واحد من هذه الأهرام حجرة واحدة أو أكثر لدفن الموتى يدخل اليها الانسان من دهاليز منحدرة منحوتة فى نفس البناء وكانوا متى وضعوا موميا(١) الملك أقفلوا الحجرات بصخور من الصوان ثم يردمون

(١) الجثة المحنطة المحفوظة من الفساد وأصل المعنى دواء وهى كلمة يونانية معناها حافظ الاجسام

الجزء من دهليز الدخول القريب من الخارج ردما تاما وبعد ذلك يطلون جميع سطوح الهرم بطبقة كاسية جميلة بهجة فيختفى الباب ولا يبقى له أثر يدل عليه وارتفاع الهرم الاكبر المعروف عند قدماء المصريين بما معناه (الباهى) هو فى أيامنا هذه ١٣٧ مترا وكان فيما غبر من الايام مقبرة للملك خيوپس ولكنه لم يبق فيه الآن سوى خابية التابوت من الرخام الابيض والهرم القائم بجانبه هو لخفرن وأما الهرم الاصغر فبانيه ميقرينوس

وقد دارت على ألسنة العوام منذ الاحقاب الخوالى جملة أساطير وخرافات بشأن هذه الآثار الثلاثة فيقال أن «خيوپس بدأ باقفال الهياكل وتحريم القربان ثم ألزم جميع المصريين بالعمل له فكانوا يؤخذون للسخرة فى كل ثلاثة شهور مائة ألف رجل منهم وأن مدة شقائهم وبلائهم فى بناء الهرم كانت ثلاثين عاما منها عشر سنين فى تمهيد أرضيته وبناء حجراته التى تحت الارض وبناء الجسر (الموصل اليه من شاطئ النيل المعد لنقل الاحجار التى بنى منها هذا الهرم) والعشرون عاما الاخرى قضوها فى بناء الهرم ذاته وان الهرم عليه نقوش تنبئ بمقدار ما صرف فى شراء الفجل والبصل والثوم لاجل غذاء الشغالة» وقد بقى هذا الظلم والاستبداد على عهد خفرن ولم ينقطع أثره الا بتولى ميقرينوس «فانه أعاد فتح الهياكل وأباح للناس أن ينطلقوا الى شؤنهم ويتفرغوا لامورهم الدينية وحكم بالعدل أكثر من جميع الملوك الآخرين» ولعمرى ان هذا من باب الاقاصيص

المدهشة تروع النفوس السائحين فان خيوپس وخفرن هما من أعظم وأكبر ملوك مصر (شكل ٤)



ش ٤
(تمثال خفرن كما هو بمتحف الجيزة)

٣ ـ الملوك المنفيون الاخيرون من العائلة الخامسة والسادسة وذكر افتتاح بلاد النوبة

الظاهر أن العائلة الخامسة (المنفية) لا تختلف عن العائلة الرابعة في شيء فانها تشبهها في توفر أسباب الثروة واليسار وتوطد دعائم الامان والنظام والولوع بالترف في العمائر ولكنها مع ذلك كانت مبدأ لسقوط الدولة المصرية وانحطاطها

وكان مؤسسو الحكومة الملوكية في مصر لم يخلعوا أمراء الولايات (الكور) بل كان هؤلاء يتعاقبون عليها بطريق الميراث وجعلهم الملوك إخاذيين[1] تابعين لهم وأبقوا لهم حقوق الامارة على شرط أن يدفعوا لهم اتاوة معينة ويمدوهم بالجند في الخدمة العسكرية وكانت هذه الولاية الاخاذية مازالت يانعة زاهرة في مدة الاجيال السابقة فكان للكثير من العشائر التي يتألف منها هؤلاء الامراء أملاك واسعة وأقطاع فسيحة بحيث انها في زمن الفتن كان يخشى على العائلة الحاكمة من أن تكون لها خصما عنيدا يجب الاحتفاظ منه ولا نعلم كيف ان احدى هذه العشائر وأصلها من جزيرة اسوان[2] استبدت على العائلة

(١) الاخاذة أرض يحوزها الرجل لنفسه وقد اخترناها للتعبير عما هو معروف بالحكومة الالتزامية لان اللفظة أعرق في العربية وأوفى بالمرام

(٢) وتسمى أيضا جزيرة البربا وجزيرة الذهب لكثرة التبر النقي في رمالها ويوجد بها مقياس النيل المشهور وهي المعروفة عند الفرنج باسم جزيرة الفنتين *Eléphantine* أي جزيرة الفيل لان قدماء المصريين كانوا يسمونها (آب) أي الفيل وكانت سوقا لمبيع سن الفيل وكانوا يعتقدون ان النيل ينزل من السماء

المنفية وتناولت دونها الاحكام ولكنها تعاطت شؤون التدبير ومهام الملك بما أوجب لها المهابة والفخار والعزة والاقتدار (وهى العائلة السادسة) وأقدم الملوك المصريين الفاتحين الذى وقفنا على حروبه هو الملك الثانى من هذه العائلة المعروف باسم پيپي فانه انتصر فى وقائعه مع الاقوام المستوطنين شرقى الدلتا وغربيها وحطم ما كان لهم من أشجار التين وقطع كرومهم وأحرق قمحهم وسبى نساءهم وأولادهم ثم أخضع كور النوبة وهى ما يلى الشلال الاول جنوبا وأدخل أهاليها فى سلك الجيوش المصرية

وبعد ذلك بقرن ونصف عاد الامر والسلطان الى العائلات المنفية (العائلة السابعة والثامنة) ولكن لم يقبل الدهر على فراعنتها إقباله الاول فلم ترجع لهم أيام العز القديم وكانت الولايات الاخاذية التى فى مصر الوسطى هى الاكثر شوكة واقتدارا فى هذا العصر فجاء أسياد هيرا كليوپوليس[1] وهم أصحاب الفيوم فقلبوا دولة الفراعنة الشرعية

ويتولد فى وسط صخور الجنادل والشلالات الكائنة بين هذه الجزيرة وبين جزيرة أخرى تعرف عند اليونان والافرنج باسم جزيرة فيلة *Philæ* وذكرت فى كتب العرب المعتبرة باسم جزيرة بلاق وبها الهيكل المشهور المعروف بقصر أنس الوجود فتنبه للفرق بين الجزيرتين واحتفظ على اسميهما عند العرب

(١) هو القسم المتمم للعشرين من أقسام الصعيد فى الزمن القديم وهذا هو اسمه اليونانى وقاعدته خينتسو أى اهناس المدينة (عديرية بنى سويف) ولذلك تسمى هذه العائلات بالاهناسية وقد اصطلح المؤلف فى الغالب على وضع أسماء الاشخاص والاماكن بحسب المتعارف فى اللغة اليونانية فتنبه

ولبسوا التاج واستأثروا بالملك ومن ذلك العهد لم تخرج من منف عائلة تولت الاحكام فى مصر

٤ — العائلات الخارجة من هيرا كليوبوليس وجلوس العائلات الطيبية على سرير الملك

ان السيطرة التى حصلت عليها مدينة هيرا كليوبوليس لم تبق لها الا قليلا من الزمن (حكمت فيه العائلتان التاسعة والعاشرة) فقد ظهر لها فى الجنوب أخصام ذوو بأس شديد ولم تكن مدينة طيبة الى ذلك العهد نالت من الظهور ما يجعل لها حديثا فى التاريخ ولم تنل الاهمية ورفعة الشأن الا بعد سقوط المنفيين وخروج الامر من يدهم وكانت فى أول الامر تابعة لهيرا كليوبوليس ولكنها ما لبثت أن جاهرتها بالعصيان وأشهرت عليها الحرب العوان وجالد أمراؤها فراعنة العائلة العاشرة وفازوا بالظفر والانتصار حتى استبدوا عليهم وانتزعوا الملك من أيديهم (فى حدود سنة ٣٢٠٠ ق م)

واعلم أن تولى العائلة العاشرة الطيبية انتهت به تلك الحركة التى ابتدأت فى الوجود عقيب سقوط العائلة الخامسة فقد كانت الحياة السياسية فى القطر حالة بأكملها بمصر الوسطى فى مبدأ الامر ثم انتقلت منها قليلا قليلا حتى كأنها صعدت النهر ووقفت فى متوسط مجراه برهة من الزمان ثم بارحت هذا المكان فأخذت مدينة طيبة الرياسة والتصدر بعد مدينة منف وبقيت على ذلك أكثر من عشرين قرنا بالتمام

خلاصة ما تقدم

(١) لم تتوجه همة ملوك العائلة الرابعة وهم خيوبس وخفرن وميقرينوس ولم يعدوا بذا اجتهادهم الى ماهو خارج عن الديار المصرية ولم يخرجوا من مصر الا لاحتلال شبه جزيرة الطور حيث أنشؤا فيها مستعمرات وطيدة الدعائم خصصوها لاستخراج المعادن

(٢) وفي داخل القطر كانت السكينة تامة والامنية عامة وكان الفراعنة يتفننون بكل ما في وسعهم في تشييد قبورهم وهي أهرام متقاطرة وراء بعضها فيما بين الفيوم والقاهرة على حافة صحراء لوبيا وأشهر هذه الأهرام هي التي بجوار الجيزة بنى الملك خيوبس أكبرها والملك خفرن أوسطها والملك ميقرينوس أصغرها وقد دار على ألسنة العامة من الاهالي فيما بعد أنها من صنيع ملوك قست قلوبهم وكانوا من الزنادقة الملاحدة

(٣) لما قامت العائلة الخامسة أخذت منف في السقوط عما كان لها من السيطرة وازدادت أهمية الولاة الاخاذيين في مصر الوسطى ثم جلست على سرير الملك عائلة أصلها من جزيرة اسوان وهي العائلة السادسة وابتدأ أحد ملوكها وهو بيبي الاول في افتتاح النوبة وظهر على الامم المتوطنة في شرقي الدلتا وغربيها وبعده بقليل عاد المجد والعز الى مدينة منف (في أيام العائلتين السابعة والثامنة) ثم مالبثت أن فقدت هذه السيطرة الى أبد الآبدين

(٤) وجاءت عائلتان من مدينة هيراكليوبوليس (وهما التاسعة والعاشرة) وجلستا على سرير الملك فمهدت طريقة الانتقال من الدولة القديمة الى الدولة الوسطى ثم دبت الحياة السياسية في مصر الجنوبية واستقرت فيها ادارة البلاد اذ قام ملوك العائلة الحادية عشرة وبعد طول الجلاد استولوا على جميع ما في القطر من البلاد واتخذوا مدينة طيبة عاصمة لهم وكان ذلك في حدود سنة ٣٢٠٠ ق م)

الباب الرابع

طيبه والرعمسيسيين

(١) ذكر العائلتين الثانية عشرة والثالثة عشرة وحدوث المملكة المصرية الكبرى (٢) الهيكسوس (٣) العائلة الثامنة عشرة وحروبها فى الاقاليم الداخلة فى الحوض الذى يرويه نهر النيل (٤) افتتاح الشام وذكر تحوتمس الثالث (٥) العائلة التاسعة عشرة وجالدها مع الخيثى (الخيثيين) والكلام على رعمسيس الثانى (٦) رعمسيس الثالث وذكر انحطاط مصر عما كان لها من الشوكة والاقتدار

---

١ — ذكر العائلة الثانية عشرة والثالثة عشرة وحدوث المملكة المصرية الكبرى

لما تقلد أمراء الجنوب زمام الاحكام وقبضوا على مقاليد الادارة ساروا بمصر فى وجهة جديدة واختطوا لها طريقا لم تمكن سارت فيه من ذى قبل فبقدر ما كان سلفاؤهم المنفيون يجنحون الى السلم كان هؤلاء الملوك ميالين للقتال مولعين بافتتاح البُلدان ففى أوائل حكمهم أى فى الدولة الوسطى كانوا لا يكادون يشنون الغارة الا على بلاد اتيوبيا وذلك لان موقع عاصمتهم ومقر حكومتهم هو الذى قضى عليهم بانتهاج هذا المنهج فانهم لقربهم من تخوم النوبة أكثر من سلفائهم كانوا أشد منهم شعورا بالحاجة الى الاستيلاء على الاقاليم التى يرويها النيل الاعلى ولكن لم يكتفوا مثل بيبى الاول ببعض غزوات كانت نتيجتها وقتية بل شرعوا فى افتتاح البلاد واحتلالها بكيفية دائمة مستمرة

وقد اتسعت مصر فى أيام العائلة الثانية عشرة (التى حكمت من سنه ٣٢٠٠ الى سنة ٣٠٠٠ ق م) فانها أبعدت بحدودها الى ماوراء الشلال الثانى فان ملوك هذه العائلة المعروفين باسم أَمنَحِت وباسم أوسرتسن قد أسسوا بين اسوان ووادى حلفا مستعمرات مصرية عززوها بقلاع وحصون كان لها السيطرة والامر على ملاحة النهر وأما العائلة الثالثة عشرة فقد تقدمت بالتدريج فى فتوحها الى ماوراء الشلال الرابع ومازالت آثار ملوكها تشاهد الى يومنا هذا فى جهات متفرقة قبلى وادى حلفا فانهم استولوا على تلك البقاع استيلاء تاما أما السكان فنهم من تبدد شملهم ومنهم من قضى عليه ناموس النسخ والحاول فتمثلوا بالفاتحين وتشبهوا بهم فتلاشت لغتهم وكتاباتهم وأخلاقهم ودياناتهم وحلت محلها لغة الطيبيين وكتابتهم وأخلاقهم ودياناتهم ثم قسم المصريون البلاد ورتبوها على الاسلوب المتبع فى ترتيب الكور (الاقسام) التى بشمالى اسوان

وبهذا تم للعائلتين الاوليين الطيبيتين توسيع دائرة مصر فبعد أن كانت تنتهى عند الشلال الاول صارت مملكة كبيرة بعيدة الاطراف عاضدوه الى جنوبها من أقاليم افريقية فان استمرارهم على القتال مع قبائل قليلة عاجزة عن المقاومة ما كان يحوجهم الى كبير قوة فلم يكونوا يخشون من هذه الحروب أن تجر وراءها الفقر فى القطر المصرى أو الضعف فى سكانه وقد نالت مصر على يد الدولة الوسطى من الرفاهية والهدو ما استمر فيها نحو خمسة قرون على الاقل

وكانت طيبة واقعة على منتصف المسافة الطويلة التي بين الشلال الرابع وبين البحر الابيض المتوسط ولهذا كانت هي التي يصح بل يتعين أن تكون عاصمة للمملكة المصرية المستحدثة وما كان لها أن تخشى من الاقسام النوبية انشقاقا عليها أو خروجا عن طاعتها فانها كانت حديثة عهد بالتأسيس بحيث لا تتعلق آمالها بالاستقلال عنها أما مدائن الدلتا فما كان يتسنى لها أن تنسى مجدها القديم وعزها الفائت بل قد اغتنمت احداها وهي مدينة اكسويس[1] فرصة الثورات والفتن التي ظهرت في أواخر العائلة الثالثة عشرة فجعلت امراءها ملوكا على مصر وأعادت النفوذ والسلطان لاهالي الدلتا

٣ — الهيكسوس (أي العمالقة)

ولكن الملوك الخارجين من هذه المدينة لم يقدروا على صد غارات الاعراب قال مانيتون «لولانا ملك اسمه تيماوس وما أدرى لماذا أرسل الله علينا في عهده ريحا عاصفا كسنابها فقدم على بلادنا أناس من المشرق محتقرون مهينون فاغاروا عليها وأخضعوها بسهولة ومن غير قتال وهذا أمر بعيد الاحتمال ولم يكن في حسبان انسان» فان الاعراب انقضوا على الدلتا وانتشروا في أنحائها انتشار الجراد وما لبث أولئك الرعاة أن اختاروا سلاطيس أحد رؤسائهم فولوه ملكا عليهم وألزموا جميع الامراء الوطنيين الاعتراف به والخضوع لسلطانه (وكان ذلك فيما بين سنة ٢٣٠٠؟ وسنة ٢٢٠٠ ق م) وقد استمر

(١) المعروفة الآن بسخا بمديرية الغربية .

حكم الهيكسوس (الملوك الرعاة) ستة قرون وبقيت هذه العشائر وهي متحصنة في معسكر أواريس على حالتها من الخشونة والفظاظة ولكن ملوكهم ما لبثوا أن رقوا في سلم المدنية ومعراج الحضارة حتى صاروا يشبهون الفراعنة تمام المشابهة فشادوا المعابد والهيا كل وأقاموا التماثيل والانصاب واتخذوا اللسان المصري لغة رسمية لهم ونشأ منهم عائلتان (الخامسة عشرة والسادسة عشرة) معترف بهما من الجميع ثم قام ولاة الاقاليم القبلية ورجعوا الى استقلالهم وساعدهم على ذلك بعدهم عن الدلتا ثم مالوا ملوك طيبة على الملوك المتناسلين من الاغراب فظهرت العائلة السابعة عشرة (الطيبية) واستمرت مدة قرن ونصف وهي تحاول استرجاع الفيوم والدلتا وقد استولى الملك أموسيس أول فراعنة العائلة الثامنة عشرة على معسكر أواريس وطرد من بقي من الرعاة العمالقة الى بلاد الشام (وذلك فيما بين سنتي ١٧٠٠ و ١٦٥٠ قبل الميلاد) وحينئذ صارت طيبة مرة ثانية عاصمة للديار المصرية

٣ — العائلة الثامنة عشرة وحروبها في حوض النيل

كانت مدة الحكم الثاني في مدينة طيبة شبيهة بمدة الحكم الاول من حيث نوال الفخار بالفوز والانتصار في الوقائع الحربية والاعمال العسكرية ولكن ملوك هذه العائلة لم يقصدوا فتح الاقاليم التي غزاها أمراء طيبة قبلهم لان النوبة ما زالت مصرية في أيام الرعاة وقد أعاد لها ملوك طيبة رفاهيتها القديمة من غير عناء وانما استمروا في الاستعمار

الى أن بلغوا ضواحى بربر وفيما وراءها لم يكن لهم الا أمراء تابعون لهم او متحالفون معهم وكانوا يرسلون السرايا عن طريق النيل حينا وحينا الى واحات دارفور أو الى سهول سنار فيحرقون القرى ويسلبون المواشى ويسبون كل من تصل اليه أيديهم من السكان ثم يعودون الى بلادهم من غير أن يتركوا خلفهم مستعمرات ولا حامية من الجنود وقد تقدموا فى غاراتهم حتى بلغوا سفح جبال الحبشة ولكنهم لم يخاطروا بأنفسهم فى الدخول اليها ومن جهة أخرى كانوا يرسلون أسطولهم أحيانا فى البحر الاحمر الى بلاد پونيت [1] (السومالى واليمن) لجلب عود الند والاعطار وسن الفيل والاخشاب النفيسة الثمينة ولاخضاع قبائل السواحل وجعلها تحت سيادة مصر ولو فى الظاهر وما كان الاسطول يصادف فى هذه الجهات أمة متمدنة تقاومه مقاومة صادقة حقيقية

٤ — فتوح الشام وذكر تحوتمس الثالث

بل وجهوا وجهة جلادهم الى بلاد الشام فجعلوها ميدانا للقتال والنزال ولم تكن هذه الاقطار مجهولة قبل العائلة الثامنة عشرة ولكن الفراعنة ما كانوا اقتربوا منها قط فان أموسيس اقتفى فيها أثر من بقى من الرعاة وجابها تحوتمس الاول الى أن بلغ الفرات (فى نواحى سنة ١٥٨٠ ق م) وأما تحوتمس الثالث (شكل ٥) فقد أخضعها بتمامها (وذلك فيما بين سنتى ١٥٦٠ و ١٥٣٠ ق م)

(١) لعل لفظة البن عند العرب مشتقة من هذا الاسم القديم



ش ٥
(الفرعون تحوتموسيس الثالث)

وكان الكنعانيون متوطنين في جنوبها وفي وسطها والفلسطينيون على شطوطها وأما شمالها فكان يعمره طوائف الحيثي (الحيثيين) وقبائل بعضها اسامي" الاصل يطلق عليه المصريون اسم جنس مخصوص وهو رُوتِنُّو . وكان نفوذ بابل راجحاً في هذه الاقطار حتى أشبهت أخلاق أهاليها وديانتهم أخلاقَ البابليين وديانتهم وصارت اللغة البابلية متفاهمة في جميع انحائها والكتابة البابلية شائعة الاستعمال عندهم فلما ظهر المصريون فيما بين أمم يعادلونهم في الحضارة والانتظام لم يختلج بنفوسهم انشاء المستعمرات في أرضهم ولم يروا وجهاً لتمثيلهم بهم كما فعلوا مع أهالي النوبة بل تركوا لهم شرائعهم ونظاماتهم وأقروا العائلات الحاكمة منهم فيهم واكتفوا بضرب الجزية السنوية عليهم وبالتجنيد منهم

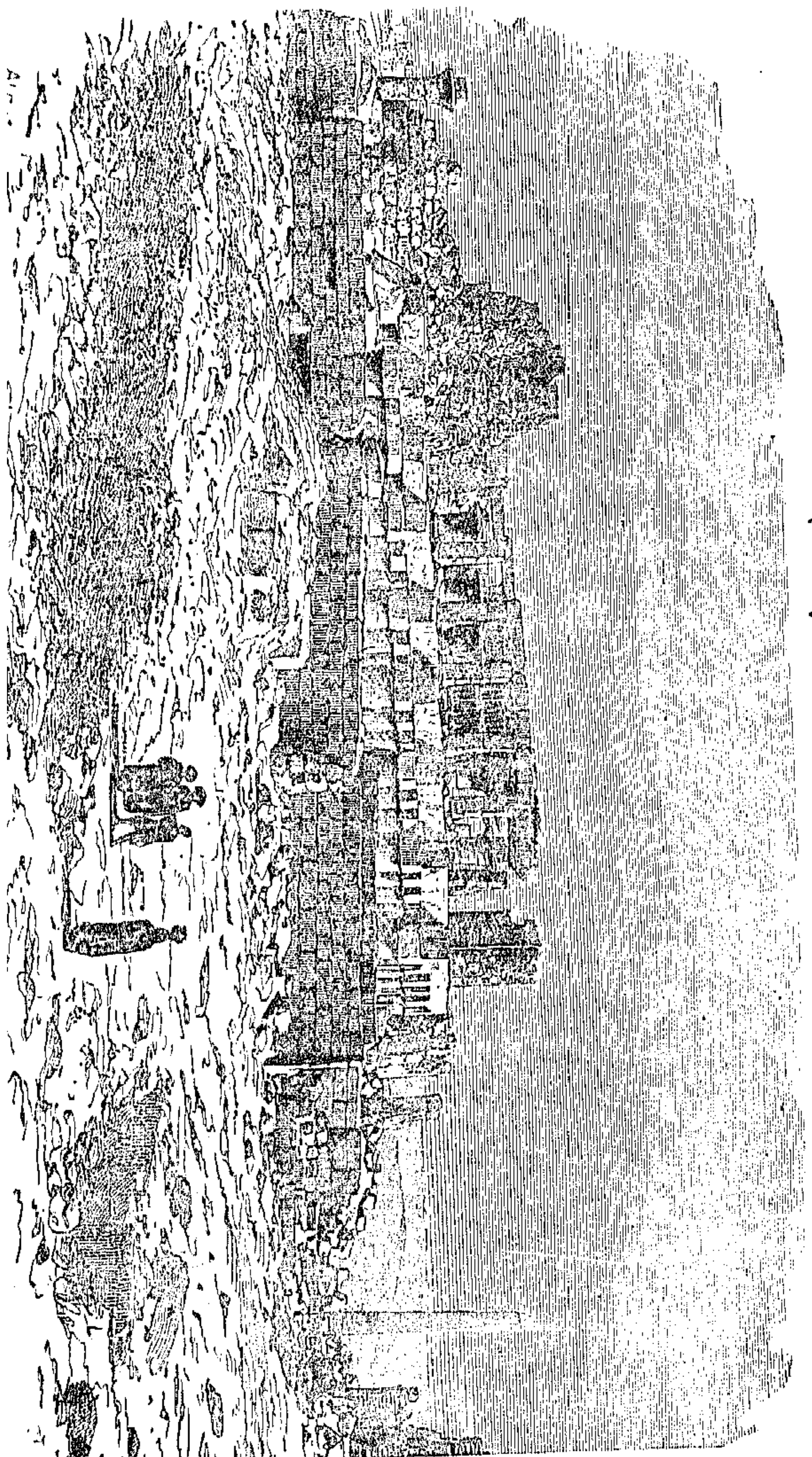
أحيانا ثم احتلوا قليلا من الحصون والقلاع مثل غزة ومجدو[1] لانها كانت كمعالم تهتدى بها الجيوش المصرية فى سلوكها وكانوا يرسلون الى المدائن فى كل عام رسلا من قبل الملك يأخذون الاتاوة ويسوون ما يقع من الخلاف والنزاع بين الفرعون والامير التابع له

وكانت الرابطة التى تجمع بين أجزاء هذه المملكة غير وثيقة فكان يتكرر انقطاعها ويتوالى فصمها بسبب امتناع بعض الامراء عن دفع الاموال فى أكثر الاحيان أو بظهور الفتنة فى بعض المدائن أو فى جميعها وكان الفرعون وأعوانه دائما يتوصلون الى استئصال شأفة الثورة وقمع الخوارج واعادة السكينة على قدر ما يصلون اليه واستمرت سلطة الدولة المصرية على هذا المنوال من غير أن تكون وطيدة الاركان ومن غير أن يعتريها تأثير عظيم من الاضمحلال مدة قرن من الزمان أى من عهد تحوتمس الثالث الى أيام امينوتيس الرابع بل ان نفس ملوك الاشوريين والكلدانيين اعترفوا بهذه السيطرة للدولة المصرية ورأوا من الحزم والحكمة تحسين صلاتهم مع جيرانهم المصريين ذوى الاقتدار والبطش المبين

٥ — العائلة التاسعة عشرة ومحاربتها مع طوائف الحيثى (الحيثيين) وذكر رمسيس الثانى

وقد أخذ نجم مصر فى الافول وازدهارها فى الذبول فتلاشى سلطانها فى عهد امينوتيس الرابع (فى حدود سنة ١٤٣٠ ق م)

(١) اسم مدينة كانت فى ذلك الوقت على ما يقول أهل السير أعظم من ألف مدينة وتعرف الآن بتل المتسلم بالشام بالقرب من مدينة اللجيون



ش ٦ (خرائب هيكل آمون الكرنك)

وقد اتسع نطاق طيبة تخت مصر مما غنمته من الفتوحات والانتصارات وزادت ثروة معبودها آمون زيادة تفوق الحد بما جيء به اليه من أسلاب الامم المغلوبة حتى لقد عظم هيكله بمدينة الكونك واتسع (شكل ٦) فصار كأنه مدينة من المدائن وكانت الاوقاف تتواتر عليه والهدايا تتوارد اليه حتى ان املاكه ملأت وادى النيل وامتدت الى آسيا وصار لكبار كهنته فى الدولة نفوذ تام وسلطان عام وكلمة عالية ومكانة سامية واستفحل الامر حتى خشى الفرعون نفسه بأسهم وداخلته الريبة منهم وقد كان امينوتيس الثالث حاول معاكسة نفوذهم فسعى فى المساعدة على عبادة الشمس إله هليوپوليس فلما خلفه ابنه امينوتيس الرابع رأى من نفسه الاقتدار على اعدام هذا النفوذ وملاشاته من الوجود فنقل كرسى مملكته الى مدينة أحدثها فى مصر الوسطى وجعلها تحت حماية الاله آتنو أى قرص الشمس ومن هذا العهد صار هذا الاله معبود العائلة الملوكية وقد حاول خلفاؤه من بعده أن يتمموا عمله ولكنهم أخفقوا سعيا لما صادفوه من معارضة الامة والاشراف فعادت طيبة الى مكانتها وصارت تختا للمملكة كما كانت ورجع آمون الى مقامه مقام حامى مصر وراعيها وجاء ملك متمسك بسنة الديانة الاصلية واسمه هرمايس فأسس عائلة جديدة (هى التاسعة عشرة)

وان الفتن التى ثارت فى مصر بسبب مطالب ودعوة هؤلاء الملوك المنشقين عن الدين كانت فرصة لولاة الشام التابعين لهم انتهزوها

في القيام عليهم والخروج عن طاعتهم وفيما كانت مصر تتضعضع أركانها بالحروب الداخلية جمع أحد رؤساء الخيثي (الخيثيين) قبائل أمته في قبضة يده واستولى على كركميش وأسس دولة دخلت فيها كيليكيا والجهات المجاورة لها من آسيا الصغرى من جهة واشتملت من الجهة الاخرى على حوض نهر العاصي (1) ولم ينجح الملكان الاولان من العائلة التاسعة عشرة وهما رمسيس الاول وسيتي الاول (شكل ٧) في تقويض دعائم دولته وملاشاة سلطنته بل ان رمسيس الثاني المعروف عند اليونان باسم سيزوستريس بعد أن قاتله نحو عشرين سنة اضطر الى الرضا بما وقع وبمعاملة ختسارو أمير الخيثي



ش ٧ (الملك سيتي الاول كما هو في احدى الصور التي على قبره)

(الخيثيين) معاملة الاكفاء والاقران (شكل ٨) ومن ذلك العهد لم يبق حكم مصر وطيدا الا في فينيقية وسورية الجنوبية وأما شمال الشام فقامت فيه دولة مستقلة فاصلة بين مصر وأشور (وكان ذلك في حدود سنة ١٣٥٠ ق م)

(1) اسمه بالافرنجية *Oronte* وورد في بعض كتب العرب القديمة المعتبرة ارنط (راجع التفصيل في القاموس الذي وضعته لضبط وتحرير الاعلام الجغرافية)



ش ٨ (صورة ملك خيثى فى حالة العبادة امام إلهه بحسب النقش البارز الموجود فى ابريز)

٦ — رمسيس الثالث وذكر انحطاط مصر عما كان لها من الشوكة والاقتدار

وقد ظهر الانحطاط بأكثر من ذلك فى القرن التالى فان أمم الارخبيل وسواحل آسيا الصغرى أو إغريقية (أى بلاد اليونان) المعبر عنهم بـ«أمم البحر» تواطؤا مع اللوبيين فشنوا الغارة جميعا على الوجه البحرى فى عهد منفتاح بن رمسيس الثانى فهزمهم وردهم على أعقابهم خاسرين ولكنهم عاودوا الكرة فى أيام خلفائه وساعدهم على نجاح مشروعهم ما حصل من ثورة ولاة الكور فخلعوا الفرعون

من الملك واستبدلوه بصعلوك أفاق مقحام من أبناء الشام وبقي على رأس الدولة بضعة أعوام حتى جاء رجل من سلالة الاسرة القديمة الشمسية وهو رمسيس الثالث فأعاد مصر كلها تحت سلطان العائلة المتممة للعشرين وهزم أمم البحر وكسر جنود اللوبيين وافتتح سورية الجنوبية ثانيا (في حدود سنة ١٢٥٠ ق م) وقد تلقب الملوك الذين خلفوه باسم رمسيس وحافظوا مدة قرن أيضا على بضعة مدائن في أرض الفلسطينيين وعلى سيادتهم على جزء من البلاد المجاورة لها (من سنة ١٢٠٠ الى سنة ١١٠٠ ق م)

خلاصة ما تقدم

(١) ان جلوس ملوك الجنوب على منصة الاحكام غير أحوال مصر وبدل الطريق التي كانت سائرة فيها بطريق أخرى وذلك لان العائلات الطيبية كانت مولعة بالقتال كلفة بافتتاح البلدان فالعائلتان الاوليان منها (الثانية عشرة والثالثة عشرة) وجهتا معظم همتهما وجل عزيمتهما الى أقاليم النيل الاعلى واستعمرتا النوبة لحد الشلال الرابع فاحدثتا بهذه المثابة مملكة مصرية كبرى كانت مدينة طيبة قاعدتها ومركزها ثم تبدلت الامور وتقلبت الاحوال فعاد السلطان مؤقتا الى عائلة من الدلتا هي العائلة الرابعة عشرة السخاوية

(٢) ولم تتمكن هذه العائلة من حماية القطر وصد هجمات الهيكسوس فاغاروا عليه في حدود سنة ٢٣٠٠ قبل الميلاد وحكموه نحو ستة قرون ثم تم طردهم من البلاد بعد أن طال أمد الجلاد بينهم وبين الملك الطيبي اموسيس مؤسس العائلة الثامنة عشرة

(٣) وقد حافظ فراعنة هذه العائلة على البقاع التي افتتحها ملوك الدولة الوسطى في حوض النيل بل وأضافوا اليها فتوحات أخرى

(٤) على انهم فضلوا مهاجمة آسيا حيث افتتح تحوتمس الثالث بلاد الشام الى نهر الفرات (فيما بين سنتي ١٥٦٠ و ١٥٣٠ ق م) غير ان مملكتهم المؤلفة من مدائن وأمم مضروبة عليهم الجزية وخاضعة لطاعتهم بواسطة بعض الحاميات المصرية قد بقيت محفوظة كما هي مدة جيل تقريبا (من سنة ١٥٣٠ الى سنة ١٤٣٠ ق م)

(٥) ثم أخذ ظل دولتهم يتقلص على إثر الحروب الاهلية التي كان سببها مسعى امينوتيس الرابع في استبدال عبادة أمون بعبادة قرص الشمس ولم يتيسر للفرعونين الغازيين سيتي الاول ورمسيس الثاني (سيزوستريس) من العائلة التاسعة عشرة (فيما بين سنتي ١٤٠٠ و ١٣٠٠ ق م) ان يعيدا المملكة الى ما كانت عليه بالتمام والكمال وأضحت مملكة الحيثي (الحيثيين) من ذلك العهد دولة مستقلة في سورية الشماليـــــة

(٦) ثم ازداد الانحطاط في القرن التالي مع ما كان من انتصار منفتاح ورمسيس الثالث على اللوبيين وأمم البحر في وقائع عديدة ثم أضاع الملوك المعروفون بالرعامسة من العائلة المتممة للعشرين في مائة سنة من الزمان جميع البلدان التي فتحها أسلافهم في آسيا والى الله المآل (١٢٠٠ — ١١٠٠ ق م)

الباب الخامس

تغلب الاجانب على مصر

(١) انحطاط طيبة وذكر العائلة الحادية والعشرين التنيسية (٢) ششنق الاول وذكر انقسام مصر الى دول صغيرة (٣) القتال بين الصاوية والاتيوبيين وذكر غلبة الاشوريين على مصر (٤) خراب المملكة المصرية الكبرى وذكر العائلة الصاوية وفتوح الفرس

---

١ — انحطاط طيبة وذكر العائلة الحادية والعشرين التنيسية

كانت طيبة في مبدأ الدولة الاخيرة قاعدة الديار المصرية ولكونها واقعة تقريبا في منتصف المسافة التي بين الدلتا والنوبة العليا فكانت هي المركز الذي يتولى فيه الفراعنة ادارة السلطة والاحكام بالسهولة على طرفي مملكتهم ثم ان مصر نالت ثروة عظيمة وحظا وافرا من افتتاح الشام في الشمال وتوسيع مستعمراتها في الجنوب ولكنها ما لبثت ان عاد عليها ذلك بالخسران فقد شُغل الفراعنة من غير انقطاع بكبح جماح الثائرين في آسيا وبصد هجمات أمم البحر ورأوا أن المدينة التي هي في داخل البلاد على مسافة مائة مرحلة وأكثر لا يصح أن تكون مركزا لادارة الاعمال الحربية فاعتادوا على الاقامة بمدائن الدلتا مثل منفيس وسايس (صا الحجر) وبوبسطة (تل بسطة) وتنيس فرجعت اليها الحياة السياسية ولانعدام موارد الغنائم وأسلاب الفتوحات الى طيبة نشب الفقر فيها مخالبه ثم صار الامر فيها لاكابر الكهان اذ كانت سيطرتهم

آخذة على الدوام فى الازدياد والامتداد حتى اذا مات آخر رمسيس (فى حدود سنة ١١٠٠ ق م) تنازع خصمان فى الجلوس مكانه على تخت الملك وهما الكاهن حرحور فى طيبة وسمندس التنيسى فى الدلتا ثم فاز سمندس هذا وغلب على صاحبه وأسس عائلة زال بها سلطان طيبة بعد أن توالى دهورا وعصورا

على ان طيبة لم ترض بخروج السلطة من يدها من غير مكافحة ولا مجالدة فانها اعتمدت على اتيوبيا التى كانت تدين بدينها وتسير وفق نظامها فشكلت امارة واسعة الارجاء تبتدئ من سهول سنار وتنتهى فيما وراء اسيوط وكان رئيس هذه الامارة الاله أمون وبعبارة أخرى خليفة هذا الاله فى الدنيا وظله على الارض وهو الكاهن الاكبر ثم اضطر كبراء الكهان بالرغم عنهم للاعتراف بسيادة فراعنة الدلتا ولكن هؤلاء لم يُقيَّض لهم البقاء على مَنَصَّة الاحكام فانهم كانوا يعتمدون على عصابات المرتزقة من الجند[1] وقد سمحوا لكبار دولتهم بان يضعوا أيديهم على أمهات المدن فى القطر وأن ينشؤا لانفسهم اقطاعا عسكرية تكاد تكون مستقلة فاستولت احدى كبار العائلات اللوبية المتوطنة فى بوبسطة (تل بسطه) على المناصب السامية فى الدولة وآل الامر بهم الى أن جلس رجل منهم وهو ششنق على سرير الملك فى نحو سنة ٩٤٠ ق م

(١) هم الجنود المكريون *Mercenaire* والمرتزقة لفظ عربى ينبغى الاحتفاظ به لوروده بهذا المعنى فى كتب التاريخ المعتبرة مثل المقريزى وغيره

٣ ـ ششنق الاول وذكر انقسام مصر الى دول صغيرة

استولى ششنق هذا على امارة طيبة وجمع تحت سلطانه نصفي الديار المصرية ثم تداخل في شؤون العبرانيين وأخذ أورشليم من الملك رحبعم (في حدود سنة ٩٣٥ ق م) وأعاد شيأ مما قد كان لمصر من النفوذ في الخارج ولكن بعد وفاته ضربت الفوضى أطنابها في البلاد فقصر الرؤساء اللوبيون سلطة الفرعون شيأ فشيأ في بعض المدائن ثم نزعوها منه مرة واحدة وتلقب بعضهم بالقاب ملوكية فانقسمت بذلك الدلتا ومصر الوسطى الى زهاء عشرين دولة تكاد تتكافأ قواها أما ذرية أكابر كهنة آمون فقد لجؤا الى الجنوب واستقروا بأتيوبيا وانشؤا فيها دولة تختها مدينة نپاتا (جبل البرقل) وكانوا أخذوا طيبة وصاروا يطالبون ببقية البلاد قائلين بانها آلت لهم عن أجدادهم وفي أثناء ذلك استولى تفنخت أحد صغار الرؤساء اللوبيين على مدينة سايس ثم على منف (في حدود سنة ٧٥٠) وساد على أغلب مدائن الدلتا فاما المدائن التي لم يكن قد أخضعها فانها استغاثت بملك اتيوبيا المسمى بعنخي فبادر لتلبية دعوتهم وقهر تفنخت وأعاد وحدة مصر وأدخلها في قبضة عائلته

ولكن مدينة نپاتا التي هي قاعدة الدولة الاتيوبية كانت بعيدة عن البحر الابيض المتوسط بعدا لا يسمح لملك مقيم فيها بسهولة المحافظة على سلطانه على الوادي كله ومن جهة أخرى كان الشعب سائدا في سايس (مدينة صا) وغيرهما من مدائن الدلتا بحيث انهما ما كانت تطيع

لسلطان مستقر في داخل افريقية الا اذا كانت صاغرة مقهورة بالقوة والاقتدار فلذلك انتشب القتال بين ذرية تفنخت و بين سلالة كبراء الكهنة أى بين الدلتا واتيوبيا طمعا من كل منهما في نوال السيادة العامة على بر مصر

٣ — القتال بين الصاويين والاتيوبيين
وذكر غلبة الاشوريين على مصر

فاستمر الحرب بينهما بما زهاء قرن كامل (فيما بين سنتى ٧٥٠ و ٦٥٠ ق م) وقد فاز ابن تفنخت المدعو بوكوريس على صاحبه الاتيوبى بضعة سنوات (كان فيها حكم العائلة الرابعة والعشرين الصاوية) ثم خلعه سباقون الاتيوبى ورسخت دواته مدة من الزمان حتى انهم جعلوه رأس عائلة رسمية (هى العائلة الخامسة والعشرون الاتيوبية) وقد تداخل فى أمور الشام تداخلا مقرونا بالبأساء والتعساء حتى استوجب ذلك اغارة الاجانب على مصر وكان ذلك فى الوقت الذى تمت فيه الغلبة للاشوريين على ملك دمشق واسرائيل وأخذوا فى تضييق الحصار على مدينة صور و بلاد يهوذا فاقبلت جيوش الاتيوبيين مبادرة باغاثة حزقيا صاحب يهوذا وأمراء فلسطين فهزمها سرجون وسناحريب ولم تنج مصر من الدمار والخراب الا بمعجزة خارقة للعادة وذلك ان جيش سناحريب عند ما صار على مقربة منها أباده سيف ملاك الرب كما يقول العبرانيون أو أعدمه الاله فتاح كما يزعم المصريون (فى سنة ٧٠١)

على ان الملك الثالث وهو طهراق (شكل ٩) لم يعتبر بهذا فانه جلب على نفسه سخط اشرحدون (اشور اخي الدين) بسبب الدسائس التي بثها في الشام بين الولاة التابعين لاشور فهزمه هذا الملك واقصاه الى اتيوبيا واستولى على منف ووضع القطر تحت ولاية مرزبان من الاشوريين (في سنة ٦٧٢) ثم أعاد الاتيوبيون الكرة ثلاث مرات



ش ٩ (الملك طهراق كما هو في تمثال مبتور بمتحف الجيزة)

في مدة عشر سنين (من سنة ٦٧١ الى سنة ٦٦٠) وصدهم آشور بانبال خليفة اشرحدون (آشور اخي الدين) فاغتنمت العائلة الصاوية فرصة انقلاب الدهر عليهم وزوال الاقبال عنهم فان رؤساءها وهم نخاو الاول بتاوءا بسامتيك كانوا مذبذبين في موالاة الاشوريين تارة ومصافاة الاتيوبيين تارة أخرى بحسب ما فيه الحظ والمصلحة لهم فحافظوا على أملاكهم بل واكتسبوا سلطة حقيقية وصار لهم كلمة نافذة على

بقية الولاة الاخاذيين فلما صعد ابسامتيك الاول على كرسي المملكة (في سنة ٦٦٦) أزال سلطان منازعيه ومناصبيه واحدا بعد واحد مستعينا في ذلك بالمرتزقة من الجند اليونانيين والكاريين حتى استخلص مصر من أيدي ملتزميها واستبد بحكمها ثم تزوج بأميرة من بيت ملوك اتيوبيا فاستولى بذلك على امارة طيبة وصار له السيادة على جنوبي مصر وفي سنة ٦٥٥ اغتنم فرصة انشغال اشوربانبال في عيلام فأبى دفع الاتاوة للاشوريين ونادى لنفسه بالاستقلال

٤ — خراب المملكة المصرية الكبرى وذكر الصاوية وفتوح الفرس

فازت العائلة الصاوية ولكن كان في فوزها ختام انحلال المملكة وتقويض دعائمها فان ابسامتيك لم يعمل على اعادة افتتاح النوبة واتيوبيا ومن هذا العهد بقيت مصر الكبرى التي كانت تحكمها العائلات الطيبية وتمتد من سهول سنار الى شطوط البحر الملح منقسمة الى قسمين مستقلين عن بعضهما ففي الجنوب كانت مملكة نباتا ثم أعقبتها مملكة مروى واستمرتا في بلاد النيل الاعلى على السير بمقتضى نظام الحكومة الدينية (التي على رأسها وكلاء الدين وخلفاء الآلهة) التي كانت لاكبر كهنة آمون ولكونهما كانتا منعزلتين عن بقية العالم كانت تأتي اليها عناصر قليلة من الحضارة مما يجاورها ويحيط بها من القبائل الافريقية ومالبثت ان أخذت في السقوط شيأ فشيأ في مهواة الهمجية والانحطاط وأما في الشمال فقد رجعت مصر الى حدودها

فى عهد المنفيين أى الى الشلال الاول ودخلت فى الجامعة المؤلفة من أمم آسيا واليونان وقد كان لها فى ثروتها وصنائعها واقتدارها على الابتداع والابتكار وموقعها الجغرافى ما يضمن لها فى تاريخ هذا العالم الجديد مقاما وشأنا ربما كانا أقل ظهورا وبهاء مما أصابته فى العالم القديم ولكنهما ليسا أقل منه فى الاهمية والخطارة

وقد كان أول أمر عُنى به ابسامتيك الثانى توطيد أسباب الامن واعادة دواعى النظام فعمل على اذلال الامراء الكبار حتى جعلهم تابعين له مطيعين لاوامره واجتهد بما وصلت اليه يده فى تلافى الخراب الذى توالى على البلاد بسبب حروب داخلية وغارات أجنبية استمرت مدة ثلاثة قرون وسعى فى توسيع نطاق العلاقات التجارية التى كانت بين مملكته وبين الفلسطينيين وأوجد طريقا للمعاملات مع قبائل الهلاد (اليونانيين) فرغّب اليونان فى الوفود على مصر وأكرم مثواهم وكان من بعض مقاصده فى ذلك ان يتخذ له منهم جنودا وأعوانا يكونون أساسا لجيش قوى متين ثم أقطعهم الاراضى فى نقط كثيرة على الشطوط فبنوا فيها محالا تجارية واستطال حكمه من (سنة ٦٦٦ الى سنة ٦١١ ق م) وكان السلام ضاربا اطنابه فى أيامه حتى انه شاهد انحطاط وانحلال دولة الاشوريين ولم يعمد الى اغتنام شىء منها

أما خلفاؤه فلم يجروا على سَنَنِه فى الانحياز والانعكاف فان نخاو الثانى (الذى حكم من سنة ٦١١ الى سنة ٥٩٥) شن الغارة على بلاد الشام فى السنين التى أعقبها سقوط نينوى (سنة ٦٠٨) واستظهر

في طريقه (في مجدو) على يوشيا ملك يهوذا ثم سار حتى بلغ الفرات وبعد ذلك بثلاث سنين (سنة ٦٠٥) هزمه نابوكودونوزور (المعروف بخت نصر أو نبوخذ نصر) في كركميش فاضاع في يوم واحد جميع البلاد التي كان افتتحها واكتفى بعد ذلك بتحريض الملوك الصغار الذين كانوا حاكمين على بلاد يهوذا وموآب وعمون وفينيقية واغرائهم على الايقاع بالكلدانيين أما ولده ابسامتيك الثاني فقد مات في شرخ الشبيبة ومقتبل العمر فلم يكن له شيء من المآثر والاعمال (سنة ٥٩٥ الى سنة ٥٨٩ ق م) ولكن الفرعون وفريس (ابريس) عاود ما شرع فيه ابسامتيك الاول نعم انه لم ينجح في منع سقوط أورشليم (سنة ٥٨٦) ولكنه ساعد مدينة صور على الفوز في مقاومة بختنصر وأوجد له سلطة مؤقتة على شطوط فينيقية وقد أرسل جنودا لمقاتلة المستعمرة اليونانية المتوطنة في قورين [1] (غربي مصر) فلم يفز بالنجاح وكان ذلك سببا في هياج المصريين عليه ولم يكن لديه من يستعين به على قمع الثورة العامة الا المرتزقة من اليونانيين فانهزم في مومنفيس وقتل بها وقام بالامر بعده أماسيس ولم يكن من العائلة الملوكية

وكان أماسيس هذا (سنة ٥٦٩ الى سنة ٥٢٦) آخر الفراعنة العظمين من الوطنيين وبعد أن صد غارات الكلدانيين التي وقعت في مبدأ حكمه أفرغ جهده في اجتناب أية حرب هجومية واكتفى بحفظ

(١) *Cyrène* وهي المعروفة في كتب العرب ببلاد برقة وغلط غلطا فاحشا من ترجمها بالقيروان لان هذه مدينة أحدثها المسلمون في تونس وأما تلك فبلاد قديمة واسعة بين مصر وطرابلس وكانت مستعمرة مهمة لليونان

بلاده في حالة الدفاع وقد اعتمد على العنصر اليوناني أكثر من أسلافه بكثير وأقطع اليونان بالقرب من سايس (صا) أرضا جعلوا فيها مستعمرة نقراطيس وجعل حراسه منهم وقد عقد المحالفات وأبرم المواثيق مع الليديين والكلدانيين لكي يعوق التقدم الغريب الذي كانت مملكة الفرس آخذة فيه وتيسر له اجتناب القتال مع كورش ملك الفرس ومات في سنة ٥٢٦ قبل الميلاد حينما كان قمبيز زاحفا على مصر لمهاجمته فوقعت الغارة على ولده بسامتيك الثالث فانهزم في بيلوزة (مدينة الطينة) ووقع أسيرا في منف بعد أن حكم ستة شهور (من سنة ٥٢٦ الى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد) وصارت مصر تحت ادارة مرزبان فانحطت عن مقامها الرفيع وأصبحت بمنزلة عمالة بسيطة من عمالات الدولة الفارسية

خلاصة ماتقدم

(١) ان حروب الاشوريين ألزمت الفراعنة بالاقامة على تخوم آسيا ولذلك عادت الحياة السياسية الى مدائن الدلتا وبعد موت آخر الرمسيسية أقامت مدينة تنيس عائلة ملوكية جديدة هي الحادية والعشرون وسقطت طيبة عن مكانتها الرفيعة فلم تكن الا قاعدة لاقطاع يحكمها كبراء كهنة آمون

(٢) وأول ملوك العائلة الثانية والعشرين وهو ششنق استولى على أورشليم سنة ٩٢٤ ولكن ذريته لم يتيسر لها حفظ وحدة مصر فانقسم وادى النيل الى دول صغيرة وفي نحو منتصف القرن الثامن قبل الميلاد حاول تفنخت أمير سايس (صا الحجر) أن يضمها الى بعضها ولكن بعنخي ملك نباتا منعه من انجاز مشروعه وجعل لاتيوبيا السيادة على مصر كلها

(٣) وبقيت سيادة اتيوبيا على الديار المصرية نحو قرن كامل (فيما بين سنتي ٧٥٠ و ٦٥٠ ق م) وتكونت العائلة الخامسة والعشرون الاتيوبية من ثلاثة من ملوكها وآخرهم طهراق هزمه اشورحدون وطرده الى ما بعد الشلال الاول وحكم الاشوريون مصر من البحر المتوسط الى اسوان مدة عشرين سنة تقريبا (من سنة ٦٧٣ الى سنة ٦٥٠ تقريبا) ثم طردهم منها ابسامتيك الاول الصاوى ومع ذلك فان فوزه كان فيه تمام انحلال مصر الكبرى وانقسامها الى مملكتين وهما مملكة اتيوبيا فى الجنوب وقاعدتها نباتا تارة ومروى أخرى ومملكة مصر الحقيقية فيما بين الشلال الاول والبحر الابيض المتوسط فتلاشى صنيع العائلات الطيبية ورجع ملك الفراعنة الى حدوده التى كانت له فى أيام العائلات المنفية

(٤) استمرت العائلة السادسة والعشرون الصاوية قريبا من قرن ونصف (من سنة ٦٦٦ الى سنة ٥٢٥) وكان مؤسسها ابسامتيك الاول الذى حكم (من سنة ٦٦٦ الى سنة ٦١١) من الملوك الجانحين للسلم وقد اشتغل بتوفير ثروة رعاياه واغنائها واستخدم جنودا يونانيين بالرزق وأحضر تجارا منهم وكانت نتيجة سعى خلفائه فى اعادة فتح الشام وبلاد برقة أن انهزم نخاو الذى حكم (من سنة ٦١١ الى سنة ٥٩٥) بالقرب من كركميش (سنة ٦٠٥) وأن خلع ابريس (سنة ٥٦٩) وحكم اماسيس (من سنة ٥٦٩ الى سنة ٥٢٦) وهو آخر الفراعنة العظام وقد رحب باليونانيين وأكرم وفادتهم فى وادى النيل فتقاطروا عليه من كل فج عميق ولم يحكم ولده ابسامتيك الثالث الا بضعة شهور قليلة (فيما بين سنتى ٥٢٦ و ٥٢٥) وجاءه قمبيز فهزمه فى الطينة وصارت مصر عمالة من عمالات الدولة الفارسية بعد ما كان لها من المجد والسلطان والامر لله الواحد القهار

الباب السادس

في الديانة المصرية

(١) أكابر الآلهة في مصر (٢) التأليه التساعي على مذهب هيليو بوليس وذكر خلق الدنيا (٣) رجحان الشمس على بقية الآلهة (٤) الكلام على اسيريس وماستلاقيه النفس البشرية في الدار الآخرة

١ - الآلهة الاصليون في مصر

كانت الامة المصرية تُعتبر في الاحقاب الخالية أشد الامم تمسكا بدينها وهذا هو الواقع فان من نظر الى آثارها يكاد يتوهم ان أرض مصر انما كانت تسكنها الآلهة على الخصوص وما كان فيها من بني الانسان سوى من يقوم بحاجات العبادات اذ كان لكل امارة في أول الامر إله أكبر خاص بها لا يتعدى سلطانه حدودها وكان الحال كذلك حينما انقسم القطر الى كور كبيرة بحيث ان مصر كانت للآلهة ولايات اقطاعية اخذية كما كانت كذلك للامراء من بني آدم

وكانت الآلهة في بعض الاحيان عبارة عن النيل مثل الاله أُسيريس في قسم منديسيوس والاله خنوم الخاص بالشلالات وتارة عبارة عن الارض السوداء الخصبة مثل الالهة ايسيس المعبودة في بوتو ومثل الاله پتاح أو فتاح المعبود في منف وتارة عبارة عن السماء مثل حارويرس وكان أخص الآلهة عندهم الشمس مثل رع في هيليوبوليس أو انحوري في سبنيطوس وفي ثنيس وكان لبعض هذه الآلهة صورة انسان مثل

بتاح وازيريس وامون والبعض الآخر على شكل حيوان مثل الكبش والتيس والاسد والثور ابيس أو منيفيس أو على هيئة ابن آوى مثل انوبيس أو الباشق مثل حوروس واعلم ان الاعتياد على تصوير الآلهة بهاتين الصورتين جر المصريين الى تمثيلها بهيآت مركبة تختلط فيها أشكال الانسان بصور الحيوان فصاروا يصورون حوروس على هيئة انسان له رأس باشق وانوبيس على هيئة انسان له رأس ابن آوى وهاتور على هيئة امرأة لها رأس بقرة وللآلهة الاصليين عندهم حشم كثير وحاشية وافرة من الآلهة الثانوية تكون حولها بمثابة أمة تحاكى فى العدد أمة الانام

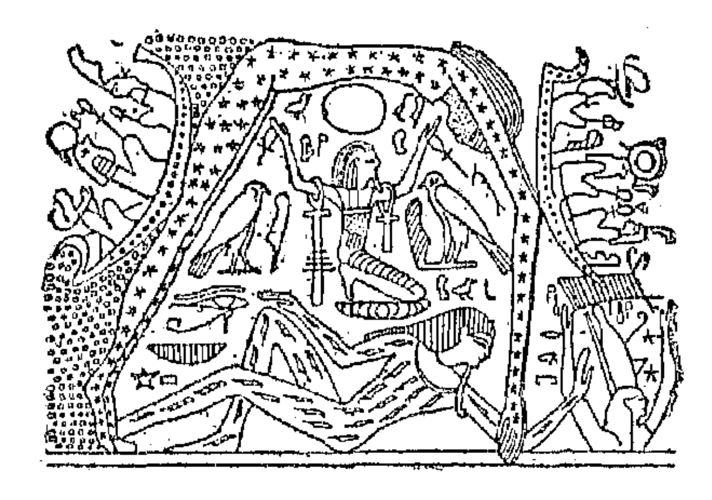
وكل هذه الكائنات كان لها جسم أشد لطافة من جسمنا فكان غير مرئى ولكنه كان شبيها بجسدنا من حيث امكان الوصول اليه واصابته بالجراح بل واعدامه الحياة وكانت الآلهة تأكل وتشرب وتكتسى وأحسن ما يتزلف به اليها وينال به رضوانها أن يقدم لها الانسان ما يلزم لحياتها وكانت عبادتها فى الحقيقة عبارة عن جملة أفعال وهيآت متى قام بها الانسان أوصل الى الآلهة فى دنيانا هذه كل ما تحتاجه لحفظ حياتها وسد رمقها فكانوا يقدمون لها القرابين والضحايا من الحيوانات والطيور واللحم والخبز والنبيذ والمشروبات والفطير والفاكهة اللازمة لطعامها وكانوا يعينون فى صلاتهم أثناء تقدمة القربان الاله الذى يقصدون اتحافه بهذه الطيبات ويذكرون النعم والعناية التى يطلبونها منه نظير القربان

٣ — التأليه التساعى على مذهب هيليوپوليس وذكر خلق الدنيا

كان الآلهة الاخاذون يشبهون الأمراء الاخاذين فى مصاهرة بعضهم بعضا ويراعون مع بعضهم حقوق الجوار وكانوا يتناولون فى أغلب الاحيان اختصاصات بعضهم فيتحد الواحد بالآخر ويصيران فردا واحدا مثال ذلك آلهة السماء مثل حاروريس قد حل فى رع إله الشمس وتمثل فيه كما ان آلهة الشمس مثل رع وانحورى وغيرهما قد امتزجت ببعضها حتى صارت شخصا واحدا عبدته مصر كلها ولكن فريقا آخر من الآلهة وقعت بينهم الشحناء حتى استحكم النفور والبغضاء مثل أوسيريس وتيفون واجتهد كل واحد فى ابادة صاحبه وقد وُجِد العالم وبقى موجودا بتمازج الائتلاف والاختلاف بين هؤلاء الآلهة وقد زعم الكهنة أمناء الدين جملة من أعم فى وظيفة كل منها عند احداث العالم

والقول الذى مالت اليه الاهالى ورجحته على المذاهب الاخرى من قبل مينيس هو الذى قال به كهنة هيليوپوليس وفحواه أن العالم أحدثه تسعة من الآلهة بين ذكور وأناث اتحدوا على هذا الصنيع وكان لكل منها قسط من العمل فكان الكون فى أول الامر عبارة عن لجة من الماء يحيط بها الظلام وكانت الشمس مختفية فى وسطها ثم ظهرت الشمس فخرجت الارض والسماء من الماء مختلطتين ببعضهما وممتدة احداهما على الاخرى وعلى هذا كان رع أى الشمس هو الاله الاول وقد صدرت منه اشارة فتولد عنها زوج من الآلهة وهما شو وتفنو يت

فدخل شو فيما بين الارض والسماء وفتق رتقهما ثم رفع السماء على ذراعيه وأبقاها معلقة فى الفراغ (شكل ١٠) وبذلك ظهر زوج ثان من الآلهة وهما سِيبُو أى الارض ونُويتْ أى السماء



ش ١٠ (شو واقفا بين سبو أى الارض ونويت أى السماء بحسب رسم على نعش فى طيبة)

وكانت الدنيا التى أوجدها هؤلاء الآلهة الخمسة أشبه بصندوقة رباعية الشكل يكتنفها الماء الاول وأرضيتها هى الارض وغطاؤها السماء وجدرانه الجبال الشامخة التى تتكئ عليها السماء كما تتكئ سقف المنزل على جدرانه فتمنع السماء عن السقوط على الارض ويجرى نهر عظيم على طول هذه الجدران تحت السقف السماوى بقليل وهذا النهر يجرى متراءيا للابصار فى جهة الجنوب ثم يسيل فيما بين الجبال أو ينساب فى مجرى طويل تحت الارض ويسبح فيه على الدوام زورق فيه الشمس ويخرج هذا الزورق فى كل صباح من المشرق من مجرى النهر الذى تحت الارض ثم ينحدر الى الجنوب وترسل الشمس الانوار الى مصر ثم تدخل كل مساء فى الجبل من جهة الغرب والاثنتا عشرة ساعة

التى تضيها الشمس فى اختراقه هى ساعات الليل الاثنتا عشرة ثم تولد من الارض والسماء الهان والهتان تكون منهما زوجان فأتما تكوين العالم وأولهما هو مركب من أوسيرس وايسس جا آبالحضارة والمدنية فى الدنيا كما سبق لنا القول به وثانيهما وهو مركب من تيفون ونفتيس أتيا بالشر والموت

٣ — رجحان الشمس على بقية الآلهة

قد أقرت جميع الهياكل والاماكن المعدة للديانة فى مصر بالآلهة التسعة المذكورة مع تعديل قليل فانهم حفظوا الآلهة الثمانية ولكنهم أبدلوا رع رأس الآلهة بالاله المحلى مثال ذلك انهم فى منف وضعوا بدله بتاح وفى طيبة استعاضوه بآمون وفى الشلالات بخنوم ولكن لم يؤدهم هذا الى اسقاط اعتبار الشمس وجحود ما كان لها من الشأن الاكبر فى خلق الدنيا بل انهم جعلوا الآلهة التسعة الرئيسية متحدة بالشمس حالّة فيها متمثلة بها مهما كانت خاصيتها فى أول الامر فصار بتاح وآمون وخنوم شموسا وصارت الشمس هى الاله المعتبر فى جميع الاديان الاخاذية بالديار المصرية وبهذا لم يبق الاشئ قليل للاعتراف والمناداة بأن الشمس هى الاله الوحيد أو انه ليس هنالك الا اله واحد هو الشمس وان جميع الآلهة الاخرى ليسوا الا أسماء لها ولكن المصريين لم يفعلوا ذلك ولم يقولوا به لان كل فريق كان يؤثر البقاء على ما هو عليه واعلاء شأن الاله الذى كان خاصا به فلم يزل أهل كل كورة على القول والاعتقاد بامتياز الههم عما جاوره من الآلهة الاخرى

وعلوه عليها فى مكانته واقتداره ولم ينتشر بينهم الاعتقاد بوحدانية الاله انتشارا كثيرا على فرض انه وجد عندهم

بل قد اتفق فى كثير من الاحوال ان تصاريف السياسة قضت بجعل السيادة والمتبوعية لبعض الآلهة على البعض الآخر مثال ذلك ان طيبة لما وصلت من ابتداء العائلة الثانية عشرة الى درجة عظيمة من الشوكة والاقتدار نهضت بمعبودها آمون فرفعت مكانته وأحلته محل الاجلال والاكبار وأصبح آمون ملكا حقيقيا على جميع الآلهة طالما بقى الزمان مقبلا على طيبة ولم يكن له السلطان على الآلهة الاجنبية فقط بل كان له الامر والنهى أيضا على الآلهة الوطنية المحلية ومع ان بتاح وحاروريس وخنوم كانوا فى نظر المتعبدين لهم نظراء آمون وأقرانه ولكنهم كانوا فى الحقيقة اتباعا له كما كان أمراء الكور التى هم معبودون فيها تابعين للفراعنة الحاكمين فى طيبة ولكن هذه السيادة زالت بزوال العائلة المتممة للعشرين كما تلاشت شوكة طيبة وذهبت عزتها فرجع الآلهة الاخاذيون الى ما كانوا عليه من الانفصال والاستقلال ولم يتيسر بعد ذلك لاحدى المدائن ان تنال من العظامة والمجد ما يتيح لها الزام بقية القطر بالخضوع لملوكها مدة مستطيلة من الزمان بحيث يترتب عليها زوال حرية الآلهة وحياتهم كما حصل ذلك من الاله آمون بل استمر الشرك وتعدد الآلهة ببلاد مصر الى ما بعد ظهور الديانة المسيحية ولم تنمح آثار الآلهة كلها وتتقوض دعائم الشرك بأسرها الا ببزوغ أنوار الدين الاسلامى فى القرن السابع من التاريخ المسيحى

٤ ــ الكلام على أوسيرس وماستلاقيه النفس البشرية في الدار الآخرة

ومع ذلك فقد فاز أحد الآلهة بجعل جميع المصريين يعترفون به بدون أن يغار منه الآلهة الآخرون أو أن يقلل من سلطانهم ألا وهو إله الاموات وفي أول الامر كان إله الاموات في كل ناحية هو إله الاحياء فيها ولكنه ينتقل من الحياة الى الوفاة ففي الكور التي كان فيها إله الاحياء هو الشمس الحي (رع واخوري وحوروس) كان إله الاموات هو الشمس الميت فلما نكب المقدس تيفون بالمقدس أوسيرس وأعدمه الحياة صار أوسيرس هذا إله الاموات في كورته ثم آل به الامر شيأ فشيأ الى أن صار إله الاموات في بلاد مصر كلها والذي تناقلته الالسنة وتداولته الافواه عن هذا الاله انه بعد أن قطعه قاتله إربا إربا جاءت زوجته ايسيس وجمعت أعضاءه ثم حنطتها بمساعدة الالهين توت وأنوبيس وكانت هذه أول جثة حفظت بالتحنيط (المومياالاولى) (شكل ١١) وقد تلا عليها حوروس صلوات وعمل أعمالا ردتها الى الحياة ولكنها ليست بالحياة التي تمكنها من المعيشة فيما بين الناس ثم أعطى أوسيرس في بطائح الدلتا أولا



ش ١١ (موميا أوسيرس بحسب تمثال صغير من البرونز في متحف الجيزه)

وفى القسم الشمالى من السماء ثانيا أملاكا (هى غيطان الفول) يعيش فيها مثل المعيشة التى على وجه الارض ولكنها فوق كل خطر وضرر

وكان الذين يحنطون تحنط هذا الاله ويُحتفل بهم كما احتُفل به يدعون خادمى حوروس ثم يقبلون لمقاسمته فى هذه السعادة وهذا النعيم بعد اختبارات متنوعة وامتحانات متعددة وبعد الدينونة التى يزن فيها الالهوت قلوبهم بقسطاس الحق [1] ومن نظر الى الاقوال التى يلقيها الاموات فى وقت الدينونة رأى فيها أجمل خلاصة لتهذيب الاخلاق عند المصريين فان الميت يقول «انى لم أعذب الارملة ولم أكذب أمام القضاة ولم أعرف الخيانة ولم أدنس الاشياء المقدسة ولم أسع فى ضرر العبد عند مولاه ولم أجع أحدا وما أبكيت أحدا ولم أقتل النفس قط ولم أسرق ميرة الموتى ولا عصائبهم ولم أغتصب اللبن من أفواه الرضعاء فانا طاهر أنا طاهر أنا طاهر» وبعد هذا التنصل (الاقرار السلبى) يقبل الميت للتمتع بالنعيم فى الفردوس ثم يأخذ بالاشتغال فى الفلاحة ويحصد فيها كثيرا من القمح النائق العظيم

وفى أثناء ذلك يذوق فيها أنواع اللذاذات ويتنعم بصنوف الصفاء مثل الولائم والرقص والغناء ولعب الدامة ويقرأ ما ينتعش به البال وينشرح له الفؤاد ثم يتريض بالنزهة على الماء ويتناول الطعام تحت الاشجار الباسقة ويستنشق النسيم العليل الذى يهب من الشمال

أو يركب فى زورق الشمس ويطوف معها حول الارض فى الليل والنهار ثم ان أوسيرس يفنى آلهة الاموات كلها فتحل فيه

وقد انتهى أمره بعد سقوط الدولة المصرية أن صار إلها دوليا معروفا عند جميع الامم والملل وانتشرت عبادته فى جميع انحاء المملكة الرومانية وكان معبده فى جزيرة بلاق (المعروفة عند الافرنج باسم فيله بالقرب من اسوان) آخر هيكل لاذت به الديانة الوثنية وهى على وشك السقوط والزوال ولم تقفل أبواب هذا الهيكل الا على يد الامبراطور يوستنيانوس فى أواسط القرن السادس للميلاد

خلاصة ما تقدم

(١) كان المصريون أشد الامم تمسكا بدينهم وكان لهم آلهة كثيرة بعدد ما فى الادهم من السكور وكانت هذه الآلهة عبارة عن النيل (مثل أوسيريس وخنوم) والارض (مثل إيسس وبتاح) والسماء (مثل حار وريس) والشمس (مثل رع وانحورى) وكانت لها أشكال آدمية أوحيوانية ولها حشم واتباع من عدة آلهة ثانويين وكانت تشبه بنى الانسان فى احتياجاتها وأميالها وقبائحها وكانت عبادتها عبارة عن قرابين وضحايا يقصد بها نيل كل ما تحتاجه فى معيشتها من مأكل ومشرب وغير ذلك من لوازمها وكانت هذه الآلهة تتصاهر وترتب على توافقها وتباغضها مع بعضها بعضا حدوث هذا العالم وبقاؤه ومن مقتضى مذهب هيليو بوليس ان خلق الدنيا كان على يد ثمانية من هؤلاء الآلهة تحت رئاسة رع تومو الذى هو الشمس

(٢) وقد أقرت جميع الكور على هذا المذهب التساعى مع استبدال تومو بالاله المعبود فى كل كورة منها أى بأمون فى طيبة وبتاح فى منف مثلا وهذا ما حمل علماء الديانة على اعتبار جميع الآلهة الاصلية بمثابة أشكال تشكل بها تومو الذى هو الشمس أو أسماء مختلفة اطلقت للدلالة عليه وقد كانت سيادة طيبة على القطر المصرى سببا فى سيادة آمون على بقية الآلهة الآخرين

(٣) أما الاله الوحيد الذى اعترف به جميع المصريين فكان أوسيريس اله الاموات وكان المؤمنون يحضرون يوم الدينونة امام محكمته ثم يبررون أنفسهم وبعد كونهما بالتنصل وبعد ذلك يقبلون فى غيطان الفول حيث يعيشون عيشة تشابه عيشتهم على وجه الارض مشابهة كبيرة وفى القرون الاولى التى أعقبت ظهور الديانة المسيحية كان أوسيريس شبه اله دولى انتشرت عبادته فى جميع انحاء المملكة الرومانيـــــة

الباب السابع

الآثار والصناعة

(١) مابقى من الآثار المصريه (٢) فن العمارة وذكر المعابد
(٣) زخرفة المعابد (٤) القبور (٥) النقش
والتصوير (٦) الفنون الصناعية

١ — مابقى من الآثار المصرية

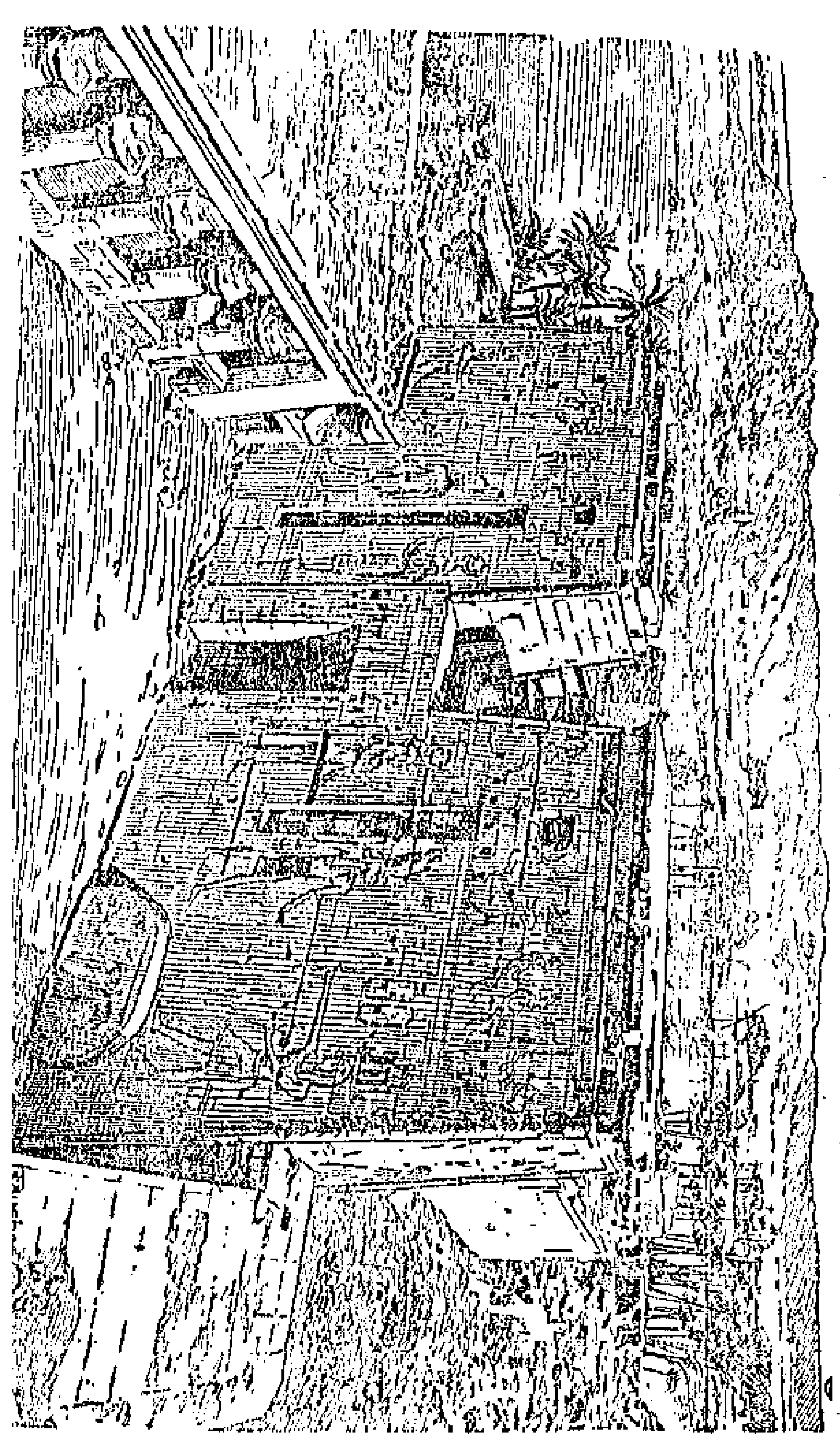
ربما كانت الآثار التى خلفها لنا المصريون أكثر مما تركته أية أمة عظيمة من أمم السلف فان الوادى كله مشحون ببقايا معابدهم ومدائنهم مترا كما بعضها فوق بعض حتى ان من نظر الى السلسلتين اللتين تكتنفان هذا الوادى رأى القبور منحوتة فى جميع أجزائهما بحيث انهما يعتبران كمقبرة واحدة هذا واعلم أن الآثار التى شوهدت وأمكن البحث فيها الى الآن هى شئ قليل فى جانب مابقى تحت البحث والنظر وما عساه ينكشف لنا مع توالى الايام

٢ — فن العمارة وذكر المعابد

العمارة هى الفن الذى برع فيه المصريون أكثر من غيره وفازوا فيه بالقدح المعلى والنصيب الاوفر الاوفى وقد تركوا لنا نموذجات ورواميز لهذا الفن هى البالغة فى الاتقان والكمال فقد بنوا معابدهم بالحجارة الكلسية أو الاحجار الرملية وأما الابواب وبعض الحجرات الداخلية فكانوا يصنعونها من الصوان (الجرانيت) الوردى أو الاسود وقد يندر

أن تكون الكتل متساوية موضوعة بوضع منتظم تمام الانتظام بل وتختلف أحجامها والمداميك تأخذ مواضع بعضها ولكنها كلها مرصوفة منضدة بحذق زائد ومهارة تامة حتى انها قاومت الدهور وصبرت على ممر الزمان بل صبر ويصبر على ممرها الزمان مع أن العمائر التى اعتبر بناؤها أحسن وأجود قد ذهبت فى خبر كان ثم ان أغلب معابد الدلتا ومصر الوسطى ليست الآن الا أطلالا دارسة ورسوما داثرة لا يكاد يتهيأ للمتبين أن يميز الشكل الذى أقيم عليه بناؤها والصورة التى أعطيته عند تشييدها أما معابد الوجه القبلى فحظها من الحفظ أوفر ونصيبها فى البقاء أكثر فان كثيرا من هذه الهياكل فى جزيرة بلاق (شكل ١٢) وادفو ودندرة محفوظة حفظا تاما بحيث ان أقل ترميم يكفى لاعادتها كما كانت زمن تلك العبادة

واعلم أن هذه المعابد منظمة على نسق واحد وذلك ان الهيكل الحقيقى هو عبارة عن حجرة مظلمة تسكنها صورة الاله سواء كان بتمثاله أو برموز العبادة الخاصة به وكانوا يقتصرون على هذه الحجرة فى المدائن التى ليس لها أهمية كبيرة ومتى ساعدت الظروف أضافوا اليها غرفا أخرى يعدونها لوضع القرابين وللاحتفال فيها بتقديس الاله فى أيام معينة وما كان الدخول فى هذا القسم من العمارة مباحا فى كل وقت الا للكهنة والملائكة وكان من عاداتهم أن يقيموا أمامها حجرة كبيرة واسعة ذات عمدان يكاد يكون الولوج فيها مباحا للجمهور وكانوا يجتمعون فيها فى أيام المواسم والاعياد وكان باب هذه الحجرة يوصل الى فناء حوله أبواب مصفحة



ش ١٢ (هيكل جزيرة بلاق (فيله) المعروف بقصر أنس الوجود منظوراً من أعلى الصرح الأول)

بصرح (*Pylône*) هو عبارة عن باب كبير هائل له فتحة على يمينها ويسارها برجان يكونان في الغالب مرتفعين ارتفاعا شاهقا وهذا الشكل يتكرر في جميع انحاء وادى النيل مع اختلاف قليل فهو الذى تراه في العمائر الفخيمة بطيبة والكرنك والاقصر ومدينة هابو وهذا الرسم هو المتبع أيضا في بلاد النوبة غير أن بعض غرف الهيكل أو الهيكل كله (كما في أبى سمبل) تراه منقورا في الصخر بحيث يكون مغارة فسيحة هائلة

ولما كانت الآلهة تحب أن تحيط بها الاسرار كان القوم يبنون المعابد بحيث ان الانسان لا يشعر بالانتقال من نور شمس العالم الخارجى الى ظلام الحجر الالهية فان مداخل الهيكل تكون فسيحة يتخللها الهواء و ينبعث فيها الضياء من غير أن يصادفهما أدنى عارض وأما الايوان الكبير ذو العمدان فيقل النور فيه ثم يشتد الظلام في المحراب فيكون شبيها بشفق غير واضح حتى اذا وصل الانسان الى قدس الاقداس رأى الليل الحالك والظلام التام

٣ — زخرفة المعابد

كانت الزخرفة في غاية البهاء ونهاية الرواء فكانت جدران كل غرفة مزدانة من أعلاها الى أسفلها برسوم ونقوش توافق ما خُصصت له هذه الغرفة فيمثلون في المحراب الزورق المقدس الذى يعش فيه الاله وفى الحجرات المجاورة له القرابين والضحايا وفى الايوانات المعمدة هيئة الموكب والاحتفالات وعلى الصّرح والحيطان الخارجية أشكالا للقتال والوقائع الحربية يرى الناظر اليها ملك مصر قاهر أعداء مصر

بمعونة الاله الذى شيد له الهيكل وكانوا يضعون أمام الصرح تماثيل هائلة قد يبلغ ارتفاع الواحد منها ١٦ مترا مثل صنمى ممنون فى طيبة ومسلات منضودة أزواجا أزواجا وأمام ذلك كله ممشى على جانبيها تماثيل الاسفنكس وهى آساد لها رأس انسان أو كبش أو هى كباش كبيرة الجثة رابضة على الارض يشار بها الى أنها حرس رمزى يقوم بخفارة مقدم الهيكل على الدوام

٤ — القبور

كانت القبور أيضا مشحونة بكثير من النقوش والتصاوير وكان بعضها منعزلا وقائما بسفح الروابى أو بمنحدر النجوات والهضبات الفاصلة بين مصر والصحراء وكانت أجداث ملوك الدولة الاولى والوسطى عبارة عن اهرام من الحجارة أو الآجر وقبور أفراد الناس مساطب متطاولة من حجر الجير الابيض تقابل كل زاوية منها جهة من الجهات الاربع الاصلية ويجعلون وجهتها عادة نحو الشمال ولها باب قد يكون أمامه عمدان صغيرة ويتوصل من هذا الباب الى الحجرات الداخلية والى ضريح الميت حيث يجتمع أقرباؤه مرارا فى كل عام لتقديم القرابين له ويرى المتأمل فى الصور المنقوشة على جميع الجدران هيئة القربان وكافة الاعمال الدنيوية التى يكون بها تجهيزه وتربية الغزلان والاثوار والاطيار وذبحها وبذر البذور فى الارض وحصاد القمح واصطناع الخبز وتقديم الارغفة والصيد فى البر والبحر والالعاب المختلفة الانواع ويكون فوق الضريح رجام من الرخام أو ما يشابهه من الاحجار الصلدة

منقوشاً في أحد الجدران أو قائماً بجانبه وهو بمثابة باب مغلق على الدوام وخلفه تنفتح أجزاء القبر المخصصة للروح وهنالك أيضاً دهاليز وآبار وحجرة يكون بها التابوت وفيه المومياء

ومن ابتداء العائلة الثانية عشرة اختلطت القبور المنقورة في الجبل بالقبور المنعزلة وعدل ملوك طيبة في الدولة الاخيرة عن اتخاذ الاهرام فأمر كثير منهم بدفن جثثهم في جبال لوبيا وأما ملوك العائلة الثامنة عشرة فان مدافنهم بالجهة المعروفة الآن بالاصاصيف وأما ملوك العائلتين التاسعة عشرة والعشرين ففي باب الملوك قبورهم وأجلها في البهجة والابداع والرونق وحسن الاصطناع هما قبرا سيتي الاول وابنه رمسيس الثاني

٥ — النقش والتصوير

كان النقش والتصوير عبارة عن فنين مكملين لفن العمارة فكل جدار كان مزداناً بنقوش بارزة وكل نقش بارز كان محلّى بالتصوير والتلوين بالاصباغ على هيئة سطوح مستوية متناسقة بعضها فوق بعض بترتيب عجيب بحيث لا تكون مختلطة ولا ممزوجة وكانوا يحلّون النقوش تحلية بالالوان ولا يرسمونها بالمعنى المتعارف عندنا في هذا الزمان

وكانت التماثيل المنعزلة أو المجتمعة حول بعضها مصورة بالالوان أيضاً فالجهات الممثلة للحم منها ملونة باللون الاحمر فيما يختص بالرجال وبالاصفر الفاقع فيما يختص بالنساء ولم يكن تصويرها بالغاً نهاية ما يصوره الخيال من الكمال بل كانت عبارة عن صور للنساء والرجال

بالغة في الصحة والدقة وكل شخص له من هيئته ووصفه اشارة الى الحالة التي تليق بمقامه خاصة فالسيد الجليل يكون واقفا وفي يده العصا أو جالسا على مسطبة من الحجارة وجسمه معتدل ورأسه مرتفع ونظره حاد والكاتب يجثو أمامه بكل خضوع وذراعاه مشتبكان فوق بعضهما أو يقعد مربعا وعلى ركبتيه درج من البردى كأنه مستعد لتسطير ما عليه عليه مولاه وأما العبد والأمة فيمرسان الحبوب لعمل الخبز اللازم لكل يوم ويعجنان الطحين ويطليان القدور بالقار ثم يذهبان ليملآها نبيذا وليست هذه الصور تشابه ما عندنا في كونها تمثيلا من غير حياة لجسم من الاجسام بل هي أجسام حية تمثل الشخص الذي هي تصوير له حتى انك لتظن ان الملك

ش ١٣ (الكاتب الجالس المحفوظ بمتحف اللوفر بباريس)

أو الاله أو الفرد من الافراد الذي أمامك تمثاله أو صورته كأنه قد نفخ فيها شيأ من روحه وأفاض عليها جزأ من حياته بحيث ان ذلك يسمح لها عند الاقتضاء بالكشف عن المغيبات وما يستقبل من الامور فأما التماثيل التي نشاهد في القبور فهي تقوم في الواقع ونفس الامر

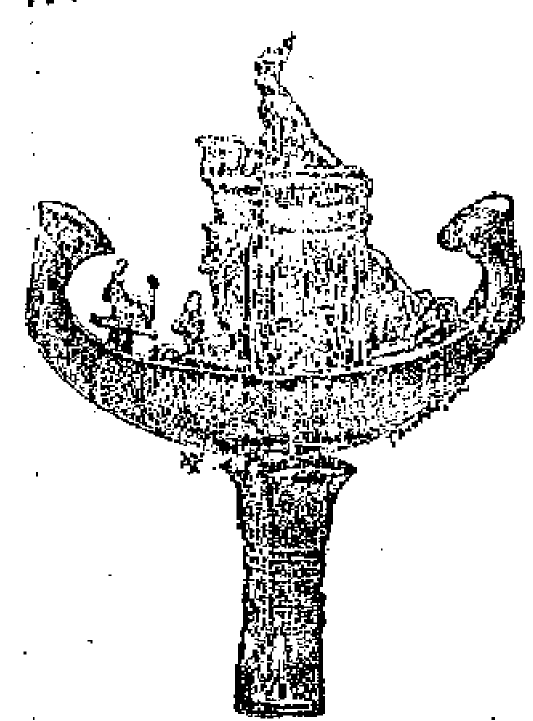
مقام الجثة المحنطة وتكون سندا للروح ولو تبددت تلك الجثة وعبثت بها أيدى الزمان ومن هذا تعلم السبب فى كون الصانع مصورا أو نقاشا كان يسعى جهده و يبذل قصارى ما عنده فى جعل صنعه أشبه شئ بالاصل الذى أخذ على نفسه تمثيله أى لاجل أن تكون النفس قديرة على التصرف فى جسمها الحجرى بسهولة وعلى الوجه الذى يوافقها وترتضيه ولذلك كان من المحتم أن هذا الجسم يكون مثالا كاملا للجسد الذى قد حلت فيه الحياة و يكونان سواء فى حسن المنظر وفى العاهات التى ألمت به وما كان فيه من السماجة والتشويه

وأحسن المصنوعات التى وصلت الينا وحفظت الى يومنا هذا من آثار الدولة الاولى والدولة الوسطى هى الكاتب الجالس مربعا وهو (شكل ١٣) بمتحف اللوفر بباريس والتمثال المعروف بشيخ البلد (شكل ١٤) وتمثال خفرن وتمثال الملكة وهذه التماثيل الثلاثة الاخيرة موجودة بمتحف الجيزة وقد ظهر فى أيام ارتقاء الدولة الطيبية وفى عصر الدولة الصاوية بعض تماثيل تستلفت الانظار وتدعو الى الاعجاب ولكنها على طراز جاف خال من الحرية الكاملة والتصرف التام كما كان الحال فى العصر المنفى

ش ١٤ (تمثال شيخ البلد المحفوظ بمتحف الجيزة)

٦ ـ الفنون الصناعية

تقدمت الفنون الصناعية بوادى النيل من أول الامر تقدما عجيبا فائقا فكان المصريون يشتغلون بغاية الحذق والمهارة على الاخشاب والمعادن النفيسة والشبهان (البرونز) (شكل ١٥) وعلى الاحجار الدقيقة اللطيفة وكانوا من أيام العائلة الرابعة والخامسة يصطنعون الزجاج والزليج (١) المموه بالالوان والاصباغ والمنسوجات الموشاة المطرزة ويقدون الجلود هذا وقد



ش ١٥ (علامة لآمون وهى من البرونز وواردة من متحف الجيزة)

اطلعنا على عدد عظيم من هذه المصنوعات فكان بذلك حكمنا على قيمتها أبلغ سدادا اذ لم يساعدنا الزمان الا على رؤية صورها ورسومها فقط فقد وجدت هذه المصنوعات فى القبور وفى أطلال المدائن والفائدة المترتبة عليها المرتبطة بها عظيمة جدا لكونها تحدثنا بتاريخ الصناعة فى مصر بل وبتاريخها على العموم فان أهل مصر كانوا يبعثون الى الشام وكلديا وفينيقية والى اليونان وايطاليا والى بلاد الغاليا واسبانيا على بعدهما ونزوحهما بعدد عظيم ومقدار كبير

(١) وهو المعروف فى مصر بالزليزلى أو القيشانى

من مصنوعاتهم في الجوهرات والمصوغات والخزف والاقشه والعلب والعمدان التي من الخشب المشغول وكثيرا ما اقتدى بهم وحاكاهم في بعض أعمالهم أمم البحر الابيض المتوسط الذين كانوا بين الحضارة والهمجية فان الخناجر التي وجدت في ميسينة في قبور رؤساء ارجوس هي من نفس طراز الخناجر التي استكشفت في طيبة على موميا والدة أموسيس وجاء أول الصناع وأرباب الفنون عند اليونان فقلدوا صور الآلهة عند المصريين كما أن التماثيل الحجرية القديمة التي كشف عنها التراب من جهات كبيرة ببلاد الهلاد (اليونان) انما هي تعظيم محفوف بالدقة ولكنه خال من الرقة أخذ عن التماثيل الصغيرة التي من البرونز أو من الاحجار الدقيقة المصورة لبعض آلهة المصريين فكانت هذه الاشياء الدقيقة وحدها سببا في تأثير نفوذ مصر على بلاد اليونان وتأثير بلاد اليونان على الامم الحديثة مدة قرون من الزمان

خلاصة ما تقدم

(١) ربما كانت الآثار التي أبقاها لنا المصريون أكثر مما أبقته أية أمة من الامم القديمة العظيمة من المخلفات والآثار

(٢) وقد برعوا في فن العمارة والبناء ولنا في المعابد الكثيرة الباقية الآن في مصر العليا على ما كانت عليه تقريبا نموذجات جليلة وطرازات جميلة لهذا الفن وهي كلها مبنية على شكل واحد سواء كانت الابنية قائمة بنفسها ومنعزلة وحدها أو عبارة عن محاريب منقورة كلها أو بعضها في صياب الجبل

(٣) وكانوا يبالغون في زخرفة مبانيهم وما زالت جدران الحجرات مزدانة بنقوش بارزة محلاة بالالوان والاصباغ وكانوا يقيمون التماثيل الهائلة والمسلات الطائلة في فناء المعابد أو أمام الابواب التي كان توصل اليها في بعض الاحيان من ممشى تحف بها تماثيل الاسفنكس

(٤) وفي عهد الدولة القديمة كانت القبور عبارة عن مساطب من الحجر أو من الآجر ثم اختلطت القبور المنقورة في بطن الجبل بالقبور المنعزلة وذلك في أيام الدولة الطيبية ونرى في الوادي المعروف بباب الملوك الذي به مدافن فراعنة العائلة التاسعة عشرة والثمانية العشرين أجمل وأبهى ما في مصر من القبور التي تحت الارض

(٥) ولم يكن النقش والتصوير الا متممين لفن العمارة وقد ظهر في قبور العصر المنفي مع ذلك بعض تماثيل من الحجر أو الخشب هي في بابها أكمل ما يمكن الانتهاء اليه في الاتقان مثل تمثال الكاتب الجالس المحفوظ بمتحف اللوفر بباريس وتمثال شيخ البلد وتمثال خفرن المحفوظين بمتحف الجيزة

(٦) وقد تقدمت الفنون الصناعية تقدما باهرا منذ القرون السوالف والاعصار الخوالي وكان في المصنوعات الدقيقة الصغيرة التي من زجاج أو مينا أو معدن منقوش أو مسبوك مثال نسج عليه الفينيقيون واليونان حينما انتقلت هذه الاشياء الى خارج القطر المصري بواسطة التجارة وقد ساعدت مساعدة قوية كافية على بث الذوق الصناعي في الامم الغربية التي كانت لم تزل بعد في حالة الهمجية والبربرية

الباب الثامن

استكشافات شامپوليون والكلام على علماء الآثار المصرية من الفرنساويين

(١) مبادئ الكتابة البربائية الهيروغليفية (٢) الكتابة المعتادة وذكر اللسان القبطي (٣) أول المحاولات في فك الكتابة البربائية (٤) شامپوليون الصغير (٥) علم الآثار المصرية من بعد شامپوليون

---

١ — مبادئ الكتابة الهيروغليفية

ان أقدم الآثار المصرية التي وقفنا عليها تدلنا على ان مصر قد كان لها في الكتابة طريقة وافية مستكملة وانها كان عندها الورق وفنون الادب وقد أطلق اليونان على الحروف التي كان أهلها يستعملونها لفظة هيروغليف أي الحروف المقدسة وقد بقيت هذه التسمية مرعية عندنا وتتركب الكتابة الهيروغليفية من علامات تمثل أناسا وحيوانات وأشياء مادية ولها دلالات كثيرة مختلفة فبعضها عبارة عن حروف حقيقية توافق الاثنين وعشرين لفظا التي تتألف منها اللغة مثال ذلك لفظة الباء الفارسية تؤدى بهذا الحرف ▭ والميم بهذا 𓅓 أو بهذا ⟶ وحرف السين بهذا 𓋴 أو بهذا ⟶ وحرف التاء بهذا ⌓ أو بهذا ⟶ وفي ذلك دليل على ان بعض الحروف كان لها أكثر من علامة واحدة

وفضلا عن ذلك فهناك حروف مركبة تدل بنفسها على لفظين أو ثلاثة ويتكون منها مقطع واحد مثال ذلك العين وتنطق إرى وهذه العلامة تقرأ موس أوماس وهذه العلامة يلفظ بها خُمْ أو حِمْ وهذه أو هذه ينطق بها قيم أو قام أو كيم (بالياء الممالة) والغالب هذه الحروف المقطعية أصوات كثيرة يمكن تلفظها بها ولاجل منع الاختلاط الذى يخشى من حدوثه بسبب هذه المعانى المتعددة المختلفة كان القوم يضيفون اليها أحد الحروف الدالة على المقطع مثال ذلك الأذن يمكن تلاوتها آد أو سوتم أو تين فاذا كان وراءها هذه العلامة التى هى الميم ينبغى تلاوتها سوتمو فى هذا التركيب ومتى كان وراءها النون وجب النطق بها تونو فى هذا التركيب فاذا كان وراءها الدال وجب التلفظ بها آدو فى هذا التركيب

وفضلا عن الحروف المقطعية توجد علامات تدل وحدها على معنى تام قائم بنفسه وقد تقرأ هذه الحروف الدالة على المعانى المستقلة ويتركب منها حينئذ كلمة مثال ذلك البلطة تدل على الإله وتقرأ نُتِرْ والصليب الذى فوقه حلقة معناه الحياة ويقرأ عُنْخْ وفى أغلب الاحيان لا تقرأ هذه الحروف بل توضع خلف الكلمات المؤلفة من حروف ومقاطع لتعيين معناها بنفس صورة الشيء الذى تدل عليه هذه الكلمات وتكون حينئذ للتعريف والتمييز مثال ذلك انهم كانوا يرسمون صورة الأُذن البشرية فى آخر هذه الكلمات (1) التى

(1) هذه الكلمة تقرأ من اليسار الى اليمين

ينطق بها مَسْزُرْ ومعناها أُذُنْ أو يرسمون صورة ذراع قابض على هراوة في آخر الكلمات التي معناها الضرب والقتل والرفع وكل ما يقصد به وقوع أمر ممزوج بالقوة والشدة

ومن نظر الى الكتابات القديمة رأى هذه المبادئ فيها مختلطة بحيث ينبغي معرفة معانيها ومدلولاتها بالضبط والصحة للنجاح في فك أي خط قليل

٣ — الكتابة المعتادة وذكر اللسان القبطي

كانت الكتابة الهيروغليفية مستعملة خصوصا على الآثار التي من الاخشاب أو الاحجار ولكنهم كانوا يستعملون كتابة جارية معتادة يسميها المحدثون بالقلم الهيراطيقي لاجل احتياجات الحياة العادية ولاجل نشر الاعمال الادبية من تأليف وغيره والمادة التي كانوا يستعملونها للكتابة عليها بهذا القلم تتركب من ألياف ورق البردي مفصولة ومدقوقة وملتصق بعضها ببعض بحيث يتركب منها أفرخ طويلة دقيقة يفرونها من طرف الى طرف فيتكون منها ادراج (ملفات) بل أجزاء قد يزيد بعضها على ثلاثين مترا وكانوا يكتبون عليها بقلم يتخذونه من قصبة رقيقة من البوص المعروف بالغاب (كما هي العادة الآن) يغمسونه في حبر اسود أو أحمر وكانت الكتابة الهيروغليفية تبتدئ من اليمين الى اليسار أو من اليسار الى اليمين من غير فرق ولكن الخط الهيراطيقي كان يبتدئ على الدوام من اليمين وينتهي الى اليسار وكانت حروف هذه الكتابة في مبدأ الامر فسيحة مرتفعة ثم توالت عليها السنون والقرون فصارت أصغر من الاول حتى آل أمرها الآن صارت عبارة عن جملة حروف

متداخلة فى حرف واحد وعلامات صغيرة نحيفة نحيلة مختلطة مختلة وقد سميت هذه الكتابة بالقلم الديموطيقى أى القلم العامى وقام هذا القلم شيئاً فشيئاً مقام القلم الهيراطيقى فى أيام العائلة السادسة عشرة ثم رجح وتغلب عليه فى أيام اليونان فصار مستعملا فى الامور المعتادة كلها

ثم زال استعمال هذه الاقلام الثلاثة عندما دخلت الديانة النصرانية فى البلاد المصرية واستبدلت بحروف الهجاء القبطية المركبة من ألف باء اليونانية ومن ستة حروف توافق بعض أصوات مصرية ليس فى اليونانية مايعبر به عنها وقد استمر استعمال اللغة عند الاهالى مدة عشرة قرون بعد تلاشى الكتابة بها ولم ينعدم اللسان القبطى من أفواه الأمة الا فى السنين الاولى من القرن السابع عشر ومع ذلك فلا يزال مستعملا فى نظام الخدم الدينية وأمور الطقوس التعبدية الكنائسية

٣ ـــ أول المحاولات فى فك الكتابة البربائية

كانت هذه الاشكال الفاسدة عن أصلها أول ما توجهت اليه همة الباحثين وحامت حوله أنظار الطالبين المدققين حينما وجه العلماء من الافرنج عنايتهم الى العاديات المصرية فتحققوا أن فى اللهجات الحديثة بقايا من اللهجات القديمة ولكنهم لما أرادوا أن يدرسوا الكتابة و يقفوا عليها لم يعرفوا ماهى الطريقة التى ينبغى لهم استخدامها فى فك هذه الطلاسم والرموز وانتهى القرن السابع عشر والثامن عشر الميلاديان ولم يجن العلماء ثمرة من اجتهادهم وانصبابهم على هذا العمل

وكدهم وكدحهم فى هذا السبيل ولم تبتدئ الابحاث المهمة الا عند حملة الجنرال بونابرت على مصر وذلك ان لجنة من العلماء أخذت ترود البلاد وتجوبها مدة ثلاث سنين من سنة ١٧٩٩ الى سنة ١٨٠١ وهى مشتغلة برسم خريطة القطر ورسم مواقع الاطلال ونسخ صورة النقوش البارزة والكتابات التى على الآثار وأفرادلك الكتاب الفريد والسفر الحافل الجليل المعروف بـ(وصف مصر) الذى لم يفقه كتاب كاتب بل لم ينسج على منواله الى الآن ناسج وفى أثناء ذلك وجد بوشار وهو من ضباط الطوبجية بالقرب من مدينة رشيد أمرا رسميا بتمجيد الملك بطليموس الخامس وهو مكتوب بخطوط ثلاثة (هيروغليفى وديموطيقى ويونانى) وحينئذ أشار العلامة الفاضل والمحقق الخالد الذكر سلفستر دوساسى والموسيو آكربلاد السويدى الى المعنى الذى تدل عليه بعض العلامات فى الكتابة الديموطيقية بل ان الثانى منهما رتب حروف هجاء من المستعملة فى القلم الديموطيقى ما زال العلماء يعولون على معظمها وما برح أكثرها معتبرا لديهم وموافقا للصحة والضبط ثم رجع العلماء الى البحث والتنقير من سنة ١٨١٤ الى سنة ١٨١٨ وكان أولهم العالم الانجليزى الطبيعى توماس يانج فعرف فى الخانات الملوكية الموجودة فى النقش الذى على حجر رشيد اسم بطليموس وبرنيقة (أو برنيكة) واستخرج منها ألفباء صغيرا قد تحقق العلماء بعد ذلك من صحة خمسة علامات منه وموافقتها للحقيقة والواقع ولكنه لم ينجح فى مسعاه الذى قصد به توفية البحث واستكمال فك هذه الرموز

ولا زال الحال على هذا المنوال حتى جاء شامپوليون فظفر بالضالة المنشودة ونال الفخار كل الفخار بالوقوف على كنه هذه الاسرار

٤ — ذكر شامپوليون

ولد شامپوليون الصغير فى مدينة فيجاك (بندر مقاطعة اللوت بفرنسا) فى ٢٤ دسمبر سنة ١٧٩٠ (شكل ١٦) واشتغل بدرس اللغات الشرقية منذ شبيبته وخصوصا اللسان القبطى ومن سنة ١٨١١ الى سنة ١٨١٤ نشر الجزأين الاولين من كتابه الذى سماه (مصر فى عهد الفراعنة) صحح فيهما جغرافية هذه البلاد مستندا على تواريخ وآثار قبطية وبعد أن اعتقد وجزم بان الهيروغليفى هو عبارة عن علامات تدل



شكل ١٦ (شامپوليون الشاب ولد سنة ١٧٩٠ وتوفى سنة ١٨٣٢)

على أفكار ومعان مستقلة بالمفهومية رجع عن هذا الاعتقاد وانتهى أمره بالاعتراف بانها علامات يتلفظ بها وقد ضمن أول نتيجة ظهرت من أعماله فى رسالة بعث بها الى المسيو داسييه السكرتير الدائم فى جمعية

النقوش والآداب وطبعت هذه الرسالة في شهر سبتمبر سنة ١٨٢٣
فقابلها الناس ببعض الانكار وقلة التصديق ولكنه أزاح الشك
وأزال الريب عن صحة هذا الاكتشاف عند ما نشر بعد ذلك بسنتين
كتابه الذي سماه «خلاصة على قواعد الكتابة الهيروغليفية»

وقد حلل شامپوليون الخانة الملوكية
التي رأى فيها العلامة باتج اسم بطليموس ثم فصلها الى باء و تاء
و واو و لام و ميم و ياء و سين ثم اختبر
هذه الحروف في خانات ملوكية أخرى قرأ فيها اسم برنيقة (أو برنيكة)
وكاوپتره (أو كيلوبطرة) والاسكندر ليحقق بالمقارنة من صحة العمل
وبهذه المثابة تحصل على حروف هجاء أولية وهي نصبة أو فتحة (َ)
و ألف و باء و و دال وتاء و ياء
و كاف و قاف و و لام وراء و ميم
و نون و واو و باء والاوزة أو المزلاج
أوهذه الاشارة يلفظ بها كالهاسينا و يلفظ بها (إكس X)
ثم كملها بعد قليل بتحليل أعلام ملوكية يونانية ورومانية وفرعونية
ثم أوضح بعد ذلك أن الصيغ النحوية في اللغة الهيروغليفية توافق
المصطلح عليها في اللسان القبطي وأنه بناء على استكشافه هذا أصبح
من السهل على كل انسان ترجمة هذه الخطوط وقراءتها ثم ساح مرتين
في ايطاليا من سنة ١٨٢٤ الى سنة ١٨٢٦ فتيسر له بذلك تقويم تاريخ
الدولة الاخيرة الطيبية كله وقد اشترى أيضا في مدينة ليڤورن مجموعة

سالت (Salt) للحكومة الفرنساوية وهي جرثومة المتحف المصري بباريس ثم أرسل الى مصر في شهر يوليو سنة ١٨٢٨ فزاد البلاد كلها لحد الشلال الثاني هو ولجنة توسكانية وعاد منها ومعه أشياء نفيسة ومصنوعات متنوعة هي الآن محفوظة بمتحف اللوفر بباريس ونقل أيضا جملة رسوم وصور قد نشرت فيما بعد بعنوان (آثار مصر والنوبة) ولما عاد الى باريس في شهر مارس سنة ١٨٣٠ استحصل على الرخصة بإحداث درس في علم الآثار المصرية بمدرسة فرنسا ولكنه عاجلته منيته في ٤ مارس سنة ١٨٣٠ وقد أنهكته الاسفار وأضناه الترحال وهدّ قواه دأبه على العمل والاجتهاد وترك للخلف كتابين بخط اليد لم يساعده الزمان على تكميلهما وهما كتابه في مفردات اللغة المصرية وكتابه في قواعدها النحوية فكانا دليلين على مروره بهذه الدار الفانية وان له فيها أعمالا باقية

٥ — الكلام على علم الآثار المصرية بعد شامبوليون

ما لبث العلم الذي وضع هذا المجتهد قواعده أن انتشر بسرعة تامة في أنحاء أوروبا ففي ايطاليا بواسطة (روزليني) رئيس البعثة التوسكانية الذي رافق شامبوليون في مصر فانه نشر كتابا سماه (الآثار) تكلم فيه على ما عثر عليه وجمعه أثناء رحلته وفي انجلترة على يد (ولكنسن وهنكس وبرش) وفي ألمانيا بهمة (ليپسيوس وبنسن) وأما فرنسا فقد ترك فيها هذا الاستاذ شقيقه البكري شامپوليون فيجاك فسار على أثره قاصدا تكميل طريقته مع غاية الاجتهاد ومن غير انتقاد وكذلك تلامذته (شارل لونورمان وامپير وپواتڤان وف . دوسولسي) على أن

اجتهاد علماء الفرنساوية الباحثين فى اللغة المصرية لم يرجع الى مقامه الاعلى ودرجته القاصية الا حينما جاء على رأسهم العلامة عمانويل ده روجه (المولود سنة ١٨١١ المتوفى سنة ١٨٧٢)

وقد توصل العلماء الى فك هذه الخطوط بالتمام والكمال ولكنهم لم يكونوا قادرين على ترجمتها بل كان القوم يكتفون باستخراج قطع من جملها والاتيان بطريقة حينما اتفقت على ما تضمنته من الحوادث التاريخية حتى جاء الجهبذ ده روجه فنشر سنة ١٨٤٩ كتابه الذى سماه (بحث على نقوش احمس) وأوضح فيه الطريقة التى ينبغى التعويل عليها فى إعراب الجملة المصرية وتحليلها لتعيين معنى كل كلمة وكل عبارة بالضبط والدقة واستبدل الجمل التفسيرية المبنية على الظن والتخمين التى اكتفى بها العلماء الى ذلك العهد بترجمة حرفية دقيقة جدا وهو أول من اجتهد فى درس الكتابات التى بخط اليد بالقلم الهيراطيقى وكاشف العلماء بماهية وكنه الفنون الادبية عند المصريين بما أتحفهم به من ترجمة قصيدة بنتاور (سنة ١٨٥٨) ولما عين مدرسا بمدرسة فرنسا سنة ١٨٦٠ جرى فى تعليمه بها على الطريقة الدقيقة التى اتبعها فى أشغاله الشخصية وقد أتى بنتائج صادقة حقيقية فى كل عمل باشره سواء كان متعلقا بالتاريخ أو بالنحو ولنا أن نقول ان ما استنبطه هو موافق للصحة مطابق للصواب وأنه سيبقى كذلك على ممر الاحقاب وفيما كان عدد قليل من العلماء مثل شاباس ودفيريا وبوشير يقتدون به ويجتهدون فى طبع نسخ الخطوط التى سبق للناس معرفتها

كان أوجست ماريت (المولود سنة ١٨٢١ المتوفى سنة ١٨٨١) يعاود أعمال شامپوليون على نفس شواطئ النيل وقد بذل قصارى جهده فى تكثيرها وترقية العلم بها بما لم يكن فى الحسبان فان الحكومة الفرنساوية أرسلته الى مصر فى سنة ١٨٥٠ فعثر على السراپيوم المجاور لمنف وأتحف متحف اللوفر بعدد وافر من المخلفات وكمية عظيمة من الآثار وقفنا منها على تاريخ العائلات المصرية الاخيرة كله تقريبا وفى سنة ١٨٥٨ عين مديرا عاما للآثار القديمة فى مصر وبقى فى هذه الوظيفة الى أن اخترمته المنون وقد أسس متحف (انتيكخانة) بولاق وأزال الاتربة والردوم التى كانت متراكمة على الهياكل الكبيرة بادفو ودندرة وابيدوس وراد المدافن القديمة التى فى منف وكان أينما ذهب تراءت له الآثار كأنها تجيب نداءه وتلبى طلبه وبذلك يحق لفرنسا أن تفتخر بشامپوليون فى فك الهيروغليفى وبروجيه فى تنظيم طريقة القراءة الهيروغليفية وترجمتها وبماريت فى تأسيس مصلحة منتظمة تقوم بالبحث عن الآثار المصرية وحفظها وأما انجلترة وألمانيا وهولانده وايطاليا والنرويج والسويد والروسيا فقد دخلت فى هذا الميدان على إثر فرنسا واشتركت فى الاعمال التى سبقهم فيها الفرنساويون بما جعل لهن أيضا نصيبا فى الفضل والفخار ويقول الفرنساويون ان أمامهم شئ كثير ينبغى عليهم عمله للمحافظة على هذا التقدم وهذا الرجحان وأنهم مازالوا محافظين عليهما الى الآن وما برحوا يوالون السير فى الطريق الذى اختطه ماريت فى مصر

فان الارسالية المستديمة المستحدثة فى القاهرة سنة ١٨٨١ هى سائرة فى طريق التقدم والنجاح

خلاصة ماتقـــــدم

(١) ان أقدم الآثار المصرية هى التى تدلنا على ان سكان وادى النيل لهم حروف يستعملونها وقد سماها اليونان بالهيروغليف أى الحروف المقدسة وهذه الكتابة الهيروغليفية تحتوى على اشارات تدل على الحروف (الساكنة والمتحركة) وحروف مقطعية وحروف لها معان قائمة بنفسها مستقلة بها وأكثرها لا يستعمل الا لتحديد المعنى وتعريفه

(٢) وكانوا يستعملون فى أمورهم العادية واحتياجاتهم اليومية الخط الهيراطيقى من ابتداء القرن السابع قبل الميلاد وهذا القلم هو عبارة عن أشكال مختصرة ورسوم مختزلة من العلامات الهيروغليفية ولما دخل المصريون فى دين النصرانية اتخذوا حروف الهجاء اليونانية وأضافوا اليها ستة حروف فتكونت عندهم حروف التهجى المستعملة فى اللسان القبطى

(٣) وابتدأ العلماء فى محاولة فك الخطوط الهيروغليفية فى القرن السادس عشر للميلاد ولكنها لم تأت بنتائج مهمة الا عقيب حملة الفرنساوية على مصر (من سنة ١٧٩٩ الى سنة ١٨٠١) واستكشف السويدى اكربلاد والفرنساوى سلفستردوساسى فى حجر رشيد على مبادئ هجائية ديموطيقية وأما الانجليزى يانج فقد تعرف فيه شيأ من حروف الهجاء الهيروغليفية

(٤) أما شامبوليون الصغير المولود فى فيجاك (عقاطعة اللوت بفرنسا) سنة ١٧٩٠ فقد انتهى بالاستكشاف على قواعد الكتابة المصرية وأصولها وقرأ النقوش بالصحة والدقة وعند وفاته فى سنة ١٨٣٢ كانت القواعد الاصلية لفك الهيروغليفى وطيدة ثابتة أكيدة

(٥) وقد انتشر علم الآثار المصرية الذى أسسه انتشارا سريعا فى ايطاليا وانجلترة وألمانيا وكان لفرنسا الى عهدنا هذا النصيب الاوفر والحظ الاكمل فى تقدم هذا العلم الحديث بواسطة ده روجه وماريت وشاباس وعشرين عالما آخر مازالوا يشتغلون بتوسيع نطاقه والسعى فى ابلاغه حد الاتقان والكمال

الكتاب الثاني
في تاريخ الكلدانيين والاشوريين

الباب التاسع
وصف بقعة دجلة والفرات

(١) دجلة والفرات (٢) تكوين أرض كالديا
(٣) اقليمها ومحصولاتها (٤) حيواناتها
(٥) تكوين مملكة عيلام وكالديا

١ ـ دجلة والفرات

بلاد كالديا تشبه مصر في كونها «هبة من هبات الماء» الا أن هذه تكونت من نهري دجلة(١) والفرات وتلك من النيل وحده

وهذان النهران تتفجر منابعهما وعيونهما من بلاد أرمينية في جبل نيفاتس (الذي هو الآن كاشن طاغ) وهو أعلى الجبال الممتدة فيما

---

(١) لا يقال الدجلة بأداة التعريف (ال) كما لا يقال فرات بدونها بل الفرات وأغلب كتاب العرب يؤنثونه (دجلة) باعتبار اللفظ ويذكرونه باعتبار النهر ورد ذكره في الكتاب المقدس وسمي بالسريع وكان الماديون يسمونه دجل أي السهم لسرعة سيره وسماه العبرانيون الداجل أي السريع ثم قالوا أدجل ثم دجلة وسماه الرومان دجليتوس وحرفه اليونان الى تجرس وتابعهم الافرنج في تسميته تيجر (Tigre) وربما كان اسمه العربي مشتقاً من دجل الارض بمعنى قطعها سيراً أو غطاها (بفيضانه) ولكن الارجح أنه معرب عن الاسم المادي أو العبراني ويعرف اليوم عند الاتراك وفي خرائطهم باسم الشط

بين البحر الاسود وهضبتايران وينفرد عن جميع هـذه الجبال بكون
بعض قلله يكون الثلج عليها مستديما ويتكون نهر الفرات من غديرين
تحدر اليهما السيول أحدهما مرادصو والثانى قره صو ثم يجرى فى
أول الامر من الشرق الى الغرب فى مضايق شامخة خلاء جرداء ووديان
ضيقة حرجة ثم يأخذ فيما بعد ملاطية (ملاتيسة) فى الانعطاف
مرة واحدة نحو الجنوب الغربى ويجعل له طريقا فى خلال جبل
طوروس بحيث يحسبه الناظر اليه متجها نحو البحر الابيض المتوسط
ثم يتورب نحو الجنوب الشرقى متجها الى الخليج الفارسى وأما نهر دجلة
فانه يتولد بالقرب من نهر مرادصو ولكنه يسيل بعكس الفرات من
المغرب الى المشرق ومتى وصل الى آخر نقطة من مضايق الجبال
انحرف وانحنى نحو الجنوب واقترب من الفرات فلا تكون المسافة
بينهما قبيل بغداد الا بضعة مراحل فى أرض واطئة مطمئنة ولكنهما
لا يختلطان فى هذه الجهة بل يجريان متحاذيين متوازيين تقريبا نحوا
من عشرين ميلا الى ثلاثين ثم يتعدان فلا يلتقيان الا بعد ثمانين
مرحلة وحينئذ يمتزجان ببعضهما فيتكون منهما نهر شط العرب
وينصب فى الخليج الفارسى

ونهر الفرات يأتيه فى متوسطه نهران من جهة اليسار يمدانه
بمياههما وهما بليخ والخابور وبعد اتصال الخابور به لا يأتيه شئ من
الماء الى أن ينصب فى البحر وأما دجلة فانه تنصب اليه مياه الزابين
وأدهم وديالى ويمكن للسفن أن تسير فى جزء عظيم من مجراهما

فان الفرات تسير فيه السفن من ابتداء سميساط[١] وأما دجلة فمن ابتداء الموصل وعند ما تذوب الثلوج فى أوائل أو أواسط ابريل يزيد هذان النهران وتفيض مياههما وتنتشر على المزارع وفى الريف مثل نيل مصر ثم لا ينقصان الى الحد المعتاد لهما الا بحلول شهر يونيو حينما تشتد الحرارة

٣ ـ تكوين أرض كالديا

لم يكن الحوض الذى يسقى بلاد دجلة والفرات كما هو عليه الآن فيما سبق من الاعصار والازمان فانهما قبل التاريخ بأجيال طوال كانا لا يرويان عند خروجهما من الجبال الا سهلا فسيحا غير ذى استواء تكون فى العصر الثانى (الجيولوجى) وأطلق عليه القدماء اسم ميزوبوتاميا أى أرض الجزيرة[٢] فكانت الخصوبة فيها على جوانب الغدران وحوالى العيون التى تخرج منها الانهار وفيما سوى ذلك كانت الارض جرداء قاحلة وكانت النهاية الجنوبية لهذا السهل كشاطئ للبحر تغمرها مياهه وتتلاعب فيها أمواجه وكانا ينصبان على مسافة عشرين مرحلة من بعضهما فى خليج يحده شرقا آخر الجبال الايرانية وغربا الرمال المرتفعة التى تنتهى اليها هضبة بلاد العرب

---

(١) صاسات فى الخريطة التركية

(٢) يخلط بعض الكتاب والمشتغلين بالجغرافيا فيسمون هذه البقعة الواسعة بجزيرة ابن عمرو والحقيقة ان هذا الاسم يدل على مدينة صغيرة فقط وأما هذه البقعة فتسمى بأرض الجزيرة أو بالجزيرة فقط

أما القسم الاسفل من هذا الوادى فأرضه كلها أحدث من أرض القسم الاعلى فانه اقد أحدثها دجلة والفرات والنهيرات الاخرى مثل أدهم وديالى وخواسپس وقد كانت هذه النهيرات مستقلة مدة طويلة من الزمان وساعدت بنفسها على ردم ساحل البحر وأزاحت مياهه عنه ولكنها آل أمرها الى أن صارت مجارى ثانوية تنصب فى نهر دجلة وفى هذه الايام يشاهد المتأمل تقدم دلتا شط العرب واتساع نطاقها فان متوسط زيادة طرح البحر يعادل ألفا وخمسمائة متر فى كل سبعين سنة ولابد أن هذه الزيادة كانت أكثر من ذلك فى الازمان القديمة وربما أنها كانت تبلغ ألفا وخمسمائة متر تقريبا فى كل ثلاثين سنة

وفى العصر الذى توطن فيه أجداد الكلدانيين بهذا الوادى كان الخليج الفارسى يمتد فى داخله الى أكثر مما هو عليه اليوم بأربعين مرحلة وكان دجلة والفرات ينصبان الى البحر وبينهما مسافة تفصلهما عن بعضهما ولم تمتزج أمواجهما ببعضهما الا بعد ذلك بآلاف وآلاف من السنين

٣ — اقليم كلديا ومحصولاتها

ان القطر المكون من طمى الانهار لاسيما نصفه المجاور لشواطئ الخليج الفارسى كان موطنا ومهادا للامم الاولى التى استقرت بهذه الديار وقد كان هذا القطر سهلا فسيحا مستويا ليس مضرسا بالارتفاعات والانخفاضات ولم يكن الفرات محصورا حصرا جيدا بين شاطئيه فلذلك كان يتفرع ذات اليمين وذات الشمال وبعض هذه الفروع تنصب

فى دجلة وبعضها يجرى الى البطائح وكان قسم من الارض محروما من المياه فأخذ فى التصلب والجمود من تأثير أشعة الشمس المحرقة عليه فى كل يوم وقسم آخر قد انهالت رمال البيداء عليه كله تقريبا وتراكمت فوقه وتراكبت وأما بقية القطر فما كانت الا كجزيرة مستنقعة مو بئة مشحونة بالغاب الهائل الذى كان يختلف طوله بين اثنى عشر وخمسة عشر قدما وكان اقليم هذه البلاد ولا يزال عرضة لتغيرات جوية مخيفة ففى الشتاء تهب عليه رياح الشمال ورياح الشمال الشرقى بعد أن تمر على نجاد ارمينية وايران التى تعلوها الثلوج فلذلك تكون درجة الحرارة فيها منخفضة جدا ويحصل الجليد فى شهر يناير وتتغطى المياه الراكدة فى صباح كل يوم بطبقة رقيقة من الثلج تذوب عند طلوع الشمس ومتى جاء الصيف حل بها الحر الشديد فتهب الريح الجنوبية الغربية آتية من بلاد العرب فتضطر ساكنيها الى الالتجاء عند منتصف النهار فى حجرات مظلمة أو فى أقبية وأنفقة وسراديب تحت الارض وليست هذه الاراضى غير متوفرة فيها أسباب الثروة وأصول الرزق الطبيعية نعم ان أشجارها النافعة قليلة اذ يندر فيها شجر الكرم والتين والزيتون ولكن القمح ينبت فيها على حالته البرية وأشجار النخيل تزهو فيها وتبسق كما تصلح بارض مصر قال هيرودوت ماتأتى ترجمته « ان أرضها موافقة كل الموافقة لزراعة الحبوب بحيث ان محصولها يكون فى العادة بمعدل مائتى حبة عن كل واحدة بل ثلاثمائة فى الارض البالغة فى الخصوبة ويبلغ عرض ورقة القمح والشعير فيها أربعة أصابع وأما الاذرة

والسمسم فانهما يعظمان فيها حتى يصيرا كالاشجار وانى أتحاشى الكلام على مقدار ارتفاعهما لعلمى بأن قولى لا يقابل الا بالريب وعدم التصديق عند من لم يسكنوا أرض بابل ولا يستعمل زيت الزيتون هنالك قط بل انهم يصطنعون زيتا من السمسم » وقال استرابون ماتعريبه « ان النخل يقوم بسائر الاحتياجات التى تلزم للاهالى فانهم يستخرجون منه شبه الخبز والنبيذ والخل والعسل والحلوى وجميع أجناس المنسوجات والحدادون يستعملون نواه فى الحريق بدلا من الفحم وقد يستعملون هذا النوى أيضا فى التغذية وتسمين الاثوار والضأن بعد دقه ونقعه ويقال ان فى الفارسية قصيدة تتضمن ثلاثمائة وستين طريقة لاستعمال النخيل »

٤ — حيوانات كلديا

كان عند قدماء الكلدانيين ماعند قدماء المصريين من الحيوانات الاهلية المستخدمة وهى الثور والحمار والضأن والمعز والخنزير وأما الجمل والفرس فقد أتياهم قبل أن يدخلا مصر وكانت الطيور عندهم بكثرة وافرة خصوصا المائى منها مثل البط والاوز وطير الرخم وكانت الانهار والبرك مشحونة بسمك صالح للاكل مثل البورى والبنى ومازال السمك الطرى والمملح له دخل عظيم الى الآن فى تغذية السكان المحدثين بهذه البلدان وأما الحيوانات الوحشية فربما كانت أكثر من الحيوانات المستأنسة فكان الاسد وكثير من الوحوش التى من فصيلة السنّور تتردد على شواطئ النهيرات وأما الفراء وهى الحمر

الوحشية فكانت تجوب أرض الجزيرة عرجلة عرجلة أى جماعات جماعات وقد كان الثور الوحشي في جميع انحائها والظاهر أن الفيل نفسه قد أقام في الخطط والبلاد المجاورة لبر الشام

٥ ـــ تكوين عيلام وكلديا

ويجمل القول أن البقعة البطائحية التي تمتد من هضبة بلاد ايران في حدود مصبي الفرات ودجلة كانت معدة مثل الدلتا في مصر لان تكون مهداً لحضارة فائقة ومدنية عظيمة كاملة ولما توالى عليها الزمان تكون فيها دولتان متمايزتان

فالاولى هي دولة عيلام تألفت من المدائن والقبائل الواقعة شرقي دجلة وقد يسمونها دولة شوشية باسم أهم مدائنها (مدينة شوشة)

وأما الثانية فقد تألفت من المدن والعشائر المستوطنة غربي دجلة وسموها في العادة بدولة كلديا وسأحفظ لها هذا الاسم وأجعله علماً عليها ولو أنه غير صحيح ولا ينطبق عليها فيما يختص بالعصور السابقة على القرن الثامن قبل الميلاد وكان أهلوها يقسمونها الى قسمين عظيمين وهما قسم شومير وقسم اكّاد وكما ان الفراعنة كانوا يلقبون أنفسهم بأسياد الاقليمين وملوك القطرين القبلي والبحري كان ملوك الكلدانيين كذلك يحبون أن يدعون بملوك شومير واكاد

خلاصة ما تقـــــدم

(١) أرض كلديا هى كبلاد مصر فى كونها هبة من هبات المياه ولكنها تكونت من نهرين هما دجلة والفرات وهذان النهران يخرجان فى بلاد ارمنية من جبل نيفاتس ثم يتحدان قبل أن ينصبا فى الخليج الفارسى بقليل فيصيران نهرا واحدا يعرف بشط العرب ويستمد الفرات فى سيره عباد نهرا الخابور وبليخ وأما دجلة فيستمد بنهرى الزاب ونهر أدهم ونهر ديالى

(٢) وجميع القسم الاسفل من حوض هذين النهرين أحدث فى التكوين من القسم العلوى فقد كان الخليج الفارسى فى العصر الذى يبتدئ فيه تاريخ كلديا داخلا فى الاراضى زيادة عما هو عليه الآن باربعين مرحلة وما كان دجلة والفرات يختلطان ببعضهما فى ذلك العهد

(٣) وقد كان قسم من هذه الاراضى تغمره مياه الفيضان فتجعله بطائح وقسم آخر محروما منها فلم يكن صالحا للزراعة وكان الاقليم ولا يزال الى الآن عرضة للتغيير الكثير وليس فى هذه البلاد غابات كثيرة بل هى شبيهة بمصر فى توفر النخيل وكثرته بها وينبت فيها القمح وغيره من الحبوب مما يأتى بالمحصول الزائد والخير العميم

(٤) الحيوانات الاهلية المستخدمة فى هذه البلاد هى نفس المعروفة فى مصر وهى الثور والحمار والضأن والمعز والخنزير وقد عرف أهلها الفرس والجمل قبل أن يعرفهما المصريون

(٥) قد نشأت دولتان فى هذا الوادى المستعد استعدادا تاما لان يكون مهدا لحضارة فائقة فتكونت الدولة الاولى من جملة دول صغيرة على شرقى دجلة وهى مملكة عيلام وكانت قاعدتها مدينة شوشة وأما الممالك الصغيرة الاخرى الواقعة على غربى دجلة فقد تألفت منها الدولة الثانية التى اصطلح الناس واعتادوا على تسميتها كلديا وهى مؤلفة من قطر شومير وقطر أكاد

الباب العاشر

أصل الكلدانيين والكلام على أيامهم الاولى

(١) روايات الكلدانيين عن الخليقة (٢) الطوفان (٣) أقدم الدول التي ظهرت ببلاد كلديا — حكم ملوك عيلام (٤) الكلام على حالة كلديا في العصر الذي كانت فيه السيادة والصدارة للامة المصرية

---

١ — روايات الكلدانيين عن الخليقة

قالوا «لما كان هذا الشيء الذي فوقنا لايسمى سماء ولما كان هذا الذي تحت أقدامنا لايسمى أرضا» نجبت كائنات وهمية وأشخاص خيالية من الهاوية والبحر المحيط الدائم ولازالت صور هذه الكائنات والاشخاص باقية على الآثار القديمة ونتج أيضا «مقاتلون لهم أجساد كأجساد الطيور ورجال لهم وجوه كوجوه الغربان» وأثوار لها رؤس بشرية وكلاب لها أربعة أجساد وذنب كذنب الاسماك وكان الانسان على الشكل الذي نعهده وهذه الصورة التي نراه عليها يعيش عريان أعزل فيما بين هذه الوحوش وهذه المسوخ الى أن خرج من الخليج الفارسي حيوان اسمه أُوَانِّس ليعلمه ويهذبه وكان لهذا الحيوان جثة سمك ورأس وصوت يشابهان رأس الانسان وصوته وله أرجل كأرجله ولكنها تخرج من ذنبه الذي هو ذنب سمك وكان يقضي نهاره في تعليم الكلدانيين فنون الادب وضروب العلوم وصنوف

الصنائع وأصول الشرائع ومبادئ الهندسة وأوقات الزراعة وأيام الحصيد حتى اذا غربت الشمس آوى الى البحر فغطس فيه وأمضى الليل تحت لجة الماء «ومن عهده الى الآن لم يخترع شئ فائق»

٣ — الطوفان

ثم تكاثر الناس وازداد عددهم واختاروا لهم سيدا منهم وأول من تقلد الملك كان اسمه الوروس وهو من مدينة بابل ثم خلفه تسعة ملوك آخرين وأصلهم كلهم من مدائن الكلدانيين وكانت مدة حكم الجميع ثنتين وثلاثين سنة وأربعمائة سنة وفي أثناء ذلك استولى الشر على الانسان حتى صمم الآلهة على اعدامه من هذا الوجود الا الملك الذى كان حاكما في ذلك الزمان واسمه شيسوتروس ونفرا قليلا من المؤمنين الصالحين فقال له الآلهة «اصنع فلكا عظيما لك ولاتباعك لاننا سنعدم بذرة الحياة» فأطاعهم الملك حتى اذا تم الفلك سمع الناس صوت هاتف يقول «عند المساء تمطر السماء الهلاك والاعدام فادخل الفلك واقفل بابه» ولما كان صباح اليوم الثاني «هبت المؤتفكات وعصفت الزوابع حتى ملأت السماء وطغت المياه وتلاشى ضوء النهار في الظلمات فكان الاخ لا يرى أخاه وصار الناس لا يعرف بعضهم بعضا حتى خشى الآلهة أنفسهم أن يعم الطوفان السماء فصعدوا الى الجلد الأعلى ليكونوا آمنين مطمئنين وما زالت العواصف والقواصف والزوابع والزعازع متوالية بلا انقطاع مدة ستة أيام وسبع ليال وعند فجر اليوم السابع انقطعت الامطار وسكنت الرياح بعد أن طغت

واشتدت مثل الجيش القوى العظيم ثم هبطت مياه البحر وسكنت الرياح والعواصف (قال شيسوتروس) «فجئت البحر أنوح وأنحب لان بني الانسان رجعوا كلهم الى الطين وكانت أشلاؤهم طافية حولى كأنها أعجاز نخل خاوية ففتحت النافذة فلما أبصرت الضوء انقبض صدرى وولانى الحزن والكآبة فجلست أبكى وكانت الدموع تسيل على خدى» واستوى الفلك على قلة الجبال الجوردية فتربص شيسوتروس ستة أيام ثم أطلق حمامة فحومت ولم تجد محلا تقف عليه فرجعت وعاد طائر الخطاف مثلها الى السفينة وأطلق غرابا بعد الخطاف فرأى جيفا على وجه الماء فأكل منها ثم عام وهام بعيدا ولم يرجع وحينئذ أخلى شيسوتروس سبيل الحيوانات وبنى محرابا على قلة الجبل وقدم القربان للآلهة وقد رضى بعل أعظم الآلهة بان الناس الذين نجوا بالفلك يبقون على قيد الحياة وأنه لن يرسل الطوفان عليهم مرة ثانية

٣ — أقدم الدول التي ظهرت بكلديا

تلك هي القصة التي يرويها الكلدانيون عن القرون الاولى لخلق العالم ويتضح من أقدم الآثار التي تركوها لنا (وهي معاصرة لاكبر اهرام مصر أى قبل المسيح باربعة آلاف سنة) أن كلديا والبلاد المحيطة بها كانت قد بلغت درجة عظيمة ومقاما ساميا من الحضارة والمدنية وكان التمدن ضاربا أطنابه ورافعا أعلامه في طائفتين من المدائن الاولى واقعة بالقرب من مصب الفرات وهي ايريدو وأرولث

ولارسام (لرسن) ولاجاش (الكع) وحاضرتها مدينة أورو (أور الكلدانيين) على الشاطئ الايمن لنهر الفرات وهذه المدينة كانت قائمة على سهل مطمئن تتخلله كثبان من الرمال وفي وسطها معبد للاله سين الذي هو القمر وله ثلاث طبقات مشيدة من الآجر المطلي بالقار وحول المدينة من جميع جهاتها قبور قد اكتشف السُّياح على ما فيها فوسعوا نطاق المعارف بما وجدوه بها من الآثار والمخلفات وهذه البلاد هي التي تسمى بقطر شومير أما بلاد أكّاد فكانت واقعة الى شمالها قليلا حيث لا يفصل بين دجلة والفرات الا شبه برزخ ضيق ومدائنها هي نيبّور وبورسيبا وكوتا وسيبّارا وأخصها بابل

وكان لكل مدينة من هذه المدائن ملوك خاصون بها وعائلات ملوكية من أهاليها وكان بعض هذه العائلات تارة تابعة لمجاوريها أو متبوعة بها أي انها إما أن تقع تحت سلطتها أو يكون لها السيادة عليها وقد جاء في التاريخ الخرافي ذكر لبعضهم كالملك جيلجامس فانه جاب البلاد وقتل الوحوش والمسوخ ونازع الآلهة وقاومهم وأما التاريخ الحقيقي فينبئنا عن بعضهم بما أبقوه من الآثار فاقدمهم وهو (أورباو) كان له سلطان حقيقي على القطر وتوجد بقايا بناياته وعماراته في أغلب مدائن الكلدانيين ومنهم ملوك آخرون لم يحكموا الا على كورة أو كورتين متجاورتين مثل الملك جوديا صاحب لاجاش وتماثيله تزدان بها الآن أروقة متحف اللوفر في باريس

وكان الرجحان لمدائن الجنوب فى أول الامر ثم زالت سيادتها شيأً فشيأً أمام مدائن الشمال وفى نحو سنة ٣٧٠٠ ق.م كانت السلطة فى يد عائلة من آجانى ومن ملوك هذه العائلة سرجون وهو على ما يظهر من كبار المشرعين وعظماء الفاتحين ويروى عنه أن أمه تركته على شط الفرات عقيب ولادتها له فالتقطه أحد الفلاحين وأنه اشتغل فى شبيبته بحرفة الحولى (أى القيام بخدمة البساتين) وقد استولى على كالديا كلها وأرض الجزيرة واخترق بلاد الشام الى تخوم الديار المصرية ثم ان الملوك الذين خلفوه على كرسى السلطنة حافظوا على ممالكه مدة قليلة من الزمان حتى جاء العيلاميون فقلبوا دولته وفتحوا كالديا

٤ — حكم ملوك عيلام

تبتدئ عيلام من شطوط دجلة بسهل جميل خصيب تكون من طمى الانهار وهى فى الخصب شبيهة بكالديا نفسها حتى ان الحبة الواحدة من الشعير والقمح تأتى فيها بمائة حبة بل بمائتين كما هو الشأن فى كالديا وكذلك النخيل والنجمات والرقال (١) تنبت فيها بكثرة وخصوصاً فيما جاور المدن ويوجد فيها أيضاً أشجار الاقاقيا (أنواع السنط) والجوز والصفصاف على مجارى المياه والانهار ثم ترتفع الارض قليلاً حتى تبلغ هضبة بلاد الماديين ويصير الاقليم أشد برداً والارض أقل خصوبة

وكان ملوك عيلام قد بنوا مدينة شوشة حاضرتهم على تخوم السهل الفسيح على مسافة ثمان مراحل أو عشر من الجبال وعندما تقى فرعى

(١) هى اصناف من النخيل

نهر خواسبس وكانت القلعة والقصر مبنيين على منحدر تل يشرف من بعيد على السهل وفي أسفله ترى المدينة نحو الشرق وهي مبنية من آجر مجفف في الشمس وكانت عيلام أشبه بدولة إخاذية منقسمة الى جملة ممالك صغيرة مستقلة عن بعضها ولكنها مجتمعة كما هي في العادة تحت سيطرة ملك شوشة وكانت لغة عيلام تختلف عن اللهجات السامية ولم يكن هنالك ارتباط بين ديانتها وديانة الكلدانيين وفيما عدا ذلك كانت اخلاق العيلاميين وصنائعهم وشرائعهم لها مشابهة قوية بما للكلدانيين

وكان العيلاميون منذ الاحقاب الخوالي في جلاد مستديم وجهاد متوالي مع الامم المجاورة لهم ويتضح لنا من الروايات الخاصة بجيلجامس انهم تملكوا على مدينة اريدو والمدائن الاخرى الواقعة على الفرات الاسفل وقد هزمهم سرجون الاول ولكنهم هزموا اخلافه وافتتح أحد ملوكهم واسمه (كودورناخونتا) بلاد كلديا كما هي في حدود سنة ٢٣٠٠ ق م وانتزع صور الآلهة البابلية ووضعها في معبد شوشة علامة على الفوز والانتصار وقد حفظت ذريته السيادة على كلديا مدة أجيال كثيرة بل انهم توغلوا في فتوحاتهم الى داخل بلاد الشام

٥ — الكلام على حالة بلاد كلديا في العصر الذي كانت فيه السيادة والصدارة للامة المصرية

ان تاريخ هذا العصر كله والقرون التي جاءت بعده ليس الا خليطا من الاقاصيص والروايات عن حروب داخلية وفتن وثورات وغارات

من الامم المتبربرة كانت الملوك والعائلات (شكل ١٧) تقوم فيه ثم لا تلبث أن يمحى أثرها من الوجود من غير أن تؤسس شيأ له ثبات وقرار أو أن توجد ولو إلى أجل قليل تلك الوحدة التى توصل اليها فراعنة العائلات الطيبة وجعلوها شاملة لديار مصر كلها مدة قرون عديدة وأزمان مديدة نعم لا ريب فى أن بابل هى أول مدينة فى هذه الاقطار وانها أكبر ما فيها من الامصار وآهلها بالسكان والعمار بحيث ان من كانت تدخل فى



ش ١٧ (تمثال ملك من قدماء الكلدانيين منقولا عن رسم بارز على حجر فى المتحف البريطانى)

حوزته يكون له السلطة التامة والسيادة الظاهرة على جميع أقرانه ونظرائه ولكن سلطتها لم تكن من العظمة بحيث يمكنها أن تقاوم الاخصام والمزاحين وتخضع جميع المدائن الاخرى اخضاعا مستمرا ومن جهة أخرى فان عيلام كانت فيها القوة الكافية لافتتاح البلدان ولكنها لم تكن عندها القدرة اللازمة لحفظ فتوحاتها وتمثيل اهلها بها فان حكمها كثيرا ما شمل بلاد كالديا ولكنه ما تأصل فيها أبدا ولم تتوطد دعائمه بها مطلقا

ولم يكن في ذلك الوقت دولة كلدانيـة كما كانت دولة مصرية بل غاية الامر انه كان يوجد تمدن كلداني راسخ أصيل لاتؤثر فيـه عواقب الحروب المتوالية بل كان مع هذا يمكن أن يمتد الى غير بلاد كلديا ولما جاء تحوتمس الاول وخلفاؤه وجابوا بلاد الشام يحف بهم العزو والانتصار وضربوا الجزية على أهلها (فيما بين سنتي ١٦٠٠ و ١٥٠٠ ق م) كان الكلدانيون قد سبقوهم بازمان طوال لهـذا الفتح وذلك ببث أخلاقهم وعاداتهم فيها وكانت آلهة بابل والمدائن الكلدانيـة ممتدة عبادتها الى تخوم مصر وكان البابليون قد ادخلوا اصـناعاتهم وفنونهم في بلاد الشام ثم ان الكتابة الاسفينية المعبر عنها أيضا بالكتابة المسمارية كانت مستعملة رسميا عند ملوك الشام بعـد توفيقها على لغاتهم وكانوا يستعملونها في مراسـلاتهم مع بعضهم وفي مكاتباتهم مع الفراعنة أسيادهم ومتبوعيهم بكل ما يتعلق بالعلاقات والمواصلات

خلاصة ما تقـــــدم

(١) كانت أول المخلوقات على قول الكلدانيين مسوخا خياليـة ظهر بينها الانسان وهو عار أعزل فخرج الآله السمكي المدعو أوانيس من الخليج الفارسي ومدن بني الانسان

(٢) وكان الملوك الاولون عشرة عدا وقد حكموا بلاد كلديا مدة تزيد على اربعمائة قرن وفي عهد آخرهم المدعو شيسوتروس صار الناس أشرارا حتى أهلكهم الآلهة بطوفان أرسلوه عليهم ولم ينج من هذا الطوفان الا شيسوتروس ومن معه من الاتباع بواسطة الفلك ولما عادت المياه لمجاريها تناسل منه ناس آخرون

(٣) وان أقدم الآثار الكلدانية قد صنعت تقريبا فى العصر الذى بنى فيه أكبر اهرام مصر (فى نحو سنة ٤٠٠٠ ق م) وكانت هذه البلاد منقسمة الى طائفتين من ممالك صغيرة لكل واحدة منهما ملك خاص بها والظاهر ان ملوك الجنوب وخصوصا ملوك أور كان لهم فى أول الامر سيطرة على بلاد كلديا كلها ثم انتقلت السيادة الى مدائن الشمال وفى سنة ٣٧٠٠ حكم سرجون البابلى على بلاد الشام لمدة قليلة من الزمان ثم انتقل الملك من بعده الى ملوك عيلاميين

(٤) وكان العيلاميون يخالفون الكلدانيين فى اللغة ولكنهم كانوا متشبهين باخلاقهم وبقيت السيادة فى يدهم مدة قرون كثيرة

(٥) فمن ذلك ترى ان التاريخ القديم لهذه البلاد ليس فيه ارتباط واتحاد فلم يكن هنالك فى الحقيقة دولة كلدانية بل كان تمدن كلدانى امتد وتشعب حتى وصل الى البحر الابيض المتوسط وكان هذا التمدن وحده ضاربا أطنابه فى بلاد آسيا الغربية حينما افتتح الفراعنة بلاد الشام

الباب الحادى عشر

الكلام على نينوى وذكر سرجون وخلفائه

(١) أشور ومدائنها (٢) الدولة الأشورية الاولى وذكر قصة نينوى وسميراميس (٣) اشورنازرهابال (من سنة ٨٨٤ الى سنة ٨٦٠ ق م) والدولة الأشورية الثانية (٤) تغلاتفلاصر الثالث (من سنة ٧٤٥ الى سنة ٧٢٦ ق م) (٥) السرجونيون (من سنة ٧٢١ الى سنة ٦٠٦ ق م)

١ — اشور ومدائنها

لم يكن للمدائن الواقعة على القسم الاوسط من دجلة شأن يذكر فى تقدم هذه المدنية ونمو هذه الحضارة وكانت كمتعاهدة مع بعضها وأطلق عليها من مبدأ الامر أشور وهى واقعة على حافتى نهر دجلة من الجهة التى فيها ينصب اليه نهر كورنيب الى المكان الذى فيه يدخل دجلة فى سهول كالديا التى تكونت من طمى النهر وكانت منفصلة من جهة الشرق عن القبائل القاطنة فى هضبة ايران بنهر الزاب الاكبر وأواخر اسناد الجبال الجوردية وأما من جهة الغرب والجنوب الغربى فكانت تمتد نحو نهر الخابور والفرات دون أن تكون لها حدود معينة هنالك وكان القسم الشرقى منها ترويه نهيرات كثيرة وفيه كثير من الفلزات والمعادن وهى خصبة جدا تنبت القمح والفاكهة على اختلاف أنواعها وكانت تشقها فى الازمان القديمة ترع كثيرة مشتقة من دجلة ومن الانهر التى تصب فيه فتقوم مقام الامطار التى يندر نزولها

فى مدة الصيف وكانت نينوى وكلح واربلة هى المدائن الثلاثة الاصلية فيها وهى قديمة جدا إذ كان تأسيسها فى أول أزمان التمصير الكلدانى وفى غربى النهر يمتد سهل أرض الجزيرة وليس فيه خصوبة كثيرة كما ان الري فيه لا يجرى على طريقة الانتظام فلذلك كانت موارد الثروة فيه أقل منها فى الاول ومع ذلك كانت مدينة الآشور قائمة فيه وهى أقدم المدائن الملوكية الأشورية

٣ ــ المملكة الاولى الآشورية
وذكر قصة نينوس وسميراميس

ان أقدم الملوك الأشوريين الذين وقفنا على أسمائهم لم يكونوا قبل القرن العاشر قبل الميلاد وكانوا يعيشون خاملين تابعين بعض التبعية لملوك بابل أما خلفاؤهم فقد تملكوا مع توالى الزمان على معظم الجزيرة وحينما كان المصريون حاكمين على بلاد الشام كان هؤلاء الملوك معادلين لملوك بابل ولهم مثلهم صلات ودية وعلاقات حبية مع الفراعنة ثم افتتحوا شيأ فشيأ البلاد الواقعة فى الحوض الاعلى لدجلة وانتزعوا كورا وقلاعا من الكلدانيين ومن القبائل المتوطنة على سطح هضبة ايران فكان لأشور بهذه الكور وهذه القلاع مأمن من كل هجوم وعدوان ثم فى حدود سنة ١١٣٠ ق م عبر نهر الفرات الملك تغلاثفلاصر الاول وهو من كبار الفاتحين النينويين واخترق بلاد الشام الشمالية وضرب الجزية على أمم الحيثى ولم يفعل الملوك المصريون من العائلة المتممة للعشرين شيأ ما لايقاف سيره أو لصد هجماته ولكن خلفاؤه لم يتمكنوا

من حفظ فتوحاته فقد هزمهم الشاميون وكسرهم البابليون حتى اضطروا للبقاء فى أرض أشور الحقيقية مدة لا تنقص عن قرنين

ولما انتقل ذكر هذه الدولة الاولى الى اليونان بالابهام والخبط والاختلاط نقلوها الى حكايات عجيبة وأقاصيص خارقة للعادة فقد حكوا انه فى مبدأ التاريخ جاء أحد الرؤساء واسمه نينوس وبنى مدينة نينوى وأحدث لنفسه فى آسيا الغربية مملكة تشتمل على أرض بابل وبلاد المادين وارمنية وجميع البقاع الكائنة بين نهر السند والبحر الابيض المتوسط ولاقى سميراميس أثناء حصار بلخ وهى ابنة رجل عادى تزوج بالالهة درسيتو فاتخذ سميراميس حليلة له وجعلها وريثته فلما جلست على سرير الملك ابتنت بابل وجعلتها أوسع وأكبر من نينوى وزخرفتها بالمبانى العجيبة والآثار العظيمة ثم سافرت لاتمام الحروب وشن الغارات وكانت أينما مرت تخرق الجبال وتحطم الصخور وتمهد سبلا طويلة جميلة وتبتنى مدنا مثل اكباتان (همذان) فى بلاد المادين وسميراموسرتا فى ارمنية وطرسوس فى كيليكيا ولم تخلص منها مصر واتيوبيا ولكنها لاقت فى بلاد الهند ما أوقف سيرها وفتوحاتها فقد غلبها الملك ستاربوباتيس ورجعت الى بابل وان ما كان لها من البأس والجد لم يمنع القوم من المؤامرة والكيد على حياتها فان ابنها نينياس مالئ على قتلها فتنازلت له عن الملك وانقلبت حمامة فلما وقعت مملكتها فى أيدى ملوك كسالى ضاق نطاقها شيأ فشيأ حتى ضاعت بالكلية فى وسط الفتن والهيجان

٣ — آشورنازرهابال (من سنة ٨٨٤ الى سنة ٨٦٠ ق م) والدولة الآشورية الثانيـــة

عاود آشورنازرهابال الاعمال التي بدأ بالشروع فيها تغلاتفلاصر الاول فجعل كالخ الواقعة على الشاطئ الايسر لدجلة عاصمة بلاده وقد أقام بها خلفاؤه مدة قرنين متواليين وكانوا كلهم من المجاهدين المقاتلين الذين لا يأخذهم كلال ولا ملال ولا ينفكون عن ارتكاب القسوة والجفوة في محارباتهم وهم سلمناصر الثالث (من سنة ٨٦٠ الى سنة ٨٢٤) وسميرامان الرابع (من سنة ٨٢٤ الى سنة ٨١٢) ورامانيراري الثالث (من سنة ٨١٢ الى سنة ٧٨٢ ق م)

فكانوا يخرجون من كالخ في كل سنة تقريبا لغزو بعض البلاد الواقعة على تخوم مملكتهم وكانوا لا يصح لهم أن يحاولوا توسيع ملكهم من جهة الشرق أو الشمال الشرقي لان هضبة ايران كانت وراءهم تصدهم عن التقدم وتحف ببلادهم سلسلة جبال ارمينية فانهم كانوا لابد أن يصادفوا في هذه البقاع عناء كبيرا وربحا قليلا فاقتصروا على صرف قصارى عزيمتهم الى ابقاء نير عبوديتهم على أعناق تلك القبائل الكثيرة الحركة التي كانت تمتد في أقصى تخوم وادي دجلة وجبال كردستان نعم انهم كانوا يتجاوزون في بعض الاحيان هذه الحدود ولكن ذلك بقصد اجراء غزوات نحو البحر القزويني (١) فلم تكن ميادين قتالهم الحقيقية في هذه النواحي بل في كوماجين وفي آسيا الصغرى

(١) يعرف أيضا بالبحر القزويني وبحر الخزر وبحر الكسب

وبابل وعيلام والشام فقد أعدم آشورنازرهابال ما كان قد بقي من شوكة الحيثي وجالد سلمناصر ملكي دمشق بنهدد الثالث وحزايل وظهر عليهما وأخذ الجزية من أكاب ملك اسرائيل

وقد استجمع هؤلاء الملوك الاشوريون جميع الصفات اللازمة للمقاتلين والمجاهدين كأحسن ما يكون من قوة جسدية ونشاط وحذق وثبات جاش وشجاعة صادقة وبأس شديد فكانوا يجالدون بأنفسهم الأثوار الوحشية والآساد وقد كانت كثيرة في تلك البقاع على ان هذه الفضائل الجميلة كانت تحف بها كل رذيلة ورذيله فكان أولئك الرجال سفاكين للدماء قد اشربت قلوبهم العدوان والبهتان وانهمكوا في اللذات البهيمية وتعمقوا في الختل والخداع والغدر والخيانة واتصفوا بالكبرياء والقساوة فكانوا أينما ساروا يهدمون المدائن ويحرقونها ويخوزقون من يعصاهم من الرؤساء أو يكشطون جلودهم وهم على قيد الحياة فلذلك بقوا هم وأممهم متوغلين دواما في الهمجية والتوحش مع ما كان لهم من بهاء التمدن الخارجي ورونق الحضارة الظاهرية

٤ ــ تغلاتفلاصر الثالث (من ٧٤٥ ــ ٧٢٦ ق م)

ثم تقلص ظل دولتهم بعد الملك رامانيراري الثالث مدة قرن ونصف تقريبا وضعفت مملكتهم حتى صارت منحصرة في أراضي أشور الحقيقية حتى اذا جاء تغلاتفلاصر الثالث (من سنة ٧٤٥ الى سنة ٧٢٦) أعادها الى ما كان لها من رفعة الشان فانه أخذ بابل ودمشق وعاث في أرض اسرائيل ونقل أهاليها الى بلاد أشور وقد شرع في تخريب

مملكة السمرة واقتفى أثره فى ذلك ابنه سلمناصر الخامس (من سنة ٧٢٦ الى سنة ٧٢١) وتم تدميرها على يد سرجون (فى سنة ٧٢١ ق م) ولم يكن سرجون هذا من سلالة العائلة الملوكية مثل سلفائه الذين وليهم فأسس عائلة جديدة وصلت أشور فى أيامها الى أوج الفخار ونهاية العز والاقتدار وكان ملوك أشور الى عهد ميدركون معنى الفوز والانتصار بمثل ما يدركه فراعنة العائلة الثامنة عشرة أى ان النصر هو عبارة عن سلب المغلوب كاشياء الغالب وضرب الجزية عليه وأما بلاده فلا تدخل فى حوزة المنتصر ولا تندرج ضمن مملكته اما تغلاثفلاصر الثالث وسرجون وخلفائهما فقد كان همهم استلحاق البلاد واستعمارها فكانت الاقطار التى يرون فائدة فى حفظها يخلعون العائلات الحاكمة فيها ويضعون بها جنودا من الاسارى الذين أصلهم من بلاد بعيدة ثم يعهدون بحكومتها الى بعض من قواد الاشوريين ويلزمون أهاليها بالخدمة العسكرية بحيث يجندون منهم فى كل عام عددا معينا من الشبان وكانت المدائن تدفع ضريبة معلومة من المحصولات ومن المعادن

٥ — السرجونيون (٧٢١ – ٦٠٦ ق م)

حكم سرجون مدة ست عشرة سنة قضى معظمها فى حرب تكاد تكون واحدة امتدت فى أرمينية حيث قاومه الملك أورسا مقاومة عنيفة وفى مادى والشام حيث أخضع ممالك الحيثى وجعلها عمالات تابعة لمملكته وفى فينيقية ويهوذا حيث ردع الملك حزقيا عن الطموح

الى الجهاد والقتال وقد أراد الملك سباقون الاتيوبي بعد تملكه على مصر أن يتداخل في أمور الفلسطينيين فكسر سرجون جنوده في رافيا سنة ٧٢٠ وكانت بلاد بابل أهم النقط التي يتولى فيها الحرب والكفاح وقد ظهرت في الوجود امة جديدة هي أمة الكلدانيين تألفت من اجتماع القبائل الآرامية القاطنة على ضفاف نهر دجلة والفرات وجعلوا لهم سيطرة على المدائن القديمة بل ان أحد ملوكهم وهو ميروداخبالادان نجح في الاستيلاء على بابل وكانت هذه الامة ذات عزيمة وصلابة جمعت بين الفضائل والرذائل التي امتازت بها في القدم أمم دجلة والفرات وقد أوقع تغلاثفلاصر بملكهم ميروداخبالادان (في سنة ٧٣٢) ثم هزمه سرجون مع أن عيلام كانت تساعده وتعاضده فاضطر لان يلتجئ الى البطائح ويحتمي فيها وحكم سرجون في بابل الى أن أدركته المنية في سنة ٧٠٥

وقد حارب خليفته سنحاريب (من سنة ٧٠٥ الى سنة ٦٨١ ق م) أخصامه الذين أتينا على ذكرهم فانتصر في أول الامر على ميروداخبالادان (في سنة ٧٠٣) وعلى المصريين (في سنة ٧٠٢) ولكنه لم يقيض له الظفر بجرقيا بل اضطر للعدول عن اخضاع مملكة يهوذا بعد أن خسر فيها جيشا بكيفية لا يعلم كنهها ولا تعرف حقيقتها (في سنة ٧٠١) كما سبق لنا ذكرها وبقيت مدة حكمه يتوالى فيها الجلاد مع ملوك عيلام وكاديا وكانت نهاية ذلك الاستيلاء على بابل ونهبها أما ولده أشرحدون (آشور أخي الدين) (من سنة ٦٨١ الى سنة ٦٦٨)

فقد ظهر على العرب وأخذ مصر من يد طهراق الاثيوبي (في سنة ٢٧٢) وأما حفيده آشور بانبال (من سنة ٦٦٨ الى سنة ٦٢٥) فقد خرجت مصر من يده ولكنه انتصر على عيلام بعد أن احتدمت نيران القتال مدة عشرين سنة من الزمان (شكل ١٨) على أن جميع هذه الانتصارات أنهكت بلاد أشور واضعفت قوتها بدلا من أن تأتيها بالفائدة فقد اتسع نطاقها بالسرعة لما كانت أخصامها عبارة عن قبائل هي بين الهمجية والمدنية أو ممالك لاقوام لها ولا منعة فيها وذلك في بلاد الشام وفلسطين وكلديا ولكنها صارت من عهد سرجون



ش ١٨ (آشور بانيبال — نقلا عن رسم بارز على حجر في المتحف البريطاني)

واقفة بازاء ممالك منتظمة تنظيما يشابه تنظيمها في الثبات ورسوخ القدم وبتوطيد الدعائم وقادرة على مقاومتها بل وعلى هزيمتها والانتصار عليها فان أرمينية ومصر وعيلام أوقفت سير كتائبها وجعلت بينها وبين بقية العالم حجابا منيعا لم تتمكن قط من النفوذ منه نعم ان سرجون وخلفاءه قد فازوا على ملوك هذه الدول الثلاث ولكن ظفرهم كان وقتيا يجدوه

في الغالب ما يحل بهم من الهزيمة والمصائب وقد طردوا من مصر ومن أرمينية ونفدت قواهم بسبب انتصارهم في عيلام

خلاصة ما تقـــــدم

(١) ان بلاد أشور واقعة على ضفتي دجلة والقسم الشرقي منها متوفرة فيه الثروة والري وفيها ثلاث مدائن قديمة جدا وهي نينوى وكلخ وأربلة أما الكور الغربية فهي فقيرة قليلة الخصب وقصبتها الاشور وهي أقدم المدائن الملوكية الاشورية

(٢) كان أقدم ملوك أشور تابعين لكلديا ثم استقلوا مع توالي الزمان ومدوا سلطانهم على بلاد الجزيرة كلها ولما جاء تغلاثفلاصر الاول (في حدود سنة ١١٣٠) أخضع بلاد الشام الشمالية وجزأ من البلاد الجبلية التي يخرج منها الفرات ولكن خلفاؤه لم يتمكنوا من حفظ فتوحاته فسقطت أشور مدة قرنين في مهواة العجز والانكسار وقد حول اليونان تاريخ هذه الدولة الاولى الذي فيه اختلاط واختباط الى أقاصيص وخرافات يدور الكلام على نينوس وسميراميس

(٣) ثم عادت الشوكة لأشور على يد ملكين مقاتلين مغازيين هما آشورنزرهابال (من سنة ٨٨٤ الى سنة ٨٦٠) وسلمناصر الثالث (من سنة ٨٦٠ الى سنة ٨٢٤) وكان في مجالدتهم مع ملوك دمشق توطئة وتمهيد الى اذلال الشام واستعباد أهاليها

(٤) ولكن ضعف خلفائه أوجب تأخير ذلك مدة قرن ونصف فلما جاء تغلاثفلاصر الثالث (من سنة ٧٤٥ الى سنة ٧٢٦) وسرجون (من سنة ٧٢١ الى سنة ٧٠٤) تمّ هذا الاستعباد وتملكا على تلك البلاد

(٥) وقد وصلت شوكة نينوى الى منتهاها في عهد خلفائه وهم سنحاريب (من سنة ٧٠٤ الى سنة ٦٨١) وأسرحدون (آشور أخي الدين) (من سنة ٦٨١ الى سنة ٦٦٨) وآشوربانيبال (من سنة ٦٦٨ الى سنة ٦٢٥) وأخضع سنحاريب كلديا واستولى آشور أخي الدين على مصر وآشوربانيبال على عيلام ولكن هذه الحروب المتوالية هدت قوى مملكة أشور وعجلت بخرابها

الباب الثاني عشر

ذكر نابوكودونوزور وخراب بابل

(١) تأسيس المملكة الكلدانية (في سنة ٦٢٥ ق م) وخراب نينوى (في سنة ٦٠٦) وذكر نابوبولاصر (٢) واقعة كركميش (سنة ٦٠٥) (٣) فتوحات نابوكودونوزور (بوخذنصر) (٤) أعمال نابوكودونوزور (٥) نبونهيد (من سنة ٥٥٥ الى ٥٣٨) وذكر سقوط الدولة الكلدانية (سنة ٥٣٨)

---

١ – تأسيس المملكة الكلدانية (في سنة ٦٢٥) وخراب نينوى (في سنة ٦٠٦) وذكر نابوبولاصر

كانت كلديا أول من انتفع من ضعف الملوك الأشوريين فانها كانت جزأ من مملكتهم منذ أيام سنحاريب وقد حكم اشوراخي الدين وأشوربانيبال على بابل وعلى نينوى بالسواء فلما مات آشوربانيبال في سنة ٦٢٦ خلفه في الملك ولده سراقوس (آشوريتيليلاني) ولكنه لم يتمتع بزمنا طويلا اذ قامت دولة قوية فجأة بجانب أشور على هضبة ايران وهي مملكة المادين واغتنم رئيسها فراورتس فرصة حدوث الفتن التي تحصل عادة في الممالك الشرقية عقيب تغيير الملك فنزل في حوض دجلة وزحف على نينوى فارتجت لذلك كلديا وقام بها الهيجان فارسل سراقوس على الثائرين جيشا عرمرما تحت امرة أحد قواده وهو نابوبولاصر

فوضع هذا يده على مملكة بابل واستبدّ بها وجعل نفسه ملكاً عليها وانضم الى الماديين وأعلن الحرب على ملكه القديم (سنة ٦٢٥) فنجت نينوى هذه المرة من الخراب بسبب قدوم عشيرة رحالة نزالة من قوم السيتين (السكيثيين) أتت اليها بغتة فهزمت جيش الماديين وأبادته ولكن أشور خربت كلها وأحرقت أغلب مدائنها الملوكية مثل كالخ والاشور أونهبت نهباً ليس بعده منهب وبقيت نينوى بعد ذلك عشرين سنة أيضاً وهي في الحضيض ثم مالبثت أن سقطت في يد أمم تحالفوا عليها وطالما كانت وضعت قدمها فوق هامهم فانه بينما كان نخاو يجدّ في انتزاع بلاد الشام منها (سنة ٦٠٨) كان الماديون والبابليون محاصرين لها فدافعت دفاع الابطال ولم تسقط الا بعد أن استمر الحصار ثلاث سنين وكان سقوطها في سنة ٦٠٦

وقد تقاسم الظافرون أراضيها وقام على اطلالها مملكتان كبيرتان وهما مملكة الماديين ومملكة الكلدانيين فأخذ سيا كسار بلاد أشور الحقيقية وملحقاتها وأما نابو بولاصر فقد رجع الى ملكه على بابل سيادته على أرض الجزيرة والشام وفلسطين بل قد زعم أنه يمد حدود ملكه الى ماوراء برزخ السويس واعتبر ملوك مصر تابعين لكلديا لانهم كانوا تابعين لنينوى بضعة أعوام

٣ — واقعة كركميش في سنة ٦٠٥

فبعد أن تغلب على أشور كان أول همه استرجاع الاقاليم الشامية التي كان نخاو قد افتتحها منذ قليل فجرد الكتائب وحشد الجيوش

وأرسلها مع ولده نابوكودونوزور(١) ولم يذهب بها هو لانه كان متوغلا في الشيخوخة فلا يستطيع مباشرة القتال وقد حصلت الموقعة في كركميش على التخوم قريبا من الفرات وانهزم المصريون شر هزيمة نفسروا الشام كلها من جبال طوروس الى حدود بلاد العرب الحجرية وقد تقدم نابوكودونوزور في فتوحاته وانتصاراته فوصل الى مدينة القرما وبينما كان على أهبة الدخول في أراضي الدلتا واذا بنعي أبيه قد جاءه فثبت مكانه وعقد محالفة مع فرعون مصر خشية من أن يظهر ببلاد كالديا مناظر له يطالب بالملك ثم عجل بالرجوع الى بابل عن طريق الصحراء وكان أمناء الديانة قد تولوا الاعمال وادارة البلاد بالنيابة عنه بحيث لم يكن عليه الا أن يظهر في عاصمة بلاده ليبايعه الناس وينادوا به ملكا مطاعا نافذ الامر

٣ — فتوحات نابوكودونوزور

هذا الرجل هو بطل المملكة الكلدانية والملك الوحيد الذي يصح أن تتباهى به بلاد كالديا وتجعله بازاء الفاتحين الكبار من ملوك مصر وآشور وفارس ولولاه لم يكن لبابل في التاريخ ذكر الا بالعلم والزخرف والصناعة ولكنها اشتهرت بسببه في جميع انحاء المشرق بما حازه من الانتصار وما ناله من الشوكة والاقتدار وقد حافظ على السلم دواما

(١) ان هذا الشكل المقرر الآن لهذا الاسم هو تحريف ترجع فيه المسؤلية على الناسخين العبرانيين الاولين الذين كتبوا التوراة هذا واعلم أن اسمه عند العرب بخت نصر وبنوخذ نصر وهذا أقرب الى الاصل

ومع الملوك الماديين سيما كسار واستياج ولكنه جالد الفينيقيين واليهود المصريين مجالدات طويلة

وكان له من هذه الجهة مشابهة بما ناله ملوك أشور من قبله بقرن تقريبا وقد علم الاختبار الفراعنة ان امتلاك منف وطيبة هو الغاية القصوى والغرض الوحيد الذى تطمح اليه أبصار الفاتحين من أهل آسيا فان (نابوكودونوزور) لما استولى على بلاد الشام كان يخشى منه دواما على مصر كما كانت الحال مع سرجون وسنحاريب وآشوربانيبال فلذلك كان من الواجب على ملوك العائلة السادسة والعشرين أن يفعلوا كما فعل الملوك الاتيوبيون الذين سبقوهم فيعملوا على معاكسة الكلدانيين بأن يوغروا عليهم صدور أهل فينيقية ويهوذا وجميع الممالك الصغيرة التى مازالت باقية الى هذا العهد ويثيروا فيهم روح البغض للكلدانيين ومجاهرتهم لهم به مجاهرة قليلة أو كثيرة فلم ينفك نخاو (من سنة ٦٠٥ الى سنة ٥٩٥) وابريس (من سنة ٥٨٩ الى سنة ٥٦٩) عن تقوية عزائم ملوك يهوذا وصور وموآب بالدسائس والدراهم بل كانا فى بعض الاحيان يعدانهم بأنهما يعززان جانبهم بالقوة والاقتدار ولكنهما لم ينجحا فى منع سقوط أورشليم (سنة ٥٨٩) ونفى قسم من اليهود على أن صور دفعت جميع هجمات الكلدانيين مع محاصرتهم لها مدة ثلاث عشرة سنة واعترفت فينيقية كلها بسيادة الفرعون ابريس مدة من الزمان (فى حدود سنة ٥٧٣)

نعم ان أماسيس ما لبث ان فقد كل ما فتحه سلفه (في سنة ٥٦٨ تقريبا) ولكنه عرف كيف يحافظ على مملكته و يجعلها في مأمن من هجوم الاعداء وخلاصة القول ان نابوكودونوزور لم ينجح في توسيع نطاق سلطانه مثل ما اتصل اليه من قبله آشور أخي الدين أو آشوربانيبال مثلا وقد حالت بلاد مادي في الشمال ومصر في الجنوب الغربي دون امتداد دولته على أن هذه المملكة الضيقة تدل أحسن من الدول الاشورية على ما نعنيه نحن اليوم بدولة عظيمة فان ادارة الاحكام فيها كانت بحسب الطريقة التي اتبعها تغلاثفلاصر الثالث وسرجون قبل ذلك باقل من قرن ونصف أي ان شؤن الحكومة تكون مباشرة في يد بعض قواد الفاتح المنتصر وفضلا عن ذلك فان هذه الطريقة صارت عامة وواضحة في جميع انحاء الدولة أكثر مما في السابق نعم ان جماعة من الامراء الاخاذين كانوا لا يزالون في أراضي كاديا وكان كثير من المدائن أو القبائل حافظة لعائلاتها الملوكية ونظاماتها الدستورية ولكن أغلب البلدان المفتتحة كانت عمالات حقيقية تحتلها الجنود ويدير شؤنها احكام يرسلون اليها من بابل

٤ — أعمال نابوكودونوزور

بقي هذا الملك مشهورا في تاريخ الازمان القديمة ببناياته العظيمة بقدر ما ذاع صيته بحروبه وانتصاراته فان بابل كانت لاقت شدائد وأهوالا من الاشوريين في القرن الذي سقطت بعده نينوى وذلك لان سنحاريب أمر بنهبها وكذلك آشوربانيبال من بعده وذلك بصرف النظر

عن الحصار والسلب الجزئي اللذين قاستهما أثناء الفتن المستديمة فاستعمل نابوكودونوزور في ترميمها الاسارى العديدين الذين أسرهم في حروبه حتى جعلها من أفخر مدائن الدنيا بأسرها (شكل ١٩) فكان في وسط المدينة البرج الهائل ذو الطباق السبع المعروف باسم زيجورات المخصص للاله بعل وفوقه تمثال هذا الاله وهو من الذهب الابريز وارتفاعه أربعون قدما ويرتقي اليه الانسان على سلم يذهب في استدارة والتفاف



ش ١٩ (الرابية التي وراءها اطلال بابل ــ مأخوذ هذا المنظر من على شواطئ الفرات)

وقد اشتهر القصر الملوكي (الذي كمل تشييده في خمسين يوما على ما يقال) ببساتينه المعلقة اذ كانت نساء القصر يتنزهن فيه وهن سافرات الوجوه فلا تقع عليهن انظار الاجانب عنهن

وفي أثناء ذلك تم اصلاح الترع التي كانت تصل دجلة بالفرات وتأتي بمياههما الى وسط المدينة ورممت الجوابي (الحيضان والصهاريج الواسعة) التي كان ملوك العائلات القديمة يجرون اليها مياه الفيضان

السنوى ويخزنونها بها وبنيت القنطرة التى توصل بين نصفى المدينة الكائنين على ضفتى النهر واستعمل مهندسو ذلك الاوان كل مالديهم من الوسائل والوسائط لحفظ المدينة ووقايتها من هجمات العدو فأحاطوها بسور مزدوج جعلوا فيه مائة باب لكل واحد مصراعان من النحاس وكان من عظم سمك هذا السور انه يتيسر لعربتين أن تجريا متحاذيتين على قمته وقد عم التحسين النواحى المجاورة لبابل والمدائن القديمة بكلديا حتى لقد كان لها منه نصيب يذكر

ولما كان ازدياد الثروة وتوفر أسباب اليسار فى هذه البقعة من الارض مما يغرى بها الامم المجاورة لها ويجعل أنظارها تطمح اليها فضلا عن شدة الرهبة من الماديين ومن اطماعهم أنشأ نابوكودونوزور أمام بابل سورا عظيما وهو السور المادى المستند على سيپارا فسد به سدا مستكملا شبه البرزخ المتكون من دجلة والفرات عند اقترابهما وكان هذا الرجل لا يمل من العمل ولا يكل من توالى المشروعات حتى أصبح فى كلديا مثل رمسيس الثانى فى مصر أى بانى العمائر ومشيد الآثار بحيث لا يوجد حوالى بابل مكان لا يرى فيه الانسان اسمه أو لا يطلع به على ما يعرب عن نشاطه الفائق واجتهاده الغريب

٥ — نابوناهيد (من ٥٥٥ الى ٥٣٨)
وسقوط المملكة الكلدانية (فى سنة ٥٣٨)

على أن المملكة لم تدم بعده طويلا فجلس على سرير ملكه ثلاثة ملوك فى مدة سبع سنين (من سنة ٥٦٢ الى سنة ٥٥٥) ثم ذهبوا فريسة

الفتن التي حصلت في القصور وبهم انقرضت سلالته وقال الاهالى «لاشك ان هذا من عمل الله» لانهم دهشوا لما رأوه من حصول هذا الانحطاط السريع بعد ذلك الارتقاء والاقتدار اللذين ليس بعدهما ارتقاء واقتدار وقد جاء في رواياتهم ان بخت نصر في أواخر أيامه أصابه شيء من النبوة فصعد على سطح قصره وأنبأ بقرب خراب مملكته ويقول اليهود في رواياتهم انه سكر بما ناله من المجد وافتتن بما حصل عليه من الفخار حتى أداه الاعجاب بنفسه الى الظن بحلول الالوهية في جثمانه فسخطه الله عز وجل حيوانا من الحيوانات عاش ست سنين في حقول البرية يقتات من الحشائش كالبهائم السائمة ثم رجع الى شكله الاول وجلس على سرير الملك بالثاني

أما نابوناهيد الذي لبس التاج بعد انقراض العائلة الملوكية فلم يكن فيه شيء من خصال الابطال بل ولا من صفات الاجناد فكان ملكا كسولا محبا للدعة والسكون عاكفا على عبادة الآلهة بدلا من التفاته الى صيانة القلاع وتعبية الجيوش فحيثما وجد معبدا متخربا رممه أو أعاد بناءه من أوله الى آخره وكان يبحث في أساس هذه المعابد عن النقوش والكتابات التي دفنها بها الملوك المؤسسون لها وكان يفرح فرحا شديدا حينما يعثر فيها على اسم ملك قد حكم قبله بمئات أو بآلاف من السنين وقد هدده المادیون في أول حكمه ورأى اتساع سلطانه كورش وحاول أن يوقف امتداد هذا الاتساع بما عقده من المحالفات مع مصر وليديا ولكن سقطت ليديا في سنة ٥٤٦ وكان أمامه مهلة

بضع سنين كان يتيسر له في خلالها أن يستعد للمقاومة والدفاع ولكن كسله ونسيانه لآلهة بابل ومغالاته في عبادة آلهة المدائن الكلدانية الاخرى كل ذلك أحدث سخط رعاياه وغضب جنده عليه فلما قامت الحرب في سنة ٥٣٨ لم تثبت الا بضع أسابيع حتى وضعت أوزارها فان كورش عبر دجلة وهزم الكلدانيين ولما جاء الخبر بفوزه وانتصاره حصلت ثورة أتت على ما كان قد بقي لنابوناهيد من الوسائل والوسائط فباغت جوبرياس القائد الفارسي مدينة بابل واستولى عليها من غير حرب ولا قتال وأما نابوناهيد فقد سلمه أصحابه الى عدوه ومات بعد ذلك ببضعة أيام (سنة ٥٣٨)

فوقعت بذلك دولته كلها من غير مقاومة في يد الفرس وصار للامم المضروب عليها الجزية لكلديا من شوام وفينيقيين وأعراب أسياد غير الذين كانوا لهم ولم يهتم هؤلاء الاقوام بهذا التغيير وبما أنهم لم يكونوا قادرين على نوال حريتهم واستقلالهم فكان لا يعنيهم الحاكم الذي عليهم سواء كان هذا أو ذاك بل ظهر على بابل نفسها أنها رضيت بهذا الامر وأنها فرحت بسقوط ملكها الذي منها وبقيت بعد ذلك عاصمة من عواصم الدولة الفارسية

خلاصة ما تقدم

(١) كانت بلاد كلديا هي أول من ورث ملك بلاد أشور وقد قام حاكمها نابوبولاصر وجعل نفسه ملكا عليها بمساعدة الماديين عند موت آشور بانيبال سنة ٦٢٥ ثم هجم على نينوى أم كانت لها عليهم السيادة ولكن اغارة السكيثيين أنقذتها من الخراب بضع سنين فلم تسقط الا في سنة ٦٠٦ على يد الماديين والكلدانيين وقد تغالوا عليها

(٢) وبعد خراب نينوى رأى نابوبولاصر أن يطرد الفرعون نخاو الذي كان احتل الشام منذ قليل من الزمان (سنة ٦٠٨) فانتصر عليه ولده بخت نصر في كركميش ولما كان على أهبة الدخول الى مصر علم بوفاة أبيه فقفل راجعا الى بابل

(٣) وقد استدام الجلاد بين بخت نصر هذا وبين نخاو وابريس من ملوك العائلة الصاوية وأخرب مملكة يهوذا ومدينة أورشليم (سنة ٥٨٧) ولكنه أخفق سعيا أمام مدينة صور وخرجت من يده فينيقية في أواخر حكمه

(٤) وقد اشتهر هذا الملك بعمائره بقدر ما اشتهر بحروبه وجعل بابل أبهى وأبهج مدينة في المشرق وأحاطها بأسوار منيعة وشق في كلديا ترعا كثيرة زادت في خصوبة الارض

(٥) ثم أسرعت عائلته في الانقراض (من سنة ٥٦٣ الى سنة ٥٥٥) فلبس التاج بعدها نابوناهيد وكان من الملوك المتدينين وأكثر من العمائر وكان الاهالي لا يحبونه وقد حاول صد هجمات الفرس بتحالفه مع الليديين والمصريين عليهم ولكنه لما سقطت مملكة ليديا (سنة ٥٤٦) لم يفطن لاغتنام فرصة السنين التي أمهله فيها كورش ليحصن مملكته ويستعد للدفاع حتى انه لما شن الفرس الغارة عليه (سنة ٥٣٨) هزموه وأسروه فمات بعد ذلك ببضعة أيام وبقيت كلديا من ذلك الوقت عمالة من عمالات الدولة الفارسية

الباب الثالث عشر

الديانة الكلدانية

(١) الآلهة الاخاذيون فى كلديا (٢) البانثيون الكلدانى (٣) الشياطين والسحر (٤) آلهة أشور وذكر آشور وإشتر (٥) ميروداخ إله بابل (٦) بقاء العبادات الكلدانية مدة طويلة من الزمان

---

١ — الآلهة الإخاذيون

كانت كالديا شبيهة بمصر فى وجود الآلهة الاخاذيين بها فكان لكل إله منهم مدينته الملوكية يحكم فيها حكما مطلقا على الارض والسماء فكان ايع إله اريدو وبعل فى نيبور وسن فى أورو وشمش فى لارسام (لرسن) وميروداخ فى بابل وكان آشور إله بلاد أشور على العموم وانتشرت عبادة هذه الآلهة من مدينة الى أخرى بالسرعة حتى صارت عامة فى جميع الاقطار الكلدانية ولكن القوم لم يحيدوا عن ملاحظة كل إله مضافا الى أهل جهته وتخصيصه بها عند التوجه والعبادة فاذا قاموا بعبادة ميروداخ مثلا فى غير بابل فانما كانوا يوجهون عبادتهم اليه بعنوان انه إله بابل

٢ — البانثيون الكلدانى

ان اختلاط الامم المختلفة الاجناس المتوطنة على ضفاف دجلة والفرات قد أحدث اختلاطا فى الاديان بحيث لا يسهل على الانسان

ان يتعرف أصول كل منهما أو أن يوفق بينها وبين بعضها فان الآثار القديمة التي عثرنا عليها مهما كانت بعيدة العهد ترينا آلهة الأمم المختلفة متحدة وممتزجة ببعضها كما حصل مثل ذلك في الامم أنفسهم فكانوا كالمرتبطين مع بعضهم بمعاهدة إلهية وكان لكل واحد منهم وظيفته الخاصة به ومقامه المعين له تعيينا واضحا ظاهرا

وفوق هذا الترتيب التدريجي مجلس مؤلف من ثلاثة آلهة آنو وبعل وايع فالاول هو السماء وهو «القديم وأبو الآلهة وملك الدنيا والليل ورب الظلمات» وبعل خالق الدنيا وهو «رب جميع البقاع وملك كل الارواح» وأما ايع فهو «رب العلوم والفخار والحياة» ولكل واحد منهم إلهة تزوج بها تعاونه في انجاز الخلق والايجاد وهن أنث وبعليت ودمكينا وليست وظائفهم محدودة تحديدا معينا محصورا بحيث لا يكون لاحدهم فرصة في الاعتداء على ملك الآخر بل كثيرا ما اغتصب بعل سلطة انو كما تعدى ايع على سلطة بعل

وتحت هؤلاء الآلهة القديرين الذين يحيط بهم الابهام والاختلاط الهة آخرون اعرق منهم في الحياة والغرابة وهم سين الذي هو القمر وشمش الذي هو الشمس ورامانو الذي هو الجو وكان الكلدانيون يقدمون الاله القمر على الاله الشمس وكانوا يعتبرون الاله سين «الرئيس والقادر والمتلألئ وإله الثلاثين يوما التي يتركب منها الشهر» وأما رامانو فكان يرسل العواصف والزوابع والغرق ويستل الصاعقة ذات الاربعة أطراف كالصارم البتار وأما الآلهة الاخرى فكان

مقرها السيارات الخمس أعني ان اذار في زحل ومردوك في المشترى ونرجال في المريخ واشتر في الزُّهَرة ونيبو في عطارد وخلاصة القول أن الكلدانيين انما كانوا يعبدون الكواكب والسماء وهذه هي أكبر آلهتهم

٣ ــ الشياطين والسحر

وبجانب هؤلاء الآلهة الذي كان القوم كلهم يحترمونهم ويعظمونهم كانوا يقولون بوجود الجن وأنهم عالم من الارواح الثانوية منهم الاخيار ومنهم الاشرار وكلهم لا يراهم الانسان ولكنهم قادرون على افادته أو أذيته كما يشاؤون وأنهم يدخلون في كل مكان ويتشكلون بأشكال ممسوخة ترى فيها أعضاء الانسان ممتزجة باعضاء الحيوان وكان بعضهم يدخل في العائلات فيزرع فيها الشقاق والبغضاء وبعضهم يحل في الاجسام ويبث فيها الامراض والاسقام فكانت الاوبئة والحيات والخيالات والازوار والعفاريت من هذا النوع المزعج أصنافا متنوعة

ولما كان الانسان على الدوام عرضة لأذاهم فكان أشبه بسائح ضل الطريق في بلاد مجهولة فيما بين أقوام متوحشين فكان يلزمه أن يتخذ لنفسه أولياء من بين الآلهة والارواح ليكون في مأمن من كيدهم وأن يتخذ له أسلحة من التعاويذ والتمائم للمهاجمة أو المدافعة وبالجملة أن يلتجئ في ذلك الى تعلم السحر فلذلك كان يحفظ عن ظهر قلبه تعاويذ مخصوصة ويحمل أحجبة وتمائم تقيه منهم وكان الشخص الذى

يحمل عمة لا يمكن مسه بشئ أو الايقاع به حتى من الآلهة أنفسهم لان الطلسم كان «حدا لا ينزع ولا تنفذ منه الآلهة وحدا للسماء والارض لا يمكن نقله من مكان ولم يستأصله أى إله من الآلهة بل هو حاجز ثابت للوقاية من الشر والسوء ولا ينقد مفعوله بل تقاوم به الشرور وتدفع به الاسواء»

ولذلك كان السحرة كثيرين فى كالديا وكان بعضهم مترفقين بالانسان ميالين اليه فكانوا يداوونه من الامراض ويحمونه من الجان الذين يتهددونه وكان البعض الآخر على العكس فيبيع السموم ويلقى السحر ويستدعى الارواح الشريرة بدعوات ورقيات معلومة فكانت حياة الكلدانى مشوبة بالاكدار على الدوام لانه كان لا يفارقه الفزع من الجان العادين والسحرة المشائيم وكانت حياته تنقضى هكذا فى مجالدتهم ومقاومة تأثيرهم بكل ما يمكن تصوره من الوسائل

٤ — الآلهة الاشوريون وذكر الالهين آشور واشتر

لم تكن ديانة الاشوريين فى مبدا الامر الاديانة موضعية خاصة ببلادهم وكان الاله آشور هو الاله الاخاذى لها كما كان مير وداخ إلها إخاذيا فى بابل وكما ان رجحان طيبة على سائر المدن المصرية كان مرجحا لآمون إلهها الاخاذى على سائر الآلهة بوادى النيل ومسوّدا له عليها فكذلك كان اتساع بلاد أشور واستمرارها فى النمو والارتقاء مسوّدين لالهها آشور على سائر آلهة الكلدان مدة من الزمان فلم يكن الاله آشور مساويا لبقية الآلهة بل هو ربهم ومليكهم ولا يجسر إله منهم

أن ينازعه فى ذلك فباسمه يقاتل الملوك ويحرقون المدائن ويهدمون المعابد ويقتلون الأمم أو يستعبدونهم ولم يكن خاصا بمدينة بابل فلو انتقل كرسى المملكة من مدينة الى أخرى لانتقل معها ولذلك بارح الآشور الى كلخ ومنها الى نينوى أو غيرها وهو هو الاله الاكبر وليس ميروداخ ونيبو وايع وبعل آلهة كلديا القدماء الا عبيده الخاضعين الذليلين يسجدون له كما ان الامم التى تعبدهم تخضع وتخنع لمدينة الآشور ولبلاد أشور

وليس له زوجة أو أولاد يشاركونه فى ملك السماء وغاية ما يفعل انه يسمح لامرأة اسمها اشستر بالحضور بجانبه وهى امرأة حرب وقتال تشابهه فى القسوة والجفوة ولو أن دولة الاشوريين كانت بقيت واستمرت لما كان يبعد أن ينتهى الامر بآشور الى ابطال الآلهة الاخرى والانفراد بالالوهية دون سواه وكما ان سقوط طيبة استتبع سقوط سيادة آمون فكذلك سلطان آشور تلاشى بخراب نينوى

٥ — ميروداخ إله بابل

كان ميروداخ يمكنه أن يرث سلطان الاشور ونفوذه فى نفس الوقت الذى أخذت فيه بابل تركة نينوى وكان هو سيد (بعلو) المدينة وكان يعرف بعنوان بعلو (بعلوس أو بعل) كما كان يعرف باسمه الحقيق الذى هو ميروداخ من غير فرق وقد صار فى أيام نابو بولاصر ونبوخذنصر أعظم آلهة الكلدانيين شوكة واقتدارا ثم لما جاء نابوناهيد حاول أن يجعله الاله الاكبر والاله الوحيد كما كان الآشور فى بلاد الاشوريين

فأخذ الآلهة الاخاذين من مدائنهم ونقلهم الى بابل وجعلهم حول ميروداخ كالاتباع والاشياع ولكنه أخفق في مسعاه فانه فضلا عن اثارته لسخط المدائن التي أذل آلهتها فقد جعل بابل نفسها تتذمر منه وتنقم عليه فان كهنة ميروداخ نظروا بعين الكراهة الى هؤلاء الآلهة الدخيلين الذين جاؤا وشاركوا إلههم في التحيات والتعظيمات التي كانت مخصصة له وحده الى ذلك العهد فردوا الامة وحرضوها على عصيان نابوناهيد وترتب على سخطهم تسهيل السبيل أمام الفرس في الفوز والانتصار فانهم رأوا في كورش منقذا أرسله لهم ميروداخ ليعيد العبادة الى ما كانت عليه من الطهارة فاستقدموه باشتياق واشتهاء وأيدوه وعضدوه بعد نصرته ولكنهم لم ينالوا مبتغاهم من جعل إلههم متفردا بالعبادة بين جميع الكلدانيين بعد أن كان معبودا في مدينة واحدة

٦ — بقاء العبادات الكلدانية مدة طويلة من الزمان

قد بقيت الديانة الكلدانية مدة طويلة بعد خراب المملكة بل انها بقيت الى أن جاء الفتح الاسلامي وقد اختلطت بخرافات وأفعال بربرية وحشية ومازالت المحاريب (المعابد) القديمة التي بالفرات الاسفل وأخصها أوروك (أوركيو) الى الاجيال الاولى من التاريخ المسيحي حافظة لشيء من الاشتهار بالعلوم والمعارف فقد تخرج بمدارسها أشهر أولئك الكلدانيين الذين كانوا يذهبون الى المملكة الرومانية ويمارسون فيها صناعة التنجيم والسحر والكهانة (الاخبار بالمغيبات)

ثم مالبثت هذه الخرافات القديمة أن تلاشت شيأ فشيأ أمام التعاليم اليهودية والنصرانية والفارسية (أى المجوسية) حتى اذا جاء الفتح الاسلامى انمحى أثر مابقى منها بالمرة ولم يبق الابعض فرق انقرضت الواحدة بعد الاخرى من القرن السادس الى القرن الرابع عشر للميلاد

خلاصة ماتقدم

(١) كان للكلدانيين مثل مصر آلهة اخاذيون فى أوّل الامر وهم ايع فى اريدو وبعل فى نيبور وميروداخ فى بابل وآشور فى بلاد أشور

(٢) ثم اتحد هؤلاء الآلهة ببعضهم فتشكل شبه معاهدة الهية على رأسها مجلس مؤلف من ثلاثة أعضاء وهم أنو الذى هو الشمس وبعل خالق العالم وايع رب العلوم والحياة وتحتهم آلهة أقل منهم فى الابهام وهم سين أى القمر وشمش أى الشمس وآلهة السيارات مثل نيبور (عطارد) واشتر (الزهرة) واذار (زحل) الخ

(٣) وبجانب هذه الاشخاص العليا توجد آلاف من الارواح الثانوية بين طيب وخبيث تؤذى الانسان أو تقيه وتحميه وله عليها سلطان مطلق بواسطة تمائم وتعاويذ سحرية فلذلك كان للسحرة العديدين فى كلدانا تأثير بالخير أو بالشر بحسب طبيعة الجان والارواح التى يتعلمون تسخيرها لهم

(٤) كان الاله آشور اخاذيا فى أوّل الامر بمدينة الآشور ثم صار الها وطنيا لجميع بلاد أشور ثم كبر وصار ربا لسائر الآلهة بمقدار ماتسع نطاق المملكة الآشورية وازدادت أملاكها ثم سقط فى زوايا النسيان على اثر خراب نينوى

(٥) أما ميروداخ بعلو بابل أى ربها المعروف أيضا لهذا السبب باسم بعل فقد كاد فى عهد نابوناهيد أن يحصل على ما كان للاله آشور من السيادة والسلطان ولكن سيطرته التى كانت قصيرة الاجل زالت بسقوط بابل

(٦) وقد استدامت الديانة الكلدانية ممسوخة عن أصلها الى مابعد الفتح الاسلامى بزمان

الباب الرابع عشر

الآثار والفنون الصناعية

(١) لماذا استعمل الكلدانيون الآجر خصوصا (٢) أقدم الآثار فى كلديا (٣) آثار أشور (٤) النقش الكلدانى (٥) النقش الاشورى (٦) الفنون الصناعية

١ — لماذا استعمل الكلدانيون الآجر خصوصا

ان بلاد كلديا مكوّنة من طمى الانهار ولذلك فليس بها أحجار جيرية كثيفة متماسكة ولا رخام ولا صوان ولا حجر البركان ولا شئ من الاحجار الصلبة التى استفاد منها المصريون أيما استفادة ولذلك آل الامر بالمهندسين من الكلدانيين الى أن يأخذوا من الارض نفسها المواد التى يبتنون منها العمائر والآثار فاستعملوا اللبن نيئا أو مطبوخا أو مطليا بالمينا وآجرهم عريض جدا ويكتبون فى العادة على أحد وجوهه السطحية اسم الملك الذى صنعت فى أيامه

٢ — أقدم الآثار فى كلديا

ان أقدم الآثار يوجد فى كلديا السفلى فى خرائب أورولث ولارسام واريدو وأورو ولاجاش وهى هياكل وقصور شادها ملوك كانوا معاصرين للفراعنة الذين أقاموا الاهرام فى مصر وكلها قائمة على أساس من اللبن النيئ وقد يبلغ طول ارتفاع الاساس عشرين مترا بحيث يتكوّن منه شبه تل صناعى يكون البناء عليه فى مأمن

من مياه الفيضان وكان الوصول الى السطح بواسطة من اتقان خفيف يمكن للخيول أو العربات أن تسير عليه والسلالم كأنها منقورة فى هذا الاساس وأما القصر نفسه فكان أشبه شيء بكتلة مربعة أو مستطيلة وله جدران عالية عارية ليس فيها من النوافذ والفتحات سوى باب واحد أو أكثر وكانت هذه الابواب محلاة بفرض طويلة منشورية الشكل وداخل القصور يضل فيه الانسان لكثرة الفناآت الواسعة والحجرات الصغيرة ذات الحيطان السميكة التي يزيد طولها على عرضها وتعلوها القباب ينفذ اليها النور من كوة صغيرة فى أعلاها وكانت عادتهم أن يضعوا فى أحد الاركان البرج الهرمى (زجورات) وهو العنصر الذى تتميز به العمارات الكلدانية وكانت الزجورات لها سبع طبقات لكل طبقة لون خاص وإله معين وكانت الآلهة السبعة التي للطبقات السبع هى الشمس والقمر والسيارات الخمسة وهذه الطبقات هى عبارة عن سبعة مكعبات بعضها فوق بعض وفوق أعلاها فى الغالب هيكل صغير يعبد فيه الاله الوطنى

أما الزخارف الداخلية فكانت على جانب عظيم من البساطة فالحيطان مطلية بطبقة من ملاط مركب من كلس ورخام أو شيد (١) ممزوج بالجير بحيث لا يظهر الآجر تحتها أو عليها رسوم هندسية أو صور آدمية وحيوانية وقد يستعيضون عن هذا الطلاء السريع العطب

(١) الشيد بالكسر هو ما يطلى به الحائط من الجص ونحوه ويقابله فى الفرنساوية كلمة (Stuc)

بآجر أبقى يتخذونه من الآجر الذى عليه المينا البيضاء أو السوداء أو الصفراء أو الحمراء وكان فى اختلاط الالوان زينة مقبولة تسر الناظرين وتصبر على الدهر فان أقدم هذا الآجر وأبعده عهدا هو كأقربه عصرا وأحدثه وجودا بحيث لا تزال فيه ألوان زاهية باهية ورونق شائق رائق يأخذ بمجامع القلوب ويقضى بالعجب العجاب (شكل ٢٠)



ش ٢٠ (تصوير مركب من حجارة محلاة بالمينا قد وجده الباحثون فى أطلال خرزاباد وهو من مصنوعات القرن الثامن ق م)

٣ — آثار آشور

قد كمل الاشوريون ما سنه الكلدانيون فى فن العمارة والبناء ولم يعدلوا فيه شيأ يذكر والآجر هو المادة الاولى فى بناياتهم ولكن الحجارة الكلسية التى وجدوها بكثرة فى جبال كردستان مكنتهم فى كثير من الاحيان من طلاء عمائرهم بطلاء من الحجر وكانوا يضعون فى قاعدة التراب المركوم مداميك من الدبش الصغير بعناية وترتيب محكم

وفى الداخل كانوا يؤثرون استعمال صحائف رقيقة لتبليط الغرف أو لطلاء الجدران وان ترتيب المعابد والقصور بوجه العموم على الكيفية التى عرفناها فى الآشور كلخ ونينوى ودورشاروكين (خرزاباد) هو نفس الترتيب المتبع فى المعابد والقصور الكلدانية أى انك ترى فناآت واسعة وغرفا ودهاليز مبنية بالعقد يجيئها الضياء من أعلاها وأبراجا ذات طبقات بعضها فوق بعض أما الزخرفة فى الداخل والخارج فالظاهر أنها كانت متوفرة أكثر بكثير مما فى كلديا فكان على الابواب أثوارها رؤس بشرية وتماثيل بالغة فى الفخامة والضخامة تمثل البطل جيلجاميس الذى افترس الاسد وفتك به وأسفل الحيطان فى بعض الاحيان يكون مزدانا بسطوح مربعة وفتحات الابواب محلاة بسطور من الآجر المموه بالمينا وهذه السطور ترافق قنطرة الفتحات التى تعلوها صور ورموز دينية وقد وجد على مدخل باب الحريم فى أحد قصور خرزاباد نخلتان من البرونز المذهب وأما النوافذ (الشبابيك) القليلة التى كانت فى بعض الادوار العليا من البرج فكانت مزدانة بأعمدة صغيرة لها تيجان تحاكى الطرز الايونى فى بلاد الاغارقة ولها درابزينات من الخشب المشغول وفى قاعات الاستقبال كانت الحيطان مطلية الى منتصفها بنقوش بارزة تمثل مواقع الملك المؤسس للقصر ومصايده وطرائده

٤ — النقش الكلدانى

ان المصنوعات التى تركها النقاشو الكلدانيين تقل كثيرا عما أبقاه نقاشو المصريين وان أغلب التماثيل الكلدانية التى عثرنا عليها الى هذا

العهد وجدت في لاجاش وهي محفوظة بمتحف اللوفر وكلها من حجر الديوريت الازرق أو الاسود وقد ضاعت رؤوسها ولكنه يوجد في المتحف المذكور نحو ستة رؤوس منفصلة قد ضاعت أجسادها ولهذه التماثيل هيئة ثقيلة وشكل جاف (شكل ٢١) وذلك لعرض الذقن وتربعها وكبر الخدود وغلظها وسمك الشفاه وتفلطح الانف ونجل الاعين تعلوها حواجب كثيفة مقرونة



ش ٢١ (رأس تمثال من لاجاش وهو بمتحف اللوفر)

أما الاجسام فبعضها على هيئة الواقف وبعضها على هيئة الجالس على دكة أو على كرسي لا اسناد له من جهة الظهر (شكل ٢٢) والملبوس عبارة عن شال طويل يشتمل به صاحبه فيمر من تحت الذراع الايمن الى فوق الكتف الايسر ثم يرخى باتساع خفيف لحد كعب التمثال وتثنيات القماش مبينة بالاختصار بكيفية متفق عليها أما التماثيل العارية فهي مشكلة بثقل وجفاء ولكنها تدهش الناظر اليها بما فيها من الصحة الدقيقة والاهتمام باظهار جميع التفصيلات وقد فاز الصانع باظهار كل ما في الجسد مع صلابة الحجر وصلادته حتى انه أظهر انحناء الاظافر وتثنيات الجلد على ان النسبة التي في الجسم البشري ليست على الدوام مرعية محفوظة في كل تمثال فان الاكتاف والصدور هي اعرض مما ينبغي بالنسبة لارتفاع الجذع وطول السيقان وفيما خلا هذا الفرق

فان تماثيل لاجاش هي صور حقيقية صادقة ترينا الاشخاص المقصودة كأنها هي بالتمام وكلها تمثل انسا المالك جوديا والملوك الذين من عائلته كل واحد بهيئته الشخصية ولا ريب عندي في ان الاهتمام في كلديا بتمثيل الصورة الحقيقية هو مرتبط كما في مصر باموردينية فكما ان التمثال المصري هو عماد تستند عليه الروح وجسد يضع فيه المصوّر جزأ من قرين الشخص الممثّل فكذلك كان حال التمثال عند الكلدان



ش ٢٢ (تمثال بلا رأس من جوديا محفوظ بمتحف اللوفر)

ولكي لا تكون هذه الصورة التي للقرين واقعة تحت المقاساة والمعاناة كان اللازم جعل الجسد الذي من حجر يحاكي الجسد البشري تمام المحاكاة بحيث يكون كأنه هو اياه

٥ — النقش الاشوري

ليس النقش الاشوري عبارة عن استمرار وتكميل للنقش الكلداني فان التماثيل الاشورية قليلة لان الرخام وحجر الكلس وحجر الجبس

الذى استعمله الأشوريون فى تماثيلهم لم يقو على مقاومة الدهر مثل دوريت الكلدانيين وأشهر تماثيلهم هو تمثال آشور نازرهابال (شكل ٢٣) وهو مصنوع صناعة عالية ثابتة ورأسه واضح ومنقوش نقشا محكما يكاد ينطق امام الرائى بحيث لا نرى مثله فى نقوش الكلدانيين ولكنه اسوء الحظ قد تراكمت عليه غدائر الشعر الجعد فى الرأس والذقن اما الجسم فطويل متناسب تناسبا محكما وفى ملامحه العظمة مع ما هو ملتف به من القباء والشال المخمل اللذين يتدثر بهما الجسد من الرقبة الى القدم ولا شك ان الصانع كان ذا مهارة وحذق حتى توصل الى اجتناب الدمامة وقبح المنظر مع مثل هذا الملبس وأما النقوش البارزة فهى كثيرة بخلاف التماثيل



ش ٢٣ (تمثال آشور نازرهابال بالمتحف البريطانى)

وهى مصنوعة بصناعة تشم منها رائحة الحرية والشمم وقد تتصل بوسائط بسيطة وعمل غير كامل الى احداث أعمال جليلة ومنظورها مختصر جدا وليس التناسب بين الاشياء مراعى فيها أو بعبارة أولى وأخرى هى

محسوبة مقدرة بحسب أهمية الاشياء الممثلة فى الهيئة المراد تصويرها فان الرجال على الدوام بالغين فى الطول مبلغ الاشجار وترى المشاة يهجمون على قلاع وحصون أصغر منهم فى القامة والارتفاع ومع هذه العيوب فان من نظر الى النقوش البارزة الاشورية رأى فيها الحركة والحياة فانك ترى صورا تتضارب ويقتل بعضها بعضا وترى فيها الصيد حقيقة وأغلب الاحوال المصورة فيها مركبة تركيبا لطيفا بحيث يتيسر لاحد الصناع فى أيامنا هذه أن يمثلها مع اصلاح قليل على الكيفية المصطلح عليها فى هذا الزمان ويجعل منها رسوما حديثة عصرية وفضلا عن ذلك فهى تمتاز بموافقتها للحقيقة حتى فى الجزئيات التى لا طائل تحتها وبكونها تمثل لنا الحياة الاشورية بالتفصيل فهى آثار نفيسة للمؤرخ كما انها مصنوعات فنية ذات قيمة حقيقية

٦ — الفنون الصناعية

عندنا قليل من آثار الفنون الثانوية مثل صناعة الزجاج والنقش على الخشب والوشى والتدبيج والخزف وكان الاشوريون ولاسيما الكلدانيون بارعين فى تطريز منسوجاتهم باشكال وصور مشابهة لما نراه الآن على حيطان قصورهم ولكن الدهر قد ذهب بهذه النقوش التى كانوا يسمونها نقوشا «من شغل الابرة» وكان اليونانيون والرومانيون يعجبون بها اعجابا كثيرا فاق الحد

وقد بقيت لنا بقايا كثيرة من صناعتهم فى المعادن وكثير من هذه البقايا تشهد بجزيل مهارتهم ومنتهى براعتهم فان سنجات موازينهم

التي من البرونز وعلى هيئة أسد مصنوعة صناعة عالية وافية وخصوصا الرأس فانه مشابه للحقيقة تمام المشابهة (شكل ٢٤) وتماثيل الآلهة والتمائم والسنادات البرونزية التي تزدان بها الكراسي والاسرة هي من أحاسن صناعة النقش الدقيق المتقن على المعادن وكانت أبواب قصر شلمناصر في بالوات من الخشب مزخرفة بقطع من البرونز ارتفاعها ٢٦ سنتيمترا مشغولة بالمطارق وممثلة لغزوات الملك وأحسن قسم منها محفوظ اليوم في المتحف البريطاني وفيها نفس الاغراض التي ترى على أحجار الكاس أعني وقائع حربية ومحاصرة بعض المدائن ومطاردة العدو في بلاد ذات غابات وجبال ثم عبور الانهار نعم ان المقادير مصغرة جدا ولكن الصناعة واحدة تدل على تمام المهارة في طرق المعادن



ش ٢٤ (أسد من البرونز بمتحف اللوفر)

وهذا الاتقان يشاهد أيضا في الاشياء القليلة المصنوعة من سن الفيل التي لم تعبث بها يد الضياع وخصوصا في الاسطوانات العديدة أو الاختام التي من حجر صلب من أنواع مختلفة وهي توجد بكثرة في خرائب المدائن أما النقش الصناعي أي النقش الدقيق فكان بالغا في الاتقان مبلغ النقش في الاشياء الجسيمة بل كانت صناعة الآشوريين والكلدانيين ذات مقام جليل في العالم القديم يحاكي ما كان لصناعة المصريين

خلاصة ما تقدم

(١) لما كانت كلديا مكونة من طمى الانهار فلذلك ليس فيها شئ من أحجار البناء وهذا ما حمل أهلها على استعمال اللبن النئ أو المطبوخ فى مبانيهم

(٢) ان أقدم الآثار فى كلديا السفلى أى فى مدينة أورو ولارسام وأوروك ولاجاش هى عبارة عن معابد وقصور مشيدة على أساس من اللبن النئ ويتوصل اليها بسطوح مائلة أو سلالم عرضية ويشرف عليها فى العادة برج هرمى ذو أدوار يسمونه زجورات وهذا البرج الهرمى هو أهم ما تمتاز به العمارة الكلدانية فكانت هذه القصور والمعابد مزخرفة فى الداخل والخارج برسوم على بلاط أو بطوب مطلى بالبنا

(٣) العمارة الآشورية هى نفس العمارة الكلدانية وكانت قصور نينوى وغيرها من عواصم أشور مطلية فى الغالب ببلاط طويل من الاحجار المنقوشة أو المرسومة

(٤) وقد بقى لنا قليل من آثار النقش الكلدانى القديم وأقدمها وأجملها قد عثر عليه الموسيو دوسارزك فى خرائب تللو وهى محفوظة فى متحف اللوفر وهى عبارة عن تماثيل جوديا وملوك لاجاش الذين من عائلته

(٥) أما النقش الآشورى فما هو تتميم وتكميل للنقش الكلدانى وليس لدينا الا قليل من التماثيل أحسنها تمثال آشورنازرهابال والنقوش البارزة كثيرة وهى تصور الحركة والحياة أحسن تصوير وعلى أكمل منوال

(٦) ولم يبق شئ من التطريز والتدبيج عند الكلدانيين وهما مشهوران جدا عند السلف وان فن طرق المعادن هو الذى نقدر أن نحكم عليه حكما صادقا من دون جميع الفنون الثانوية وذلك بواسطة الاسد الجميل المحفوظ فى اللوفر والنقوش البارزة على بعض قطع البرنز الصادرة من بالوغات

الباب الخامس عشر

الاستكشافات العصرية

(١) مبادئ الكتابة المسمارية (٢) فنون الادب عند الكلدانيين (٣) فك الكتابة المسمارية الفارسية (٤) فك الكتابة المسمارية الآشورية والكلدانية (٥) نصيب فرنسا في انماء وترقية الابحاث المختصة بعلم الآثار الآشورية

١ — مبادئ الكتابة المسمارية

الظاهر ان الكتابة الآشورية كانت في أول أمرها هيروغليفية محضة فكانت كل علامة فيها هي صورة الشيء المراد تمثيله أو صورة الشيء المادي الذي له أقوى مشابهة بالفكر المطلوب التعبير عنه مثال ذلك انهم كانوا يرسمون نجمة ذات ثمانية أطراف للتعبير عن الاله وكانوا يرسمون النحلة للدلالة على الملك ثم فسدت هاتان العلامتان بسبب السرعة في رسمهما وتمثيلهما فصارت النجمة ✳ ثم ⊢ وصارت النحلة ◇ ثم ▷ ثم ⊨ وهذه الحروف المنقوشة بمنقاش على الاحجار أو بنصل معدني على خزف أو فخار تسمى في أيامنا هذه بالحروف المسمارية أو الاسفينية لدخول هيئة المسمار ⊢ أو الاسفين في العلامات التي تتألف منها

ومعظم هذه الحروف مقطعية تدل على معنى مستقل بالمفهومية أي ان الكاتب يقدر أن يؤدي بها على حسب ارادته مقطعا واحدا

معينا بامتزاجه بمقاطع أخرى تتركب الكلمة أو كلمة كاملة لا يكون التلفظ بها في العادة مشابها للتلفظ بالمقطع فكان القارئ يبحث بنفسه بين المعاني المتنوعة التي تدل عليها العلامة الواحدة و يختار ما يراه منها أوفق للمعنى وأنسب بسياق الكلام الذي هو آخذ في فكه وقراءته فكان عرضة للخطأ في بعض الاحيان ولاجل منع هذا المحذور كان ينبغي له أن يراجع كتاب تهجئة قد دونت فيه معاني كل علامة وطرق قراءتها تدوينا محفوفا بالعناية والالتفات قال المحقق لونورمان (١) «ان نصف ما وصل الينا من آثار الكتابة المسمارية هو بمثابة كتاب تعريف وارشاد نقدر على استخدامه في فك النصف الآخر وانا نستشيره ونرجع اليه ونعول عليه كما كان يفعل تلامذة أشور القديمة منذ ألفي عام وخمسمائة عام وذلك بالضبط والتمام»

٣ — فن الادب عند الكلدانيين

وقد انتشرت هذه الطريقة الكتابية مع ما فيها من عدم الملائمة انتشارا سريعا فيما بين الامم القاطنة بحوض الفرات وكانت متبعة منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد عند عشائر الشام وكان ملوكهم يكاتبون بها فراعنة مصر في الامور الرسمية وفوق استعمالهم لها في سائر اللغات السامية كانوا يستعملونها أيضا في كتابة بعض اللهجات الاجنبية مثل لهجة العيلاميين وقسم من الحيثي منذ الاحقاب الخوالي ولغات أرمينية وكبدوكية منذ القرن الثامن قبل الميلاد

(١) في كتابه على التلفظ بحروف التهجي الفينيقية جزء أول صحيفة ٢٤٨

فلما ظهر الماديون والفرس فى أفق السياسة اتخذوها من الكلدانيين وجعلوها أبسط مما عندهم ثم وفقوها على احتياجاتهم وليس لدينا الى الآن سوى قليل من الكتابات الباقية من هذه الامم الاجنبية ومعظم ما عثرنا عليه مما يتعلق بالفنون الادبية المكتوبة بالقلم المسمارى انما هو من الكلدانيين والآشوريين وكان فى المعابد الكبيرة بكل مدينة من المدائن مكتبة مشحونة بالكتب المصنفة فى أوقات مختلفة وقد استنسخها ملوك نينوى وخصوصا اشور بانيبال وحفظوا صورها هذه فى قصورهم وبعض هذه الكتب التى أو راقها من الطين المحروق (الآجر المطبوخ) تتضمن تواريخ هذه البلاد وبعضها يحتوى على نقول طويلة مأخوذة من تواريخ سنوية ليس لها وجود الآن وفى غيرها أسماء ملوك أو آلهة ومنها ما هو خاص بأمور وأعمال رسمية مختلفة الانواع كمخاطبات (افادات) وتقارير من القواد الى الملوك وتنبيهات على الاهالى ومعظم هذه الكتب يبحث فى الديانة والعلوم فهى أناشيد للآلهة المتنوعين ومزامير وتسابيح وقطع من الاوراد ورقيات سحرية لاستحضار الارواح أو لشفاء الامراض ومنها كتب كثيرة مؤلفة فى علم التنجيم والفال وتعبير الرؤيا والفلك الحقيقى والرياضيات ولكن البقايا التى بقيت من هذه المصنفات ليست ترجمتها وتفسيرها بالشئ السهل المستطاع على الدوام وقد وجد الباحثون آلافا وآلافا من عقود الاعارة والاجارة والبيع والشراء والزواج والفرائض (تقسيم الميراث) بحيث يتيسر لنا ان نقف منها على حالة القوانين والشرائع فى كلديا وأشور

ثم الكتب المصنفة في التهجي وفي القواعد النحوية التي أشرت اليها سابقا تكاد تكون وحدها نصف ما وصلنا اليه من فنون الادب عند الأشوريين والكلدانيين

واعلم ان هذه الآثار الادبية التي تكلمنا عنها لها فوائد جمة ومزايا متنوعة قد يصعب الوقوف عليها في كثير من الاحيان فان التصورات التي تضمنتها والافكار التي حوتها وطرق التعبير عن هذه التصورات وهذه الافكار هي بعيدة بمراحل عما هو متعارف بيننا وشائع عندنا بحيث انّا لانصل دواما الى تأديتها أو الوقوف على كل ما فيها ولكننا نرى في عدد هذه الآثار الادبية ومقدارها دليلا كافيا على ان حركة العقول والبحث وراء الجمال قد امتدا وتقدما على شواطئ دجله والفرات بمثل ما ترقيا على ضفاف النيل بهمة تامة ونشاط زائد كما حصل عند الامم القديمة المتمدنة

٣ — فن الكتابة المسمارية الفارسية

دخلت الهجاية الارامية المشتقة من الفينيقية منذ القرن السابع قبل الميلاد في بلاد أشور وكلديا واستعملت في حاجات الحياة الاعتيادية ومع ذلك فان استعمال الحروف المسمارية قد استمر زمانا طويلا يعادل الزمان الذي استمر فيه الهيروغليفي تقريبا فقد وصل الينا كثير من العقود المحررة في أواخر القرن الاول للميلاد أو أوائل القرن الثاني منه وبعد ذلك جاءت الحروف السريانية ومشتقاتها والحروف البهلوية ثم شاعت الحروف العربية وحلت محل حروف التهجي القديمة ثم أرخي

على الحروف المسمارية ذيل النسيان كما دخلت الحروف المصرية في خبر كان

وما اتجهت نحوها رغبات الاوروباويين وتاقت اليها نفوسهم الا في النصف الثاني من المائة الرابعة عشرة بعد الميلاد فان الاسبانيولي جارسياس دوسيلفا والروماني بيترودلا فاللي (بالياء الممالة) كانا ممن رأيا النقوش بالحروف المسمارية التي تزدان بها قصور برسوبوليس [1] وفي سنة ١٦٧٤ نشر الفرنساوي شاردني بضعة سطور منها ثم جاء الالماني كيمفر في سنة ١٧١٢ وخصوصا الدانيمركي نيبهر في سنة ١٧٦٥ فنشر النسخة منها مصححة بالضبط وقد تيسر للعلماء بواسطة هذه النسخ أن يتعرفوا فيها ثلاثة أنواع من حروف التهجي يقابل كل نوع منها لغة مخصوصة على أن فك هذه الخطوط لم يتم ابتداؤه الا في أوائل القرن الحاضر

ففي ٤ سبتمبر سنة ١٨٠٣ ألقى (جورج فريدريك جروتفند) خطابة على الجمعية العلمية في جوتنجن أوضح فيها المبادئ التي ينبغي التعويل عليها في فك هذه الخطوط ووجه شكيمة البحث الى أبسط الطرق وأسهلها وتصور أنها تحتوي على لغة فارس القديمة فاجتهد في أن يتعرف في خلالها أسماء وألقاب ملوك فارس مثل كورش وداريوس واكسرسيس فنجح في سعيه وعين مدلول كثير من العلامات ثم عاود اعماله رجلان آخران في وقت واحد وهما لاسن في ألمانيا

(١) تسمى منارا الآن واطلالها قائمة حول مدينة اصطخر

وأوجين برنوف فى فرنسا فتوصلا فى سنة ١٨٣٦ الى اتمام فك الكتابات الفارسية التى كان فى أوروبا نسخ كثيرة منها وبعد ذلك ببضعة سنين أرسل هنرى راولنسن من بلاد فارس نفسها ترجمة النقوش الطويلة الموجودة فى بهستون التى حكى داريوس فيها تاريخ فتوحاته (وكان ذلك فيما بين سنتى ١٨٤٦ و ١٨٤٩)

٤ — فك الكتابة المسمارية الآشورية والكلدانية

لما تمت قراءة النسخ الفارسية كان فك النسخ الغير الفارسية فيه بعض السهولة والتيسير ففى سنة ١٨٤٢ شرع المسيو بوتا قنصل فرنسا فى الموصل فى أعمال الحفر الكبيرة وهو يرود اطلال خرزاباد فعثر فيها على آثار ومخلفات هى جرثومة المجموعات الآشورية فى متحف اللوفر بفرنسا وبعد ذلك بقليل اكتشف الانكليزى لير دعلى كثير من القصور الكائنة بقرب نينوى القديمة

فلما جاءت الى أوروبا كتابات كثيرة من هذا القبيل اثارت فى علمائها عوامل الجراءة والاقدام فعكفوا على النظر فيها والسعى فى فكها ففى سنة ١٨٤٧ ترجم الفرنساويان (ف . دوسولسى) و (آ . دولونجبيريه) بعض أقاصيص قصيرة ومن ذلك الوقت صارت حركة التقدم فى هذا المضمار سريعة جدا فان (هنكس) فى انجلترة و (راولنسن) فى فارس و (سولسى) و (أوبرت) فى فرنسا أخذوا يدرسون كتابات طويلة وعينوا بعد التحرى الدقيق طريقة التهجى ومدلولات العلامات والقواعد النحوية ولم يكن ذلك من

الامور التي يستقر الرأي عليها من غير أن تحدث جدالا طويلا مصحوبا بالانكار وعدم التصديق فحسما لهذا النزاع أخذت الجمعية الاسيوية بلوندره في عمل اختبار في سنة ١٨٧٥ فجاءت نتائجه قاطعة لكل خلاف مانعة لكل جدال فانها طبعت على الحجر كتابة أشورية لم يسبق طبعها واعطت نسخا منها الاربعة من علماء الآثار الاشورية كانوا في لوندره وقتئذ وهم (هنكس) و (أوبرت) و (ه . راولنسن) و (فوكس تالبوت) ودعتهم الى ترجمتها فلما تمت التراجم وقوبلت على بعضها ظهر فيها كلها اسم الملك تغلاتفلاصر بل ان حكاية الوقائع تكاد تكون بالفاظ واحدة وكان الخلاف فيما بينها واقعا على مواضع ثانوية ليس لها امكان من الاهمية حتى ان العلماء الذين كانوا لم يصدقوا الى ذلك الوقت بصحة الاكتشافات اضطروا بقوة هذا البرهان للتسليم بصحته والاقرار عليه وصار علم الآثار الأشورية من العلوم التي يعترف بها جميع العلماء

٥ — نصيب فرنسا في انماء وترقية الابحاث المختصة بعلم الآثار الأشورية

ومازال هذا العلم ينمو ويزداد من ذلك العهد وقد كان لفرنسا فضل عظيم ويد طولى في تاريخ ترقيته فان العمال الذين ابتدؤا في تمهيد هذا السبيل وهم (بوتا) و (سولسي) و (لونجبيريه) قد خلفهم بل فاقهم أوبرت ومينان ثم جاء عقيبهما (فرنسوا لونورمان) و (جيار) و (أميود) وقد اختطفهم الموت وهم في مقتبل الشباب و (هاليفي) و (بونيون) وغيرهما ممن لا يزالون محافظين على بقاء تعاليم هذا العلم

وحفظه وان أعمال الحفر التى استمر فيها بلاس فى نينوى ثم فرسنل وأوبرت فى بقعة بابل سنة ١٨٥١ قد انقطعت بعدهم مدة تنوف على العشرين سنة ثم عاودها الانكليز فتحصلوا منها على ما أغنى المتحف البريطانى وجعله أهم مستودعات العالم المحفوظة فيها العاديات الآشورية ولم يتحصل الموسيو دوسارزاك قنصل فرنسا فى البصرة الا فى سنة ١٨٧٨ على الرخصة من الحكومة العثمانية بمباشرة البحث فى كاديا وقد عثر فى بحثه الاولى على آثار هى عبارة عن تماثيل ملوك لاجاش التى سبق الكلام عليها وهى محفوظة فى متحف اللوفر الى اليوم

خلاصة ماتقدم

(١) كانت الكتابة الكلدانية هيروغليفية محضة فى أول الامر وفيها علامات تدل على معان مستقلة بالمفهومية ومقاطع من غير أن يكون فيها حروف تتركب منها المقاطع وأما الالفاظ فكانت تتألف من شرائط وأشكال تشبه المسمار أو الاسفين ولذلك سميت الكتابة بالمسمارية أو الاسفينية وقد يكون لبعض العلامات مدلولات كثيرة متنوعة بحيث لا يكاد القارئ الكلدانى يحترز من الخطأ الا بدوام المراجعة فى كتب التهجى فانها قد احتوت على معانى العلامات بكل دقة والتفات

(٢) وقد انتشرت الكتابة المسمارية فى الشام وأرمينية وعيلام وفارس وتعدلت كثيرا أو قليلا بحسب طبيعة اللغات التى استخدمها أهلوها وقد كان قصر آشوربانيبال الذى اكتشف عليه فى نينوى هو السبب فى حفظ فنون الادب عند الآشوريين والكلدانيين الى يومنا هذا وهى مرقومة فيه على صفحات من الخزف والفخار

(٣) ثم ما لبثت الحروف الآرامية أن قامت شيأ فشيأ مقام الكتابة المسمارية حتى انقطع استعمال هذه مرة واحدة فى أوائل القرون المسيحية ولم يهتدى القوم فى فكها الا فى سنة ١٨٠٢ وذلك بواسطة الكتابات التى على الطريقة الفارسية فان الالمانى جروتفند استخرج من نقوش برسوبوليس هجائية كاملة بعده لاسن فى ألمانيا وبرنوف فى فرنسا

(٤) وقد كان فى أعمال الحفر التى باشرها المسيو بوتا فى خرزاباد والمستر ليرد فى نينوى مجال واسع للمباحث التى اهتم بها علماء أوروبا مدة عشر سنين (من سنة ١٨٤٧ الى سنة ١٨٥٧) حتى توصل لونجبيريه وسولسى وأوبرت فى فرنسا وراولنسن وهنكس وتالبوت فى انجلترا الى قراءة وترجمة الكتابات التى بالقلم الاشورى

(٥) ومن ذلك العهد لم يزل علم الآثار الاشورية آخذا فى التقدم والترقى وكان لفرنسا نصيبها فى توسيع نطاق هذا العلم الحديث على يد أوبرت ومينان وفرانسوا لونورمان وجيار وغيرهم من العلماء العديدين الذين ما زالوا يبارون علماء ألمانيا وانجلترا فى البحث والتنقيب

الكتاب الثالث

في تاريخ الفينيقيين

الباب السادس عشر (**)

وصف فينيقية وذكر صيدون وصور وتأسيس قرطاجه

(١) وصف فينيقية (٢) صيدون وصور (٣) ابتداء السيطرة لمدينة صور (٤) ثورات صور (٥) تأسيس قرطاجه (٦) وقوع صور تحت حكم الاشوريين

١ — وصف فينيقية

« لم تكن فينيقية قطرا من الاقطار بل هي جملة موان ذات ارباض ضيقة (١) » فانها أرض ممتدة بالطول فيما بين جبل لُبنان والبحر ولا يزيد متوسط عرضها في التعديل عن ثمان مراحل أو عشرة وينبت الزيتون والكرم والقمح في سفح تلالها وفي مجاري السيول بها بدرجة فائقة معجبة وكانت أعالي الجبل تكسوها في الزمان السالف غابات

(**) قد حذفنا في الترجمة أربعة أبواب قبل هذا الباب في الكلام على تاريخ بني اسرائيل المخالفة للتواريخ الاسلامية وذلك بناء على رأي اللجنة العلمية بنظارة المعارف وقد راعينا ترتيب الابواب عقب بعضها بصرف النظر عن الاربعة المحذوفة من الاصل

(١) قاله رنان في كتابه على فينيقيا ص ٨٣٦

من البلوط والصنوبر والعرعر والتنوب والسرو والارز ولم يكن فيها أنهار كبيرة مطلقا بل مجارى سيول ينحدر فيها الماء بسرعة وشدة مثل ليتاني ونهر الكلب (المعروف قديما باسم ليكوس) والنهر الكبير وأغلبها تندفع مرة واحدة من لبنان الى البحر الابيض

وقد جاء فى روايات القوم ان أصل الفينيقيين من الامم التى على شواطئ الخليج الفارسى وانهم اضطروا الى ترك مواطنهم على اثر زلازل هائلة خربت ديارهم ومحت معالمهم فلما استراحوا مدة من الزمان على شاطئ البحيرة الكبيرة التى فى أشور (لاشك انها هى والبحر الميت شئ واحد) جاؤا الى ساحل البحر الابيض المتوسط واستقروا عنده فى نحو القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد وكانت مدائنهم منفصلة عن بعضها بمسافة عشر مراحل أو اثنتى عشرة بالاكثر ثم ما لبثت أن امتزجت ببعضها وتكون منها ثلاث طوائف مستقلة كانت لكل واحدة منها خواص تميزها عن الاخرى

فكان بناحية الشمال فى مدينتى ارواد وسميرا الكبيرتين أقوام ميالون للشغب والمحاربة مستعدون فى كل وقت لمقاتلة مجاوريهم والقيام على من يغير على أرضهم من الاجانب مصريين كانوا أو أشوريين وكانت ارواد قائمة على جزيرة صغيرة بعيدة عن البر بثلاثة كيلومترات تقريبا وأمامها مارتوس (١) وكرنه وانترادوس «حيث كان يحل فيها على الرحب والسعة ما كانت تضيق عنه الجزيرة» وكانت هذه المدائن الثلاث تمتد وراء بعضها متتابعة متلاصقة كأنها طراز متواصل

(١) أومارات وهى امريت الآن على سواحل الشام

وكانت جبيل أو جبون التي يسميها اليونان بيبلوس على رأس الطائفة الثانية من المدائن ويرون أن قد بناها الاله إيل في أول الزمان على بضعة مراحل داخل الاراضي بالقرب من الشاطئ الشمالي لنهر الكلب ثم انتقلت بعد ذلك الى ساحل البحر من قرب من نهر ادونيس (وهو ابراهيم نهر) قالوا وكانت بيروت تشاركها في الافتخار بان الاله إيل بناها أيضا وكانت مرسى امينا واقعة في نهاية أخصب السهول بفينيقية والظاهر أن جبيل وبيروت كان لهما شأن مهم في السياسة في الازمان التي أعقبت مجيء الفينيقيين ولم تتمكنا من المحافظة على مقامهما هذا مدة طويلة ولكن نفوذهما لم يضعف بهذا السبب بل بقيتا الى أواخر الازمان الوثنية مركزا لديانة ادونيس وهي من أرسخ الديانات الشامية وأثبتها

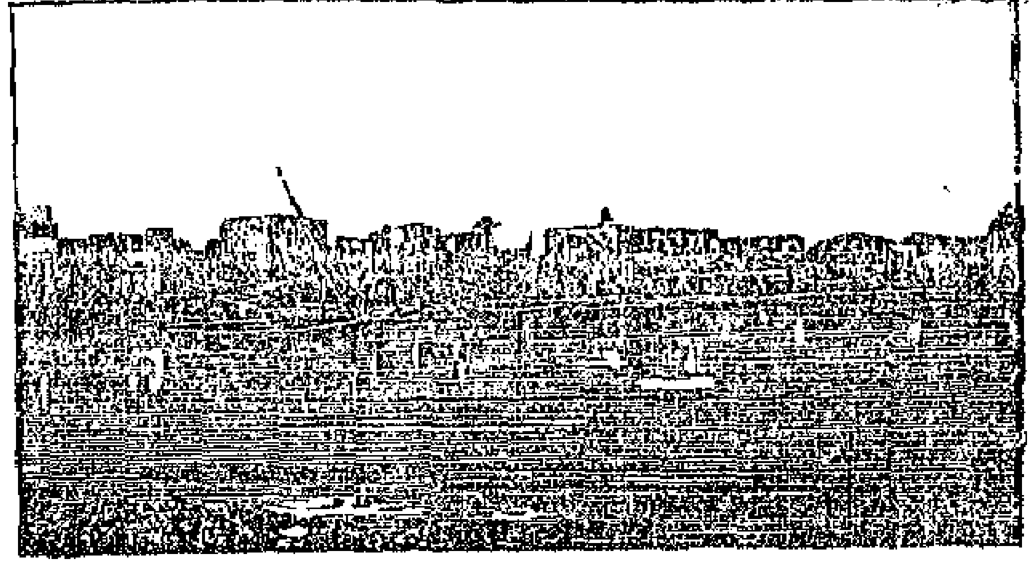
٣ — صيدون (صيدا) وصور

كانت مدينة صيدون « وهي أول ما أحدثه كنعان » على بضعة مراحل من جنوبي بيروت ولم تكن الا قرية للصيادين (١) بناها على ما جاء في رواياتهم القديمة الاله بعل (المعروف عند اليونان باسم آجنور) على المنحدر الشمالي لرأس صغير يشرف بانعطاف نحو الجنوب الغربي وقد كان لميناها عند السلف شهرة فائقة وهي محصورة بين صخور منخفضة متتابعة تبتدئ من النهاية الشمالية لشبه الجزيرة ثم تمتد بحذاء الساحل على مسافة بضع مئات من الامتار والسهل المحيط بها باسقيه

(١) كما يدل عليه اسمها نفسه

نهر جميل يعرف باسم بوستربن (نهر الأوالي) وفيها كثير من البساتين الغناء والرياض الاريضة حتى أوجب هذا البهاء الطبيعي وهذا الجمال الخلاق تسمية المدينة بصيدون الزهراء وبجوارها شمالا نهر الدامور وهي تمتد جنوبا الى مصب نهر ليتاني وفيما بعد ذلك كانت البلاد داخلة في حكم الصوريين

قالوا وفي الاحقاب الخوالي التي مضت على العالم أي أيام كان الالهة يعيشون فيما بين الناس اختط سمروم على القارة رسم مدينة من قصب الغاب وأمامها استقر أخوه هيزعوس في بضعة بحزائر أقام فيها أعمدة مقدسة وهيزعوس هذا هو أول بحرى في العالم وكان هذا مبدأ صور (شكل ٢٥) ثم جاء بعد ذلك ملكارث وهو عند الصوريين مثل



ش ٢٥ (ميناصور الحديثة)

هرقل الجبار المشهور في جاهلية اليونانيين ويؤكد كهنة هذا الاله « أن هيكله بني والمدينة في وقت واحد وقد مضى عليهما نحو ألفى سنة

وثلثمائة عام» حينما زارهم المؤرخ هيرودت فبناء على حسابهم يمكنا أن نقول بان مدينتهم هذه تأسست في نحو سنة ٢٧٥٠ قبل المسيح وما كان لهذه المدينة القائمة على جزيرة في البحر الأن تستقي من ماء الصهاريج أو من الماء الذي يؤتى به من البر اليها على الزوارق وكان لها الحكم على جميع الساحل الممتد فيما بين مصب ليتاني الى جنوبي الكرمل سواء كانت تحت سيادة أهالي صيدون أو متمتعة بنعمة الاستقلال

٣ — ابتداء السيطرة الصورية

ان مبلغ العلم عندنا أنه لم يتفق قط لهذه المدائن المتفرقة على ساحل البحر أن تتفق في أي زمن من أزمان تاريخها وترتبط بمعاهدة تجعلها متحالفة أو مملكة قادرة على صد هجمات الامم الكبيرة الفاتحة مصرية كانت أو أشورية أو كلدانية أو فارسية وكثيرا ما اضطر الفراعنة الى الشكاية بارواد وسميرا وقد تعب تحوتموسيس الثالث في اخضاعهم أمام مدائن الوسط والجنوب وهي جبيل وبيروت وصيدون وصور فقد استكانت الى الخضوع والامتثال من غير حرب ولا قتال وأخلص أهلوها في طاعة مواليهم الاجانب الى ما بعد حكم رمسيس الثاني وكان هذا والحق يقال هو عين الحكمة والصواب فقد ترتب على رضائهم بحمل نير العبودية أنهم توصلوا الى احتكار جميع تجارة مصر مع أمم آسيا والبحر الابيض المتوسط ثم تحصلوا على استقلالهم في أواسط القرن الثاني عشر قبل الميلاد حينما عدل الرمسيسيون من العائلة التمة

للعشرين عن المحاربة في البلدان القاصية والاقطار الشاسعة واكتفوا بالاعتكاف في وادي النيل

وحينئذ كانت كل من صور وصيدون عبارة عن دولة صغيرة تطمع اليها أنظار مجاوريها بسبب ما أحرزتاه من توفر أسباب الثروة واليسار ولكنهما قاومتا هذه الاطماع مدة من الزمان بما كان لهما من الحصون والاسوار غير انهما لم يتأتى لهما الاستمرار على هذا الدفاع فقد حدث في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر (في حدود سنة ١٢١٠) أن أقلع من عسقاوين (عسقلان) أسطول فلسطيني وتلاقى بعمارة الصيدونيين فدمرها تدميرا ثم استولى على مدينة صيدون فالذين تيسرت لهم أسباب النجاة من أبنائها فروا الى مدينة صور ولاذوا بها فأصبحت أقوى دولة في فينيقية كلها وكان يحكمها في أول الامر قاضيان يقضيان المشاكل ويديران شؤون الدولة الى ان اتخذت لها ملكا هو ابيعل وكان ذلك في نفس الوقت الذي فيه اختار اليهود سيدنا داود ملكا عليهم

فلما خلفه ابنه حيرام الاول (من سنة ٩٨٠ الى سنة ٩٤٦ ق) جعل لنفسه مع داود ومع سليمان عليهما السلام علاقات عادت عليه بالفائدة والمنفعة الزائدة ولما كان واثقا من صداقتهما له انهمك في المشروعات البحرية وتفرغ لها بكليته حتى صارت مدنه أعظم وقت بلغت فيه صور على ما نعلم نهاية الشوكة وغاية الرفاهية .

٤ — ثورات صور

كانت صور حينئذ متفرقة في جملة جزائر يفصلها عن بعضها ألسنة من البحر ليست بالعميقة بل تتخللها صخور طافية رؤوسها على صفحات الماء من جنس الصخور التي يتعذر معها اقتراب السفائن في بعض المواضع من سواحل الشام وعلى أكبر هذه الجزائر وفي أعلى نقطة منها قد أقام أول المستوطنين بها قبل ذلك بثمانية عشر قرنا هيكلا لملكارث وكان في احدى الجزائر المجاورة هيكل لالههم بعل السماين وهو الذي قال اليونان فيما بعد انه زفس أولمبيوس وقد ردم حيرام البوغازات التي كانت تجري المياه فيها فيما بين أقسام المدينة وبعضها فصار له أرض فسيحة بواسطة الردم الذي عمله والجسور الحصينة التي أقامها لصد الماء ولكن مع هذا الاتساع ما زالت البقعة التي فيها المساكن غير فسيحة بحيث لم تكن لتسع الا ثلاثين أو خمسة وثلاثين ألفا من النفوس فأفاض أهلوها على الارض القارة وأقام « تجارها الذين هم من الملوك وباثعوها الذين هم أكرم وأشرف أهل الارض » قصورهم ودساكرهم على أواخر سفح جبل لبنان ولكن الجزيرة بقيت مركزا للحكومة بالنسبة لحسن موقعها وللخندق الذي يفصلها عن العالم .

ولما توفي حيرام عقبه ابنه بعليسترت على الملك ولم يحكم سوى سبعة أعوام (من سنة ٩٤٦ الى سنة ٩٣٩) وخلفه ابنه ابدسترت فحصلت ثورة من الاهالي لاقى فيها حتفه وذلك ان أولاد مرضعته الاربع قتلوه وولوا أكبرهم مكانه وقد عضدهم الارقاء والجنود المرتزقة

والعملة الموجودون في المدائن الفينيقية فاستمروا على منصة الاحكام اثنى عشر عاما (من سنة ٩٢٠ الى سنة ٩٠٨) وترتب على حكمهم عواقب وخيمة ونتائج سيئة اذ هاجر قسم من الاعيان والاشراف ولو استمر الحال على هذا المنوال لانقضت سيطرة صور ودخلت في خبر كان ولكن حصلت ثورة اعادت السلالة الملوكية القديمة على تخت المملكة غير أن مدينة صور لم تنل من ذلك ما تحتاجه من الهدو والسكينة فتعاقب أولاد بعليستر الباقين بعد موت أخيهم وتناوبوا الملك الواحد بعد الآخر في مدة قصيرة (من سنة ٩٠٨ الى سنة ٨٨٧) وكان آخرهم فيلى وقد قتله بعد أن حكم تسعة أشهر أحد أقاربه المدعو ايثو بعل الاول كاهن عشتاروت وحفظ الملك لنفسه مدة اثنين وثلاثين عاما (من سنة ٨٨٧ الى سنة ٨٥٥)

٥ — تأسيس قرطاجنة

تحالف إيثو بعل مع جيرانه الاسرائيليين وتزوج آحاب بابنته ايزابل فتمكن من حفظ السلام بين الاحزاب المختلفة المشارب ولكنه بعد موته وقعت ذات الوقائع التي حدثت بعد حكم بعليصور الاول بستة أعوام (من سنة ٨٥٥ الى سنة ٨٤٩) وخلفه موتون الاول (من سنة ٨٤٩ الى سنة ٨٢٠) ولم يكن له من الذراري سوى ابنته اليصار فتزوجها عمها سيشار بعل الكاهن الاكبر لملكارث وترك طفلا صغيرا اسمه بغماليون وقد أوصى موتون ان سيشار بعل يكون قائما باعباء الملك الى أن يبلغ الوارث الشرعي سن الرشاد غير أن الحزب الوطني قام عليه وأنزله

عن منصة الملك ثم قتله ابن أخيه بعد ذلك ببضع سنين فارادت اليصار أن تأخذ بثار زوجها وشرعت في عمل مؤامرة انضم اليها جميع الاعيان والاشراف الا أن مكيدتها ظهرت للعيان وخشيت سوء العقبى فاسعفتها الاقدار بتيسر أسباب الفرار فاستحوذت على عمارة بحرية كانت في المينا على أهبة السفر فانزلت بها جميع محالفيها وأقامت نحو افريقية واشترت هنالك قطعة أرض من يرياش ملك (لوبيا) وأسست المدينة الجديدة (قرط قاداشت) وقد سماها اليونان كارخيدون والرومان كارتاجه [1] (في سنة ٨١٤) ثم ان الاهالى فيما بعد من جوا اليصار بالالاهة ديدون وسموها بهذا الاسم

٦ — صور تحت حكم الأشوريين والكلدانيين

ليست بقية تاريخ الفينيقيين الا عبارة عن ذكر علاقتهم مع الدول العظيمة التى تنازعت امتلاك الشام من القرن الثامن الى القرن السادس قبل المسيح فكان الأشوريون قد ظهروا مرة أولى في فينيقيه أيام ايثوبعل وحاولت مدائن الشمال مقاومتهم من غير أن يكون لها من النجاح أدنى نصيب فوقعت ارواد وسميرا جملة مرار في قبضة آشورناز رهابال وشلمناصر فانتهبوهما أما صور فانها اتقت مع هولاء الاعداء الحديثين طريق السياسة التى عاملت بها المصريين اذ حسبت

(١) وعنهم اخذ العرب فيقولون قرطاجه وقرطاجنه وهذا الاسم الثانى ينطبق بنوع أخص على مدينة في الاندلس اسمها *Carthagène* منحوت من كلمتين معناهما قرطاجه الجديدة

ان الافضل لها أن تخضع من غير مقاومة بدلا من أن تقاتل مع عدم مقدرتها على المقاومة ورضيت بدفع الجزية لتعيش في أمان وسلام

ولكنها لم تستمر على هذا الاحتياط المقرون بالحزم والحكمة اذ في أواخر حكم تغلاثفلاصر الثالث قام ملكها ايلولى (من سنة ٧٢٨ الى سنة ٦٩٢) فحارب شلمناصر الخامس وسرجون وسناحريب محاربات عنيفة انتهت بهلاكه وكانت هزيمته سبب انقراض الدولة الصورية فلم تكن فينيقية بعد ذلك الا عمالة تابعة للدولة الاشورية ولا يعتد بما حصل بها من الثورات التي ما لبثت أن انخمدت نارها حتى كأنها لم تكن ولما سقطت نينوى عادلها الاستقلال فدافعت عنه دفاع الابطال وفازت بدفع نبوخذنصر عنها بمعاونة الفراعنة الصاويين واحتملت الحصار ثلاث عشرة سنة (من سنة ٥٨٧ الى سنة ٥٧٤) من غير أن ترضى بالتسليم أو تلتزم بالاستسلام ولكنها حدثت فيها ثورات أخرى فكان فيها كمال انتزاف قوتها ففي سنة ٥٦٤ صار قلب الحكومة الملوكية وفي سنة ٥٥٧ أعيدت تحت سيطرة الكلدانيين ولما سقطت بابل في سنة ٥٣٨ حصل لصور وفينيقية ما حصل لها فدخلتا في قبضة الفرس من غير حرب ولا قتال

خلاصة ما تقدم

(١) «لم تكن فينيقيه قطراً من الاقطار بل كانت جملة موانئ لها أحواز ضيقة» محصورة بين جبل لبنان و بين البحر و يقال ان أصل الفينيقيين من البلاد المجاورة للخليج الفارسى وتنقسم موانيهم الى ثلاث طوائف متمايزة عن بعضها وهى طائفة ارواد وسميرا فى الشمال ثم طائفة بيبلوس وبيروت فى الوسط (وهى الطائفة الثانية)

(٢) والطائفة الجنوبية (الثالثة) كانت تتألف من صيدون (صيدا) ومن صور وقد كان تأسيس صور على الجزائر المجاورة للساحل فى سنة ٢٧٥٠ تقريبا

(٣) وقد رضيت عن طيب خاطر بالدخول تحت حكم المصريين ولم تسل حريتها الا فى أواخر عهد الدولة المتممة للعشرين وفى نحو سنة ١٠٠٠ ق م جعلت ابيبعل ملكا عليها وخلفه ابنه حيرام الاول (من سنة ٩٨٠ الى سنة ٩٤٦) وكان صديقا لداود وسليمان

(٤) وسعى هذا الملك فى تحسين صور وتوسيع نطاقها وتحصينها حتى ان الثورات التى وقعت بعد وفاته الى عهد ايتوبعل الاول (من سنة ٨٨٧ الى سنة ٨٥٥) لم يكن فيها عائق قوى يحول دون ازدياد عظمتها

(٥) وبعد ايتوبعل وقعت حروب مدنية أخرى أوجبت مهاجرة الاعيان منها الى افريقية تقودهم اليصار دبدون وأسسوا مدينة قرطاجه فى سنة ٨١٤

(٦) وفى نحو منتصف القرن الثامن اشتبك العراك بين صور و بين أشور فحاصرها شلمناصر وسرجون على غير طائل وقاومت نبوخذنصر ثلاث عشرة سنة (من سنة ٥٨٧ الى سنة ٥٧٤) ثم اعترفت أخيرا بسيادة الكلدانيين عليها ولكن مقاومتها الطويلة أضعفتها وانهكتها ثم دخلت من غير قتال تحت حكم الفرس فى سنة ٥٣٨

الباب السابع عشر

الديانة . حروف الهجاية . التجارة . الصناعة

(١) آلهة الفينيقيين (٢) عبادة ادونيس وعشتاروت
(٣) ألف باء الفينيقية (٤) الفنون الفينيقية
(٥) الصناعة الفينيقية والكلام على الارجوان

---

١ — الهة الفينيقيين

لانعرف شيأ كثيرا عن الديانة الفينيقية فقد كان لكل مدينة مولى (أدون) وإله (بعل) يلقبونه في الغالب بلقب خصوصي تمييزا له عن بقية الآلهة (البعليم) في المدائن الاخرى فكان اسم الآلهة المعبودة في صور وصيدا بعل صور (اله صور) وبعل صيدون (اله صيدا) هذا وقد كان بعل يسمى ملكارث بنوع أخص في مدينة صور ومعنى هذه اللفظة ملك المدينة وقد جعله اليونان في صور بمثابة هرقل عندهم وكان لكل بعل إلهة انثى (بعلة)



ش ٣٦ (الالهة ذات الحمامة من نقش على قطعة من الآجر قد صنعت في العصر اليوناني وهي محفوظة بمتحف اللوفر)

تكون ربة المدينة وملكة السموات كما كان هو الاله والملك وكانت تسمى عشتاروت وهو اسم جنس عام وكان لها جملة شارات بحسب

الشأن الذي يختص لها ففي بعض البلاد كانوا يصورونها وفي يدها حمامة (شكل ٢٦) وفي بعض اعياتهم او على رأسها الهلال

وليس من السهل تعيين خاصية رمزية كل واحد من هذه الآلهة فان البعلم كلهم تقريبا يمثلون قوى الطبيعة والشمس والكواكب وأما العشتاروت فهن ربات العشق والحرب وفصول السنة والفصول التي تكتسب فيها الطبيعة رونقها وبهجتها والفصول التي يعتريها فيها الذبول والاضمحلال وكلهم من آلهة والهات يقيمون في قلل الجبال وعلى شواشي جبل لبنان وحرمون وقاسيوس وفي الاجمات والمياه ويتجلون أمام الانام على المشارف والمرتفعات ويسكنون في الاشجار والاحجار الخام[1] بل وفي الكتل المنحوتة عمدانا

٣ — عبادة ادونيس وعشتاروت

قالوا ثم توالت الازمان على هذه الآلهة المتعددة حتى انها حلت كلها في زوج واحد سماه القوم ايل وايلة أو بعل وبعلت بحسب البلدات المعبود فيها وصارت بقية الآلهة الآخرين لا تذكر بجانب هذين الالهين بل كان لها شبه وجود فقط ويقول بعضهم ان بعل هو رب السماء والزمان والابد والشمس وأما زوجته فهي القمر ويقول آخرون ان الآلهة الخالقين هم سبعة اسمهم الكبراء أبناء الصديق وكلهم يجتمعون تحت راية ثامن اسمه اشمون وينقادون لاحكامه وقد كانت خرافاتهم الدينية شائعة في المدائن البحرية وفي بيروت وصيدون

(١) ويسمونها بيت ايل أي بيت الاله

(صيدا) فانتشرت على سواحل البحر المتوسط بواسطة أهل البحر منهم بل بقيت الى ما بعد انقراض المستعمرات الفينيقية وبقى لها محراب وأسرار مشهورة في جزيرة ساموتراس واستمر ذلك الى أن تلاشت الديانة الوثنية مرة واحدة

وكانت البعليم كلها مستنفرة مستوحشة ومتشبعة بالحسد والغيرة وكانت تفرض على عبادها أن يكونوا قربانهم لها من الحيوان بل ومن بنى الانسان وخصوصا أول مولود للرجل وعندما يقع خطر عام يتهدد المملكة كان الملك والاعيان لا يقربون اليها ضحية واحدة فقط بل جميع أولادهم الذين يطلبهم الاله فكانوا يحرقون أمام الاله هذه الضحايا وهى على قيد الحياة ولا يسكن غضبه الا اذا شم قتار اللحوم ورائحتها وكانوا يطبلون ويزمرون منعا لسماع الانين الصادر من هؤلاء المساكين الذين يعانون عذاب الحريق ولكى يكون القربان صحيحا مقبولا كان من المحتم أن تحضر الام بملابس الفرح والمهرجان وتقف ساكتة ساكنة لا تبدى حراكا

وكانوا يحتفلون باسرار الآلهة الكبيرة بالقرب من مدينة بيلوس في وادى نهر أدونيس وذلك انه متى جاء الانقلاب الصيفي أى متى «قتل الصيف الربيع» أخذت هى في دفن زوجها أدونيس رب الارباب (أدون أدونيم) اذ قتله حلوف وحشى هائل فتشترك البلاد كلها في حزنها وتلبس الحداد مثلها فيضعون في الهياكل نعوشا وعليها تماثيل الاله من الخشب المدهون بالالوان والاصباغ وكانوا يسهرون عليه قبل

دفنه وكانت النساء تخرج زرافات زرافات وتهيم في المدائن والغابات والجبال راخيات الشعور أو حالقات الرؤس شاقات الجيوب بصدور مرضوضة ووجوه مخموشة وهن يولولن بالعويل الطويل علامة على الحزن الشديد ثم يأخذ القوم في دفن تمثال أدونيس ويصطنعون بساتينه وهي عبارة عن أوان يغرسون فيها فروعا خضراء من غير جذور ثم يعرضونها للشمس فلا تلبث أن يعتريها الذبول والجفاف حتى اذا جاء الخريف انهالت السيول بمياه ضاربة الى الحمرة وانصبت في البحر عقيب الامطار فتهطل على لبنان وكانوا يعتبرون هذه المياه الحمراء كأنها دم أدونيس ويتضاعف حينئذ حزنهم ووجدهم بمجرد رؤيتهم اياها وكان الحداد الاكبر يستديم سبعة أيام وفي اليوم الثامن ينبئ الكهنة بان أدونيس عاد الى الحياة وانه يتأهب للاجتماع بزوجته فيفيض عليهم السرور ويشتد بهم الفرح والابتهاج الى ما يتجاوز حد الاعتدال

٣ — آلـ باء الفينيقية

لما استطال حكم المصريين على فينيقية أثرتأثيرا قويا على أفكار أهاليها الدينية فتأصلت في مدينة جبيل خرافة أوسيريس وايسيس واختلطت بخرافة أدونيس وعشتاروت وصار الاله توت المصري فينيقيا أيضا وحفظ في وطنه الجديد مقامه في مصر أعني مؤرخ الآلهة ومخترع الآداب

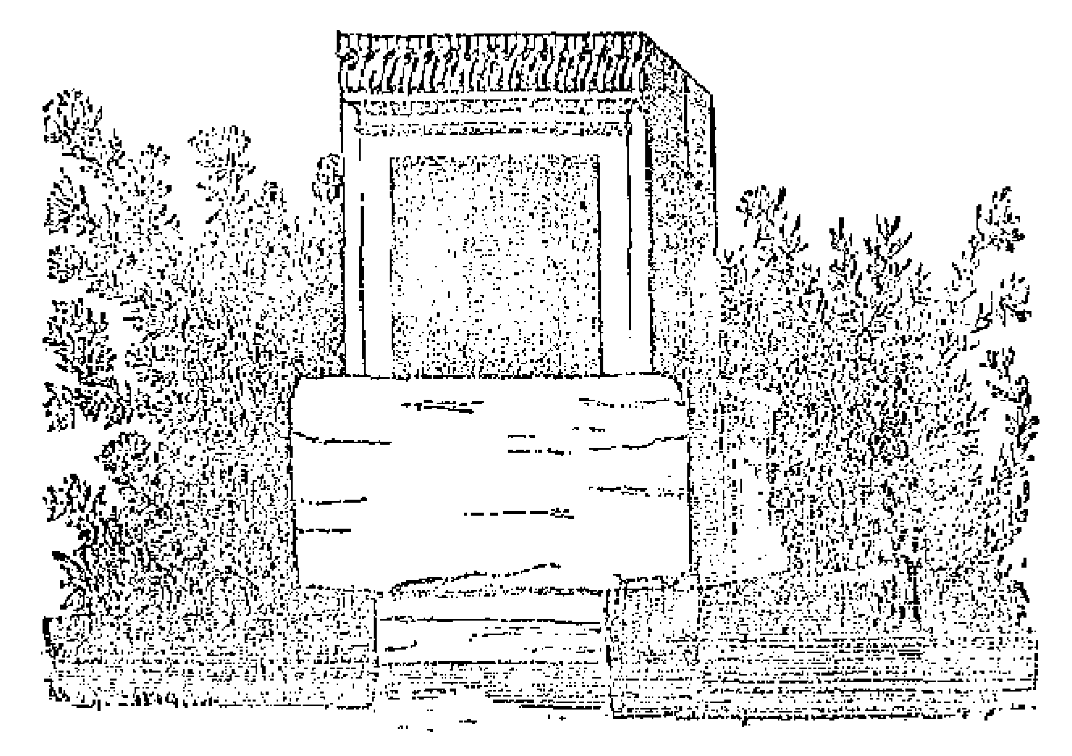
ومما يؤكد حقه فى ذلك أن الفينيقيين أخذوا الكتابة عن المصريين ولم يكدحوا ذهنهم فى نقل مجموع الكتابة الهيروغليفية بطريقة الاجمال وذلك بأن هذه الامة المؤلفة من تجار لم يكن لها حاجة للتعبير عن الافكار بطريقة مشوبة بالتعقيد مثل طريقة الكتابة المصرية فحذفوا جميع الصور الدالة على معان مستقلة بالمفهومية

ش ٢٧ (حروف الهجاء الفينيقية بازاء الاشارات الهيروغليفية التى هى أصل لها)

والحروف الدالة على المقاطع والحروف الدالة على أصوات كثيرة والحروف المتشابهة صوتها التى بقى المصريون محافظين عليها ثم اختاروا من الحروف الهجائية اثنين وعشرين حرفا توافق الاثنين وعشرين صوتا الاصلية الموجودة فى لسانهم (شكل ٢٧) ومن هذه الحروف

خمسة عشر حرفا لم يغيروها كبير تغيير بحيث ان أقل نظر يكفي لمعرفة أصلها المصري والبقية منقولة من القلم الهيراطيقي من غير مخالفة لقواعد التشبيه

وقد نقلوا هذه الحروف الهجائية الى الاقطار التي كانت تجارتهم تسوقهم اليها فصارت أصلا اشتقت منه جميع حروف التهجي المعروفة

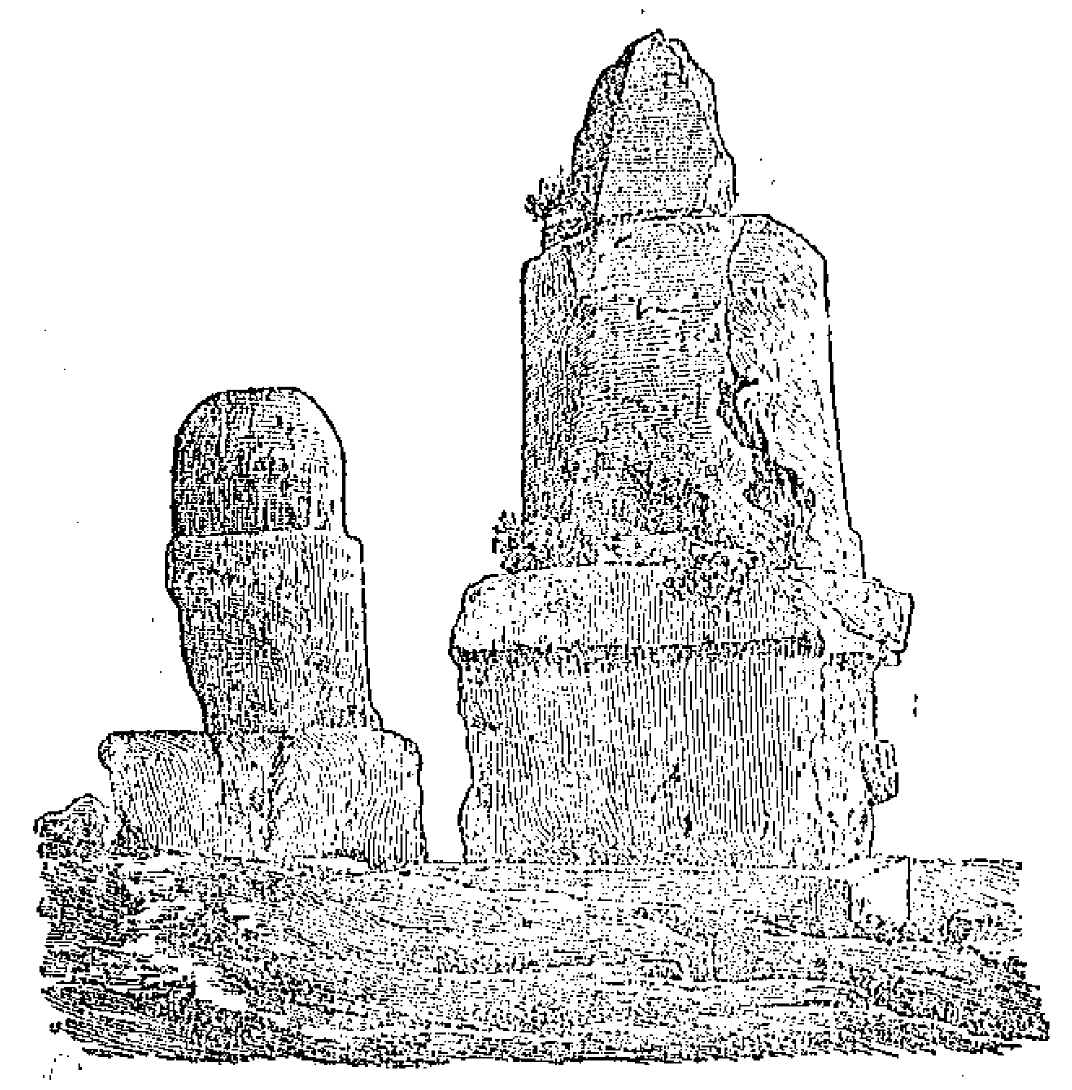


ش ٢٨ (ناووس أمريت)

وقتئذ من بلاد الهند والمغول الى بلاد الغالية (فرنسا القديمة) واسبانيا وجاء في أشهر الروايات اليونانية أن قدموس الفينيقي مؤسس طيبة في البيوثيا (بلاد اليونان) هو الذي أدخل حروف الهجاء بهذه البلاد ووصلت الى أوروبا عن طريق ايطاليا والحروف التي يستعملها الافرنج الآن في الكتابة هي مشتقة عنها بالطبع

٤ — الفنون الفينيقية

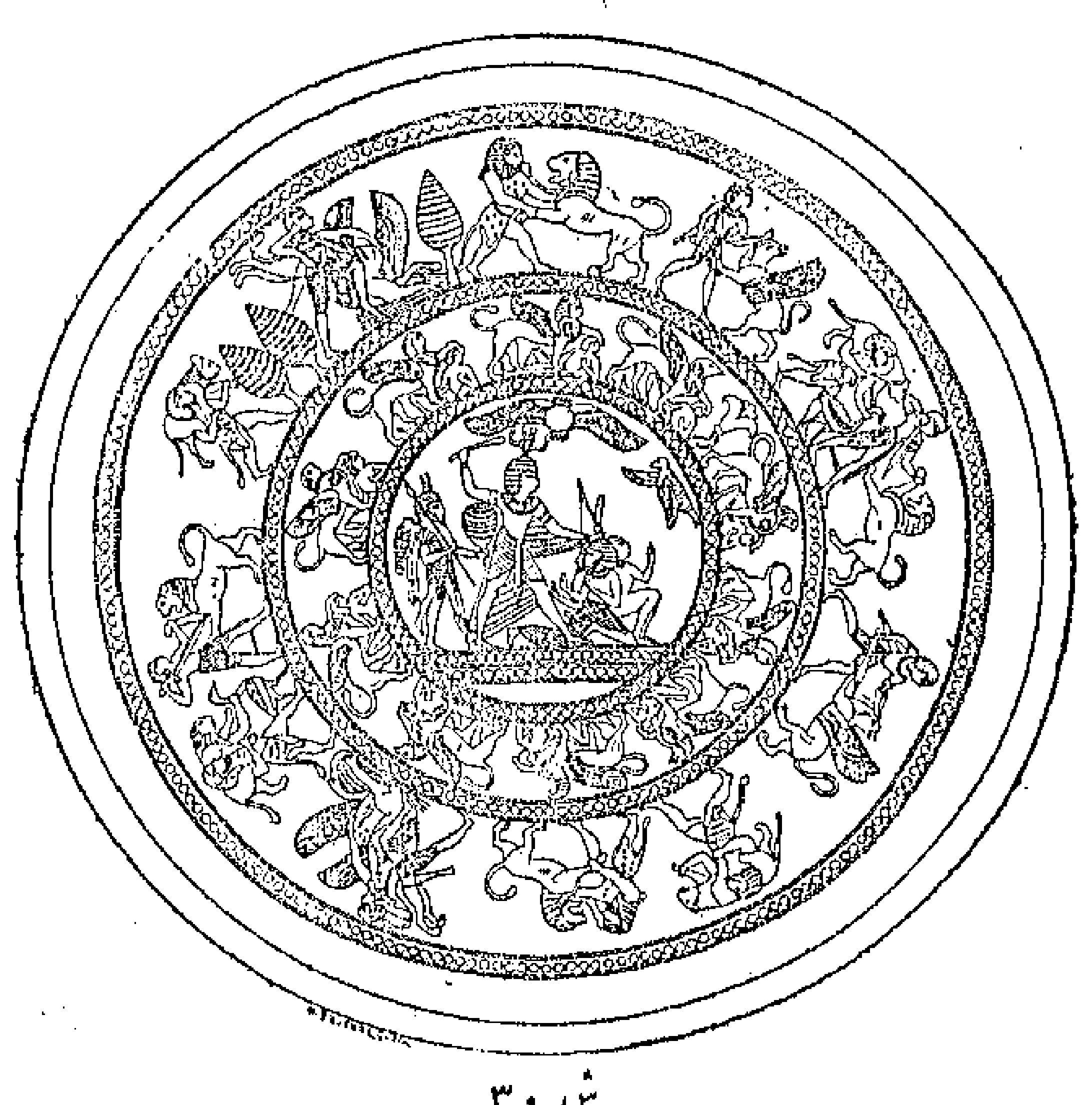
وقد أخذ الفينيقيون عن المصريين أيضا بعضا من فنونهم وصنائعهم فنرى فى الآثار الفينيقية القليلة التى نجت من الدمار



ش ٢٩ (معصرة زيت قديمة بالقرب من أمريت)

منظرا مصريا خالصا صافيا فالناووس الذى عثر عليه الموسيو رنان بالقرب من امريت التى هى مارات القديمة يعتبره الانسان بالسهولة مصريا محضا لو كان اكتشافه على شواطئ النيل (انظر شكل ٢٨)

بل ان معاصر الزيوت ذات الاجهزة الضخمة (انظر شكل ٢٩) تشبه الآثار المصرية مشابهة لامراء فيها بالنظر الى جسامتها والى ترصيف الاحجار فيها وكذلك أواني الفضة والشبهان (البرونز) التي كان القوم

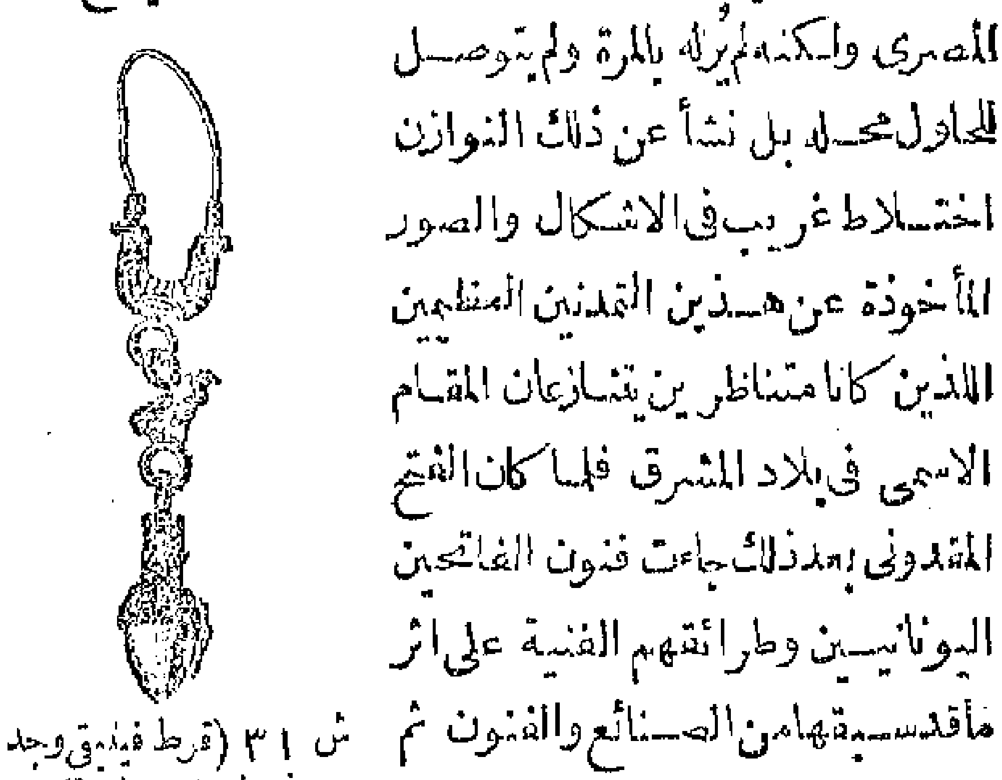


ش ٣٠
(آنية من الفضة محلاة بزينة مصرية)

يصنعونها في صور وصيدون (صيدا) تراها مزخرفة باشكال مصرية وممثلة لموضوعات مصرية (انظر شكل ٣٠) وكذلك الجواهر والاساور

والخناجر ودروع الخواصر والخواتم والاقراط (شكل ٣١) كلها عليها شارات فرعونية وصور آلهة مصرية وكذلك المصنوعات الزجاجية (شكل ٣٢) تشابه المصنوعات الزجاجية المصرية

وقد كان لتأثير التمدن الاشوري والكلداني موازنة وقتية مع التمدن المصري ولكنه لم يزله بالمرة ولم يتوصل للحلول محله بل نشأ عن ذلك التوازن اختلاط غريب في الاشكال والصور المأخوذة عن هذين التمدنين المنظمين اللذين كانا متناظرين يتنازعان المقام الاسمى في بلاد المشرق فلما كان الفتح المقدوني بعد ذلك جاءت فنون الفاتحين اليونانيين وطرائقهم الفنية على اثر ما قد سبقها من الصنائع والفنون ثم بقيت هي دون غيرها وتناسى الناس



ش ٣١ (قرط فينيقي وجد في جزيرة سردانية)

صنائع المصريين والاشوريين فلم يكن للفينيقيين قط فنون وطنية خاصة بهم متأصلة فيهم لانهم اقتصروا في كل عصر على تقليد أعمال الامم التي تحكمهم فكانوا يصطنعون على الطراز المصري أو الاشوري المتوسط أيام كانت حكومة بلادهم في أيدي المصريين أو الاشوريين فلما حكمهم اليونان ثم الرومان حاكوا الصنائع اليونانية وكانت أعمالهم حينئذ من الطراز الغير الجيد

٥ — الصناعة الفينيقية والكلام على الارجوان

لذلك لم يشتهروا عند عموم السلف الا بكونهم من أهل التجارة والملاحة ولا صحة لما زعمه البعض من أنهم أول من اصطنع الزجاج لان المصريين كانوا يعرفونه قبلهم بزمان طويل ولكن الفينيقيين جعلوا طرق اصطناعه سهلة بسيطة وهم أول من اصطنع زجاجا بلا لون ينفذ النور منه قليلا بدلا من الزجاج الملوّن الغير الشفاف الذى كانت تصطنعه مصر وتصدره الى الخارج وكانت مصوغاتهم ومطرزاتهم وأقمشتهم الملوّنة مرغوبا فيها فى كل مكان


ش ٣٢ (اناء فينيقى صغير من الزجاج)

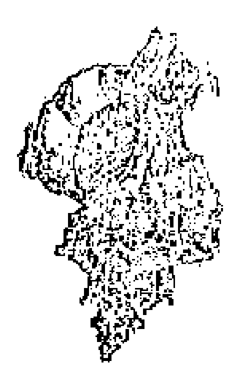
وكان ارجوانهم مشهورا فى الدنيا كلها ومضى زمان طويل ولا يعرف أحد من الامم كيف يكون تركيبه

والارجوان هو مادة ملوّنة تستخرج من جملة حيوانات صدفية قوقعية وكان الفينيقيون يستعملون فى صناعتهم هذه الاصداف المعروفة عند علماء المواليد بلفظة موركس ترنكلوس (شكل ٣٣) وبلفظة موركس برانداريس (شكل ٣٤) ويرى الانسان بقايا هذين النوعين من الصدف متراكمة أكواما عظيمة بجوار المدن الفينيقية أو المدائن اليونانية التى أسس الفينيقيون فيها مستعمرات لهم واعلم أن المادة الملوّنة توجد مخزونة بالقرب من رأس الحيوان

ولاجل الحصول عليها كانوا يكسرون قوقعته في هذا المكان بواسطة الشاكوش فتخرج عصارة ضاربة الى الصفرة فيلتقطونها بكل عناية والتفات وينقعونها في الملح مدة ثلاثة أيام ثم يغلونها في اناء من الرصاص ويلطفون حرارتها على النار ثم يضعون هذا السائل على مناخل لينفذ منها خالصا نقيا من قطع اللحم التي ربما تكون مخالطة للعصارة وبعد ذلك يغطون القماش فيه غطا وكانت الصبغة الشائعة عندهم شبيهة بلون الدم الضارب الى السواد بالانعكاس ولكنهم توصلوا بوسائل ومعالجات متنوعة الى الحصول على لون أحمر وبنفسجي وقاتم أو جمشتي (1)

ش ٣٣ (اصداف موركس ترنكاوس)

وكانت الصباغة وصناعة الزجاج أخص مايصطنعه الفينيقيون ولكنهم لم يكونوا يجدون في مصنوعاتهم هذه مايكفي لوسق سفائنهم وتسفيرها فكانوا يزيدون عليها المحصولات الطبيعية أو المصنوعات التي كانوا يذهبون لاجتلابها من أقاصي الارض أو التي كانت تأتي بها قوافل آسيا وافريقيا الى



ش ٣٤ (اصداف موركس براندا ريس)

(1) أي بلون الحجر المعروف باسم الجمشت *(Améthyste)* وهو حجر ارجواني أو بنفسجي مائل للزرقة

ثغورهم ومضت عليهم الاعصار الطوال وهم الذين يتعاطون نقل البضائع والمتاجر فى البحر الابيض المتوسط بحيث كانت وساطتهم لازمة بين المغرب الذى لم يزل ضاربا فى فيافى الهمجية والبربر وبين المشرق الذى علت فيه كلمة التمدن وارتفع شأن الحضارة

(خلاصة ما تقدم)

(١) كان لكل مدينة في فينيقية رب خاص بها (بعل) وله عشاروت (اسطارطوس وهي الهة أنثى) وكانت البعليم والعشاروتات تمثل قوى الطبيعة والشمس والكواكب أو الأغراض التي تتجه إليها نفوس بني آدم مثل العشق والقتال وكانت هذه الالهة متوطنة في المرتفعات والمشارف وفي الغابات وفي المياه وفي الاحجار الخام (بيت ايل — بيت الاله)

(٢) وكانت هذه الالهة تؤول الى زوج واحد أعلى أو الى سبعة آلهة كبراء تحف باشمون الذي هو الاله الخالق وكانت عبادة هذه الآلهة غير منتظمة ومحفوفة بأساليب القساوة فكان القوم يحرقون الاطفال تمجيدا لها واذا حل الانقلاب الصيفي أخذوا يندبون موت أدونيس ثم اذا جاء الخريف احتفلوا ببعثه ونشوره

(٣) ثم دخلت بعض القواعد الدينية المصرية في ديانة الفينيقيين وكذلك أخذت فينيقية عن مصر حروف الهجاء ومن الحروف الهجائية الفينيقية اشتقت حروف الهجاء الاوروباوية

(٤) أما فنونهم من صياغة ونقش ونحت وعمارة وعمل زجاج فقد أثرت عليها صنائع مصر تارة وصنائع كلديا أخرى تأثيرا عظيما

(٥) وكانت صناعة الفينيقيين مشهورة عند القدماء فقد أتقنوا طرق اصطناع الزجاج وحفظوا زمانا طويلا سر تحضير الارجوان وكانوا ينقلون الى الجهات القاصية مشغولات بلادهم ومصنوعات الامم الاخرى وكانوا هم الذين يتعاطون مهنة نقل البضائع في البحر المتوسط مدة أجيال طوال

الباب الثامن عشر

المستعمرات الفينيقية

(١) استعمار قبرس (٢) الفينيقيون في بحر ايجى وفي البحر الاسود (٣) الفينيقيون في بلاد الاغريق أي اليونان وتأثير هذه البلاد على فينيقية (٤) استعمار صقلية وافريقية واسبانيا (٥) خراب مملكة الصوريين الاستعمارية

١ — استعمار قبرس

كانت سفائن الصوريين مثل سفائن بقية الامم المشرقية عبارة عن مراكب لها نصف كويرته (أى نصف سطح) تسير بالقلع وبالمجاذيف وكان أصحابها يجرون بها بحذاء الساحل وما كانت تسافر الا نهارا فاذا جاء المساء لجأت الى جون بجانب رأس داخل في البحر

وفي بعض الاحيان كانوا يجرون المراكب على البر حتى تبقى واقفة على الرمل فينزل من فيها الى الارض لقضاء الليل ثم يسافرون في اليوم الثاني وما كانوا يخاطرون بالسير في الغاطس بعيدا عن الشواطئ الا اذا لم يكن لهم عن ذلك مندوحة لاجل عبور بوغاز فاصل بين قارتين أو لاجل الذهاب الى جزيرة بعيدة

وكانت قبرس أول جزيرة احتلها الفينيقيون وكثرت فيها مستعمراتهم منذ القرن السابع عشر قبل الميلاد وكان الفينيقيون يستغلون ما أودعته فيها الطبيعة من أصول الثروة وموارد الرزق

واعلم أن هذه الجزيرة يخترقها جبلان من المشرق الى المغرب يكادان يكونان متوازيين وبينهما واد يعجب السائحين الى الآن بنضرته وكثرة خصوبته وأخص محصولاته القمح والكرم والزيتون وأكثر ثروته من المعادن خصوصا وكان نحاسها مشهورا جدا حتى ان الرومانيين اعتادوا على تسمية هذا المعدن بالقبرسى (كپريوم) ومن هذا اللفظ اشتقت أسماء النحاس المستعملة فى أغلب لغات أوربا وقد أقامت مدينة بيلوس المحراب الاكبر المخصص لپافوس (باف) على الساحل الغربى وأما باقى الجزيرة فكان منقسما الى ممالك صغيرة وهى كيتيوم (كيتين واسمها الآن شيتى) وأماثونت (أماثونطا) وكوريوم (كورى) وكل هذه الولايات كانت تعترف تارة بسيادة صور وأخرى بسيطرة صيدون وبالامة المصرية أو الاشورية التى كان أسيادها الصوريون أو الصيدونيون يؤدون لها الجزية

٣ – الفينيقيون فى بحر ايجه (المعروف الآن بالارخبيل) وفى البحر الاسود

لم يكن للصوريين فى الجنوب مستعمرات مستقلة بنفسها اذ كانت مخازنهم فى أغلب مدائن الدلتا تحت مراقبة الحكام المصريين ولقد كثر عددهم فى منف حتى صار لهم قسم منها استقلوا بسكناه ثم صرفوا وجهة عزيمتهم نحو آسيا الصغرى فلم تلبث سواحل كيليكيا (لواء أطنه) المحاذية لقبرس أن كثرت بها المخازن التجارية العامرة الزاهرة غير أن أهالى ليكيا (صوف زاوية) منعوهم من دخول بلادهم كل المنع وقاوموهم

في ذلك أشد المقاومة وأما الكاريون فما كان أسهل امتزاجهم بهم اذ سمحوا للصيدونيين بالاستحواذ والسيادة على رودس وخالطوهم بالمصاهرة وتشبهوا كل التشبه باسيادهم المستجدين حتى صارت بلادهم تعرف باسم فينيقية أي الارض الفينيقية

وفيما وراء رودس كان للملاح طريقان في البحر أحدهما توصله الى الشمال نحو الهلسبنطس (مرمرا والدردانيل) فالبحر الاسود فاستعمر الفينيقيون مع الكاريين معظم جزائر الارخبيل مثل ديلوس وپاروس وميلوس[1] وأخذوا منها كثيرا من الشب والكبريت وغير ذلك وجعلوا للؤلؤ مصايد في نيسيرا (نجدلي غدا) وجياروس (جورا) وشيدوا معامل للصباغة والاقمشة في كوس (استانكوي) ثم وضعوا أيديهم على المنوس (لمنو أوستاليمين) وسموثراقه (سموثراكي أوسمندرك) وثاسوس (طاشيوز) واستخرجوا معادن الذهب في جبل بانجي (كستنيان أو بنهار طاغ) على ساحل ثراقة ولما كان دأبهم مداومة السعي للبحث على أسواق جديدة يصرفون فيها بضائعهم فقد جشموا أنفسهم الدخول في قنال هلسبنطس الضيق ووصلوا الى ذلك الحوض الفسيح الهادئ المعروف ببحر مرمرا وبعد أن امنوا على حرية مرورهم بهذا البوغاز بانشاء مدينتي ابيدوس (نجارا أو بوردلك) ولمپساك (چاردك) قد توطنوا في پرونكتوس (قرمه وسل Caramoussel) على بعد قليل من معادن الفضة التي كان يستخرجها البتينيون في الجبال

---

(١) تسمى الآن ديلي أوسديلي وپارو وميلو

بل قد جاء في الروايات ما يدعو الى الظن بان شهرة معادن القفقاسية قد زادت في طمعهم فطمعوا اليها واقتحموا من أجلها اصقاع البحر الاسود وهي قاحلة ماحلة وكانوا يرجعون بعد تجوالهم في هذه البحار باصناف التن (*Thon*) والسردين والارجوان والعنبر والذهب والفضة والرصاص والقصدير لاصطناع البرونز وكانوا يحصلون عليه أيضاً من البر عن طريق أرمينية والشام

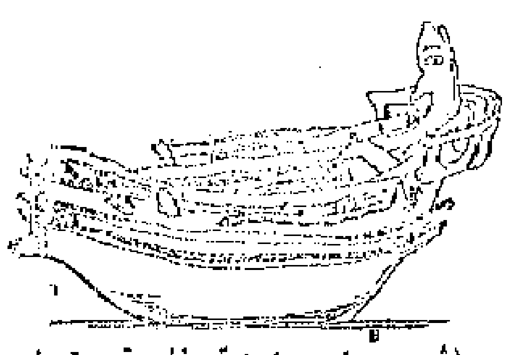
٣ — الفينيقيون في بلاد اليونان وتأثير هذه البلاد على فينيقية

من يرمي بنظره الى الجنوب وهو برودس يرى شماريخ جبال اقريطش (كريد) على بعد وهذه الجزيرة واقعة في مدخل بحر الجزائر وكأنها قارة قائمة بذاتها تكتفي بنفسها بنفسها فان فيها وديانا خصيبة وجبالا تكسوها الغابات وقد اتخذ الفينيقيون مصائد للارجوان في ايتانوس وصاروا أصحاب الكلمة النافذة في الساحل وأقصوا الاهالي الى ثنيات جبال ايدا (بسيلوريتي) ومنعرجاتها ثم انتقلوا الى كثيرا (جزيرة سيريجو) وأحدثوا بها معبدا لعشتاروت

ولما كانت بلاد اليونان التي في القارة تحصرها من الجنوب جزيرة كثيرا ومن الشرق جزائر سقلادس فلم تنج منهم بل طرقوا أبوابها وجاسوا خلالها فظهروا في برزخ قورنتة ثم في ايجين (ايجينا — ايجيا) فسلامين (كولوري) فالارجوليد فالاتيكة وجاء في احدى الروايات المعتبرة عند السلف أن الذي أسس مدينة ثيبة في بيوسيا هو قدموس

الفينيقى واضع حروف الهجاء اليونانية فانتشر بسبب ذلك تمدن الشرق ومقالات أهلية فى الديانات عند قبائل اليونان التى لم تكن تجاوزت الهمجية تماما ثم تلاشت عبادة عشتاروت الهة الفينيقيين واستبدلت بعبادة الزهرة (افروديت بلسان اليونان) الهة قورنثه والهة سيريجو ثم اتخذ صناع الارجوليد الاولين الاشياء الدقيقة المصطنعة فى مصر نموذجا يحاكونه فى أعمالهم

على أن اليونان لم يجعلوا للفينيقيين سبيلا الامتزاج بهم وانتزاف ثروتهم مدة طويلة من الزمان فانهم تعلموا بسرعة كيفية انشاء السفن القادرة على مقاومة مراكب الاغراب (شكل ٣٥) ودهموا مكاتب شركات الصوريين ووكالاتهم التجارية واسترجعوا جزائر سقلادس ثم ان أهالى كريد عظمت شوكتهم وازدادت قوتهم بمن وفد اليهم من مهاجرى القارة فتمكنوا من



(ش ٣٥) سفينة يونانية منقول شكلها من قطعة آجر منقوشة فى قبرس فى القرن الخامس

طرد الكنعانيين من جزيرتهم ولما صارت كريد لاهلها احدثوا منها مملكة مؤلفة من مائة مدينة وعاصمتها اكنوسس (اكنوس) وأول ملوكها رجل أكثر أهل الروايات الخرافية من ذكره حتى كاد يكون عريقا فيها وهو الملك مينوس وان ظهور المملكة الكريدية فى نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد كان فيه انتهاء شوكة الفينيقيين وتسلطهم على بحار اليونان

ومن هذا الوقت لم يتيسر للصيدونيين والصوريين البقاء فى بعض الجزائر المنعزلة مثل ثاسوس (طاشيوز) وميلوس (ميلو) وثيرا (سنتورين) ورودس وكثيرا (سيريجو) إلا بشق الانفس بل ان اليونانيين ما لبثوا أن بادؤهم بالشر وناصبوهم العداوة وذهبوا يطلبون الثروة فى البقاع التى بها الفينيقيون بلا مناظر ولا مزاحم ولما طرد منفتاح ورمسيس الثالث الآكائيين من ديار مصر نزلوا بقبرس وقاموا بجهاد استمر قرونا طويلة ثم انتهى بخراب المستعمرات الفينيقية القديمة

ولما كان يونان قبرس على تخوم العالم الشرقى تحضروا ببعض حضارته وكان أرباب الفنون منهم واقعين تحت تأثير الطرائق المصرية والاشورية مباشرة أو بواسطة فكانوا يميلون تارة الى الاسلوب المصرى وطورا الى المنهاج الاشورى

٤ — استعمار صقلية وافريقه واسبانيا

على أن الفينيقيين استعاضوا هذه الخسائر بما فتحوه من البلدان فى أصقاع البحر المتوسط القاصية فان الصوريين كانوا قد انجذبوا قبل ذلك بزمان الى جهات المغرب لما اشتهرت به أرضه من كثرة معادنها وخصوبتها وكل ما يلزم لرفاهية الحياة فانتقلوا بغير عناء من بلاد اليونان الى ايطاليا فصقلية ومن صقلية الى مالطة فافريقية (فى حدود القرن الثالث عشر) فلما تم طردهم من مياه بحر ايجى انتقلوا بقوتهم كلها الى تلك الاقاليم التى لم يكن فيها مناظر لهم

فاحاطوا صقلية بجملة مستعمرات منها روش ملكارت وموتيا وزيز التي صارت فيما بعد مدينة بلرم (*Palerme*) وشادوا على جبل اركس [1] معبدا لعشتاروت ما زال حافظا كرامته وقداسته الى آخر أيام الديانة الوثنية ثم انهم طمعوا لمعادن سردانية فذهبوا اليها ثم قصدوا جزائر البليار [2] وكان القسم من افريقيا المحاذي لصقلية عبارة عن باب عظيم تصدر منه تجارتهم وترد اليهم عنه المواد الاولية مثل العاج والاخشاب النادرة والافاوية والابازير والمعادن الثمينة التي كانت تحتاج اليها معاملهم وأقدم مستعمراتهم على هذه السواحل هي أوتيكة [3] فتهى تأسيسها الى القرن الثاني عشر ثم أقيمت مدائن أخرى بجانبها وهي مدينتا هيبو ثم هادروميت ولبتيس [4]

ثم ساروا بحذاء الشاطئ مغربين حتى بلغوا متصل البحر الابيض المتوسط بالبحر المحيط أعني بوغاز جبل طارق واستمروا هذه النقطة أزمانا طويلة وهي أقصى حد لفتوحاتهم وقد كان البوغاز في تلك الايام

---

(١) هذا هو اسمه عند الرومانيين (*Eryx*) واسمه عند العرب جبل حامد واسمه عند الطليانيين الآن جبل سان جوليانو

(٢) اسمها ميورقه ومنورقة عند العرب اشتقاقا من الاسمين الافرنكيين لاكبرهاتة الجزائر وهما (*Majorque*) و (*Minorque*)

(٣) اطلالها بالقرب من مدينة بتونس تسمى عند العرب غار الملح وعند الافرنج بورتوفارينا أي مينا الدقيق لان جنوب أوروبا وايطاليا على الخصوص كان يتمون الغلال منها

(٤) اطلالهما بالقرب من سوسة بتونس

تتخلله جملة جزائر صغيرة قد تغلبت عليها الامواج الآن فذهب أثرها من الوجود وقد قالوا ان الههم ملكارث أقام على جزيرتين منها احداهما باوروبا والاخرى بافريقية عمودين رمزا للفوز والانتصار وهما المعروفان بعمودى هرقل الجبار وفيما وراء العمودين تبتدئ بلاد الترشيس التى أرسل سليمان عليه السلام أساطيله اليها وهى التى تعرف عند اليونان باسم ترتسوس وهى من أخصب بقاع الارض وكانت سهول نهرى بتيس وآنس (الوادى الكبير ووادى انس) تنتج الزيت والخمر والقمح الضعف بمائة ضعف وكان صوف الضأن فيهما أجود من كل أصناف الاصواف وأكثر قابلية للتطريز والصباغة باللون الارجوانى وأنهارها عريضة عميقة بحيث يتيسر للسفن أن تصعد فيها الى غاية قاصية داخل البلاد كأنها كانت واسطة فى تسهيل الدخول باصقاع البحر الشاسعة وكانت الجبال تعلوها الغابات الكثيرة وفى باطنها المعادن المتنوعة من ذهب وفضة ونحاس وحديد وقصدير وكان فى البحر كثير من الاسماك ويتوافد اليه التن *(Thon)* زرافات زرافات

وأقدم المستعمرات الفينيقية فى هذه البقاع هى مستعمرة سيس فيما قبل العمودين ومستعمرة أونبة فيما وراءهما وفى حدود سنة ١١٠٠ تأسست مدينة قادر المعروفة اليوم باسم قادس على جزيرة مستطيلة مستدقة على غاية القرب من الساحل لا يحول بينها وبينه الا شريط دقيق من الماء الملح وما لبثت هذه المدينة أن صارت لحسن موقعها مركزا

لجميع الاملاك الفينيقية في اسبانيا وهي كرتية ومالقة (١) وابديرة ثم صارت المواصلات بين صور وقادر وبين قادر وصور منتظمة متوالية كما كانت بين قبرس وفينيقيه

٥ – خراب مملكة الصوريين الاستعمارية

لا جرم أن صور كانت في أيام حيرام وخلفائه مركزا لتجارة العالم كله كما ان الفتن الداخلية ساعدت أيضا على توسيع مملكتها لانها أوجبت نزوح بعض أهلها عنها وقد راد ربانوها سواحل مراكش وأبعدوا نحو الجنوب وجعلوا المستعمرات كسلسلة متصلة الحلقات فيما بين البوغاز وبلاد السنغال وصعدوا من جهة الشمال حتى وصلوا بحار الغاليا وهي بحار يعلوها الضباب البالغ في الكثافة والقتامة (٢) وبلغوا جزائر القصدير (التي هي جزائر بريطانيا العظمى) وربما تجاوزوا هذه الجزائر ولكن أعداءهم اليونان الذين طردوهم من بحر ايجى تعقبوهم في الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط فجاؤا صقلية في أواخر القرن الثامن في العصر الذي كانت صور تدافع فيه تغلاثفلاصر وسرجون وتصدهجماتهما عنها وأسسوا ناكسوس (٣) ومجار في سنة ٧٣١ وسرقوسة (Syracuse) في سنة ٧٣٤

(١) هذا الاسم منقول عن الاسم الفينيقي «مَلَكَة»

(٢) ولعل هذا هو السبب في تسمية الاوقيانوس الاتلانطيقي عند العرب ببحر الظلمات

(٣) جزيرة بالارخبيل اسمها الآن ناكسيا

وما مضت عليهم بضع سنين حتى استعمروا سواحل الجزيرة شرقاً وجنوباً ثم ان كولبوس الذى أصله من جزيرة ساموس أوغل فى سيره الى ماوراء صقلية حتى وصل الى قادر (قادس) وعقد مع اسبانيا علائق متجرية أوثقها الفوكيون من بعده وأيدوها تأييداً وطيداً

وقد أتمت قرطاجة ما بدأ به اليونان فانها ما لبثت أن أزالت كل بهجة لجارتها أوتيكه وهادروميت ولبتيس ثم تنازعت فى التجارة والمكسب مع تلك المدينة (صور) التى كانت هى سبباً فى وجودها من العدم واذ كانت صور غير قادرة على حماية الامم والمخازن المتجرية التابعة لها لاشتغالها بمجالدة اشور وكلديا اضطر الفينيقيون فى صقلية بعد أن طردهم اليونان الى غرب الجزيرة وشمالها الى الدخول تحت حماية قرطاجة كما فعل اخوانهم المتوطنون بسواحل اسبانيا وافريقيا بعد أن أعيتهم الحيلة فى التخلص من ايقاع البرابرة بهم وايذائهم لهم فلما كان منتصف القرن السابع لم يكن لفينيقية مستعمرة واحدة تعترف بسيطرتها حتى ولا قبرس فقامت المملكة القرطاجية بدلا عن المملكة الفينيقية

خلاصة ما تقدم

(١) كان الفينيقيون لا يعرفون سوى الملاحة بجانب السواحل فكانوا لا يبتعدون عنها الا عند الضرورة القصوى كاجتياز زقاق في البحر يفصل بين قارتين وقد بدؤا باستعمار قبرس لما فيها من المعادن الوافرة وخصوصا النحاس

(٢) ثم أحدثوا كثيرا من المستعمرات على ساحلي كيليكيا وكاريا وفي جزيرة رودس وجزائر الارخبيل وشطوط بحر مرمرا بل ويقال انهم أوغلوا في سيرهم حتى بلغوا منتهى البحر الاسود

(٣) وانتقلوا من رودس الى اقريطش (كريد) ثم الى بلاد اليونان التي بالقارة وقد جاء في الروايات انهم أسسوا مدينة ثيبه في بوسيا ثم طردهم مينوس من جزيرة اقريطش ومن جزائر سقلادس ثم جاء الاكائيون فاستقروا بجزيرة قبرس وانتزعوا منهم قسما من الجزيرة (في حدود القرن الثالث عشر)

(٤) فاستعاض الفينيقيون هذه الخسائر بمستعمرات كثيرة في صقلية وسردانية وجزائر الباليار وفي افريقيا وفي اسبانيا وكان من نتائج تأسيس مدينة قادر في نحو سنة ١١٠٠ تأييد السيطرة الصورية في اقليم بيتيكا (*)

(٥) وفي حدود القرن الثامن جاء اليونان واستقروا بجوار الفينيقيين في صقلية ثم تعقبوهم وطردوهم الى اسبانيا فلما وقع القتال بين صور وبختنصر انفصلت عنها قرطاجه وانتزعت منها سيادة المستعمرات في افريقيه واسبانيا حتى انها لم يبق لها في زمن كورش ولا مستعمرة واحدة فسبحان من له الملك على الدوام

(*) هو عبارة عن القطر الذي يشقه الوادي الكبير ويحده شمالا وادي آنس وشرقا اقليم طركونه ثم البحر الابيض والاقيانوس جنوبا وغربا وهو عبارة عما يعبر عنه العرب باسم الاندلس في أول أيام الفتح وقد سمي هذا القطر كذلك باسم نهر بتيس الذي هو الوادي الكبير

الكتاب الرابع
فى تاريخ الماديين والفرس

الباب التاسع عشر

وصف ايران . آسيا الصغرى . مملكة الماديين

(١) وصف ايران (٢) مبادئ مملكة الماديين والكلام على كياكسار
(٣) وصف آسيا الصغرى والكلام على مملكة ليديا
(٤) السكيثيين والكلام على الحروب التى وقعت
بين الليديين وبين الماديين (٥) استياج
المعروف بكيكاوس

١ ــ وصف ايران

تمتد ايران فيما بين البحر القزوينى والخليج الفارسى وتنتهى عند الشمال الغربى بسلسلة من الجبال أعلاها جبل دماوند وهو ذاهب فى السماء الى نحو عشرين ألف قدم على شكل هرمى وحدّها من جهة الغرب ستة صفوف من الجبال المتوازية وقد عرفها اليونان باسم خواتراس وزغروس (المعروف الآن بجبل طاغ) وهذه الجبال تقى بلاد ايران من هجمات من يقصدها من جهات دجلة فكأنها لها أسوار منيعة لمعسكر حصين

وفي حدها الغربي مجار كثيرة من المياه ولذلك كانت البقاع الغربية آهلة عامرة ولكن كلما توغل الانسان داخل البلاد انقطعت الانهار وبدت البيداء وفي أرض هذه البلاد كثير من موارد الثروة والرزق وان كانت لا تقارب أرض مصر أو كالديا في الجودة والخصوبة ففي جبالها النحاس والحديد والرصاص وقليل من الذهب والفضة وفيها الاحجار النفيسة وخصوصا اللازورد الذي يتنافس الناس فيه وقليل من جهاتها يعرى عن النباتات أما أكثرها فتكسوه غابات كثيفة من أشجار الصنوبر والبلوط والجوز ومنحدرات جبل زغروس (جبل طاغ) هي في الحقيقة رياض طبيعية تنبت فيها الكمثرى والتفاح والسفرجل وحب الملوك المعروف عند العامة بالكريز والزيتون أما الجهات الداخلية في هذه الهضبة فليس فيها الا القليل من الاشجار بجانب الانهار والبطائح ومن محصولاتها القمح والشعير والجودار (ضرب من القمح) وخضراوات جيدة في الجهات التي لا ينقصها الماء وكان فيها الاسد والنمر والسبندى (Léopard) والدب وكثير من الحيوانات الاهلية أو القابلة للاستخدام والحمار الوحشي والجاموس والهجين والدهابج (وهو الجمل ذو السنامين) وجملة أنواع من الخيول منها نوع مشهور بحسن قامته وخفة حركته وهو المشهور بالنسوى (نسبة الى مدينة نسا) ولم يتيسر للفاتحين الاول من الاشوريين اجتياز حواجز زغروس (جبل طاغ) فانها صدت أطماعهم عن هذه البلاد ولكن شلماصر الثاني وابنه شمشيرمان صعدا على هذه الهضبة

فى أواخر القرن التاسع وكانا أول من جاء من أمتهما واختلط بالماديين

٣ — مبادئ المملكة المادية والكلام على كياكسار

كان الماديون يسمون أنفسهم الآريين ومفهوم هذا الاسم أعم من مفهوم الماديين وقد بقى فى ذاكرتهم شئ غير واضح عن تاريخهم القديم وهو أنهم انضموا فى بعض العصور الى قبائل أخرى وكانوا يقيمون على شطوط نهر جيحون ونهر سيحون(١) ونزل جماعة من القبائل التى كانت تقيم معهم بجهات الجنوب فى حوض نهر السند (*Indus*)

(١) اعلم انه يوجد بقارة آسيا أربعة أنهار متقاربة فى الاسماء وموجبة للوقوع فى الخلط والاختلاط وهى جيحون وسيحون وجيحان وسيحان وقد يظن من كتابات العرب انهما نهران اثنان والحقيقة انها أربعة متمايزة وهذا هو البيان

فالاول وهو جيحون يسمى عند الافرنج أكسوس (*Oxus*) أخذا عن الاسم اليونانى وهو مشهور جدا لانه أكبر أنهار آسيا الوسطى واليه تنسب البلاد المسماة عند العرب ببلاد ما وراء النهر وعند الافرنج باسم (*Transoxiane*)

والثانى يسمى سيحون عند العرب و (*Jaxarte*) عند الافرنج وهو الفاصل الآن بين المملكة الروسية و بلاد التركستان المستقلة

وكلا هذين النهرين بآسيا الوسطى

أما النهر الثالث والرابع فهما جيحان وسيحان بآسيا الصغرى واسمهما عند الافرنج (*Pyramus*) و (*Sarus*) وهما يصبان فى بحر الروم

وهذا ما قاله ياقوت فى المشترك «سيحان نهر كبير جار فى ثغر المصيصة» «(أى *Mopsueste*) وهو نهر أذنة بين انطاكية والروم (يصب فى البحر» «الاعظم) وبالقرب منه نهر يقال له جيحان فبالثغر سيحان وجيحان وبأرض» «الهياطلة سيحون وجيحون»

والغدران التي تمده وأما الماديون فانهم صعدوا مع الفرس على الهضبة واجتهدوا في أن يستحوذوا على قطعة من أرضها تقوم بحاجاتهم فأوغل الفرس في سيرهم نحو الجنوب الغربي ولم يقفوا الا عند التخوم الشرقية لارض عيلام فاستقروا في أرض جبلية عرفت باسمهم

وأما الماديون فأخذوا يصعدون على مهلهم نحو الغرب سائرين بحذاء الجبال الحافة بالبحر القزويني ولما كانوا منشقين الى ممالك صغيرة كثيرة العدد لا تزال تتصارع وتتعارك في كل حين فلم يمكنهم في أول الامر دفع الجنود الاشورية والتزموا بالاستمرار على دفع الجزية الى ملوك نينوى من عهد تغلاتفلاصر الثالث الى أيام اشوراخي الدين أي مدة تنوف على الخمسين سنة

على أنه قد جاء في الروايات التي تناقلها الاهلون خلفا عن سلف أن رجلا منهم اسمه ديجوسيس (١) جعلهم أمة واحدة فجمع هذه الامارات المتعددة في مملكة متحدة وانه بنى مدينة اكباتانة (همذان) ونظم جيشا ليعتمد عليه وقت الحاجة في الداخل والخارج ورتب العلائق التي بين الامير والرعية هذا وقد كان سرجون في سنة ٧١٥ هزم رجلا اسمه دايوكو وأخذه أسيرا وربما كان هو المشار اليه في الرواية التي سردناها عن الماديين وكان هذا الرجل ملكا صغيرا حقيرا لا شأن له بنفسه ولا جاه عظيم ولكن ذريته هم الذين أسسوا تلك المملكة المادية الفخيمة اذ بعده بثلاثين سنة أعني في سنة ٦٧٧ كانت مادای

(١) اسمه المعروف في تواريخ الفرس كيقباذ ومعنى كي في لغتهم العظيم

عبارة عن معاهدة دولية لها رئيس واحد اسمه ماميتيارشو وكانت هذه المعاهدة من المتانة بحيث تيسر لها مقاومة أشور الى الدين ثم تأيدت سطوة الامة الحديثة في السنين التي أعقبت ذلك فبينما كان آشوربانيبال يفنى جنود أشور في محاربته مع عيلام كان ملك تسميه الرواية فراورت (٦٥٥ — ٦٢٥) يتم اخضاع جميع الامم المتوطنة فيما بين حوض دجلة والبحر القزوينى حتى أدخلها كلها تحت سلطانه فلما مات آشوربانيبال في سنة ٦٢٥ ظن فراورت أنه قد جاء الوقت المناسب لشن الغارة على أشور فنزل في سهول دجلة ولكن أشور تيلايلاني هزم جنوده وقد مات فراورت في المعركة فجمع ابنه كياكسار (سنة ٦٢٥ الى سنة ٥٨٤) ما تشتت من جيشه بشق الأنفس وصعد بهم الى هضبة ايران ناويا تجهيز ما يلزم لحملة جديدة

وكياكسار هو في الحقيقة الذي أسس مملكة المادبين العظيمة وقد اعتبر بما وقع لابيه فرتب جنوده على نمط الجيوش الأشورية المنتظمة ففصل حاملي الحراب والرماة والخيالة كل فريق عن الآخر وقد كانوا يقاتلون قبل ذلك مختلطين بعضهم ببعض فلما أتم تنظيم الجيش عاود مقاتلة أشور واذا بالسكيثيين قد داهموه وكبسوا بلاده فأوقفوا تنفيذ مشروعاته والاجتهاد في تحصيل اطماعه

٣ — وصف آسيا الصغرى والكلام على مملكة ليديا

كانت قبائل بربرية وعشائر متوحشة لا ينقطع من بينها القتال ولا تهدأ لهم حركة تسكن فيما وراء أشور ضاربين الى الشمال الاقصى

فيما وراء أنهار ارمينية وقال القفقاسية [1] وفى منتصف القرن الثامن جاءت أمم من آسيا الشمالية فطردت أقوام الجرى المعروفين عند اليونان بالكماريين وألجأتهم الى اجتياز نهر الطونة وجبال البلقان فقابلوا فى طريقهم قبائل من بلاد ثراقية وهم المعروفون بالترير والايدون ثم انحدروا الى آسيا

وآسيا الصغرى هى هضبة متماسكة تحدها الجبال من جميع الجهات وتخترقها أيضا فكأنها كما قيل «ايران صغرى قائمة بين بحار ثلاثة» وهى بحر ايجى (الارخبيل) وبحر الروم وبحر البنطس وفى ساحل بحر ايجى كثير من الوديان والاغوار العريضة ترويها الانهار الجارية بلا انقطاع فتزحزح مياه البحر عن شطوطه بما تلقيه عليها من الطمى والرواسب فتزيد مساحة الاراضى وهى أنهار كايكوس [2] وهرموس [3] وكايستر [4] ومياندر [5] أما القسم المتوسط من هذه الهضبة فليس فيه شئ من موارد الثروة ووجوه الانتفاع تراه قاحلا ماحلا قد كثرت فيه المستنقعات والبطائح وبحيرات تنساب مياهها

(١) هذا هو الاسم الصحيح للجبال والبلاد المعروفة بالقوقاز (Caucase) فاحتفظ عليه وبه تسمى سلسلة جبالها وأعلا جبل فيها يسمى كودقاف وهو المعروف فى كتب العرب باسم جبل قاف

(٢ و ٤) لم أتوصل لتحقيق أسماء هذين النهرين

(٣) يعرف الآن باسم سربات أوقادوس

(٥) هو الآن نهر مندر

بغير انتظام فمياه الجداول التي تتجمع مياهها فتبقى راكدة الى ماشاء الله ثم ان في هذه البقعة قليل من الانهار الزاخرة التي يمكنها أن تصل بقوة تيارها وكثرة مياهها الى البحر فان نهري ايريس (يشيل يرمق) وهاليس (قزل يرمق) يصبان في البحر الاسود ونهري بيراموس وساروس [1] يصبان في البحر الرومي

ومن نظر الى هذه البلاد المضطربة أحوالها الطبيعية رأى فيها جميع أجناس الامم التي كانت بالعالم المعروف عند الاقدمين ففي الشمال الغربي كانت أمم الموشكي والتابال والشاليب وطالما وقعت المعارك بينهم وبين الاشوريين وكانوا مشتغلين باستخراج المعادن وتصدير القصدير والنحاس والحديد بل والفضة والذهب الى كافة الامم الشرقية وكانت ذرية الحيتي متوطنة في الجنوب في مضايق جبل طوروس وفي سهول كيليكيا [2] وقد خالطها بعض العناصر الآرامية وفي الوسط والمشرق أمم أصلها من أوروبا قد انفصلت مثل الماديين والفرس من الاصل الآرى العام وهم الدردانيون والترواديون والميسيون والميونيون والبيثينيون وأشهر هذه الامم هي أمة فروجيا فان مجيئها الى آسيا قد أوجب مهاجرة أولئك المعروفين عند الفراعنة بامم البحر الذين تهددوا مصر في أواخر العائلة التاسعة عشرة

(١) هما جيحان وسيحان اللذان في آسيا الصغرى (راجع حاشية نمرة ١ في صحيفة ١٨٤)

(٢) هي الآن عبارة عن لواء أذنه المسمى عند الترك أطنه

وقد أسست الامة الفروجية في وسط شبه جزيرة آسيا الصغرى مملكة لم نقف على تاريخها كمال الوقوف ومن القرن العاشر كان اليونان قد أحدثوا على الساحل الغربي جملة مستعمرات يونانية وأيولية ودورية وكانها متقاطرة الواحدة وراء الاخرى وهي ميليت (ملطية) وازمير وفوكيا [١] وكولوفون وهاليكارناس [٢] وقد أسرعت هذه المستعمرات في طريق الثروة والعمارية فخرج من أهليها رجال أحدثوا مستعمرات أخرى على سواحل البحر الاسود

وفي نفس ذلك الزمان أخذت مملكة ليديا القديمة في الظهور ونفضت عنها غبار الخمول الذي عاشت فيه الى تلك الايام ولا شك أن روح الغيرة انما دبت فيها حينما رأت من اجتهاد جيرانها اليونان مارأت ويقولون ان ثلاث عائلات ملوكية تعاقبت على ادارة الاحكام في سرد (المعروفة الآن بمدينة سرت) تخت هذه المملكة وهم عائلة الاتياد (عائلة خرافية لا وجود لافرادها) ثم الهرقليون (لانه جاء في الرواية أنهم من ذرية هرقل الجبار) ثم عائلة مرمناس المعروفة باسم مرمنا وهي من سلالة سيجيس بن مرمناس الذي تولى الاحكام في حدود سنة ٦٧٥ وقد اجتهد هذا الملك في ازالة المستعمرات اليونانية المتواصلة التي كانت تحول بينه وبين البحر فاقام حروبا طويلة

(١) اسمها القديم (*Phocée*)

(٢) هاليكارناس (*Halicarnasse*) مدينة بآسيا الصغرى ومنها يخرج المؤرخ هيرودوت المشهور بأبي التاريخ واسمها الآن بودرون

على مدينة ميلت (ملطية) ولم يجده ذلك شيأ يذكر وانتهى حكمه بعصيبة عليه فان الكماريين قتلوه فى احدى الوقائع الحربية وأخذوا سرد (سرت) ونهبوها فى نحو سنة ٦٥٠ فقام ابنه ارديس (٦٥٠ — ٦٣٠) وهزمهم ولكنه لم يوفق الى كسر شوكتهم فانهم ما زالوا بعد ذلك الى ثلاثين سنة سادات آسيا الصغرى

٤ — اغارة السكيثيين والكلام على الحروب بين الليديين والماديين (سنة ٥٩١ — سنة ٥٨٥)

قد نزل الى آسيا السكيثيون (١) مع الكماريين بعد أن طردوهم من مواطنهم الاصلية وكان قد لاقاهم أشوربانيبال فى سنة ٦٦٠ عند جبال ارمينية ولكنهم فى سنة ٦٢٤ تقوت جماعاتهم واشتدت عصبيتهم بمن انضم اليهم من المهاجرين فانقضوا على سهول أشور ومادای لتوفر أسباب الثروة فيهما ولم يصدهم عن ذلك مانع فنهبوا أشور وألزموا كياكسار بان يدفع لهم الاتاوة ولم يتيسر لهذا الملك الرجوع لمشروعاته فى الفتوحات والاطماع الا بعد أن تخلص منهم بالقوة والقهر على رأى البعض وبالخيانة والغدر على رأى آخرين وذلك فى سنة ٦٠٨ ثم تحالف مع ملك بابل فنجح فى تدمير نينوى سنة ٦٠٦ وكانت حصته فى الغنيمة أشور الحقيقية وملحقاتها

ولم يقف عند هذا الحد من الفوز بل نازل أمم ارمينية وقد كاد السكيثيون يأتون على كل بلادهم خرابا فلم تقاومه مقاومة تذكر

(١) هم المعروفون الآن بالتتر

ودخل من غير صعوبة الى قلب آسيا الصغرى فصادمه فيها الليديون فان ساديات (٦٣٠ - ٦١٨) ابن ارديس استمر في محاربة اليونان وجاء بعده الياتّ (٦١٨ - ٥٦٣) فانتزع منهم ازمير وأمعن في داخل البلاد حتى وصل الاقطار التي يسقيها نهر هاليس (قزل يرمق) وقد دامت الحرب بين الليديين والماديين ست سنين ولم يفز بالغلبة فريق على الآخر وانما كانت بينهما سجالاً وذكروا ان الجيشين استعدا ذات يوم للقتال وفصل الخطاب واذا بالشمس قد كسفت بغتة فأحجمت أمم ايران عن القتال الا اذا كان ضياء النهار منتشراً في الآفاق وكذلك الليديون فانهم على ما ظهر لم يكونوا متوثقين أكثر من أخصامهم ولو أن طاليس الفيلسوف الملطي على ما قال أنبأهم بقرب حصول هذه الظاهرة الجوية فتداخل حلفاء الملكين وحملوهما على الصلح فتقرر بينهما بقاء نهر الهاليس (قزل يرمق) حداً رسمياً للمملكتين ولاجل توطيد هذا الصلح عقد الياتّ على ابنته لاستياج[1] بن كياكسار ثم أدّى كل من الملكين يمين الصداقة لصاحبه وأمضيا على العقد بعد أن جرح كل منهما ذراع الآخر وامتص الدم الذي سال منه وكانت هذه عادتهم في تلك الازمان (٥٨٥)

٥ — استياج وهو كيكاوس (٥٨٤ - ٥٤٩)

ومات كياكسار بعد ذلك بقليل (سنة ٥٨٤) بعد أن عمر طويلاً وأصاب فخراً جليلاً فان مملكته مادای عند ارتقائه على كرسيها لم تكن

(١) هو المعروف في كتب الفرس باسم كيكاوس

الا قطعة صغيرة من هضبة ايران فترك لخليفته مملكة تمتد من ضفاف نهر الهند الى شطوط نهر هاليس (قزل يرمق) أى ثلث آسيا الغربية والظاهر أن استياج أى كيكاوس لم يكن من الملوك المحبين للغزو والقتال بل كان غليظ القلب مولعا بأباطيل الاعتقادات وفاسد الخزعبلات فامضى حياته حقيرا بطالا منغمسا فى اللذات متنعما بعزة الملك وأبهته على ماهو معهود فى البلاد الشرقية ولم يكن له من الملاهى الا الصيد والقنص فى رياض قصره أو فى حدود البادية

خلاصة ما تقـــــدم

(١) تمتد هضبة ايران بين البحر القزويني والخليج الفارسي وتحدها من الشمال سلسلة جبال زغروس (جبل طاغ) وحدها الغربي أراض خصبة تسقيها الانهار سقيا منتظما وداخلها رمال لاتصلها المياه ولم يجازف الفاتحون الاولون من الأشوريين بالدخول الى هذه البقعة

(٢) الماديون من سلالة الاريين وأصلهم من اقليم بلخ وقد ادوا الاداوة لتغلاتفلاصر الثالث وخلفائه فلما أعقبهم الامراء من آل ديجوسيس (كيقباد) اغتنموا فرصة اعتزال آشوربانيبال مع عيلام لنوال حريتهم وازالة نير عبودية أشور عن أعناقهم بل ان فراورت قد تجاسر على مهاجمة أشور ولكن آشور تبليلاني هزمه وقتله (سنة ٦٣٥) أما ابنه كيا كسار فقد كان مؤسس المملكة المادية حقيقة

(٣) آسيا الصغرى هي «ايران صغرى قائمة بين بحار ثلاثة» بحر الروم وبحر ايجى (الارخبيل) والبحر الاسود وقد توالى على حكمها الحيثيون ثم الفروجيون القادمون من أوروبا في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ثم استعمرها الفينيقيون ثم اليونانيون وفي القرن السابع جاء جيجيس (٦٧٥ — ٦٥٠) وأصلح مملكة ليديا القديمة فحاولت ان تخرق المستعمرات اليونانية التي كانت حولها حائلة بينها وبين البحر ولكن داهمها الكيماريون (٦٥٠) فأوقفوا حركة تقدمها ومالبثت أن عادت لذلك في أيام ارديس (٦٥٥ — ٦٣٠)

(٤) كانت اغارة السكيثيين بعد اغارة الكيماريين مانعا وقتيا لم يتيسر معه لكيا كسار قلب المملكة الأشورية ولما خربت نينوى في سنة ٦٠٦ تقدم الماديون نحو الغرب واصطدموا بالليديين في أيام ملكهم اليات (٦١٨ — ٥٥٢) واستمر القتال بينهما ست سنين وانتهى في سنة ٥٨٤ بمعاهدة صلح جعلت نهر هاليس حدا لكل من المملكتين

(٥) وقد خلف كيا كسار على منصة الاحكام ابنه استياج أى كيكاوس (سنة ٥٨٤ — ٥٤٩) وكان ملكا محبا للزهو والباطل ولم يتمكن من المحافظة على ما فتحه أبوه من البلدان والاقطار

الباب المتمم للعشرين

الفرس . كورش . كمبيز

(فتح الفرس للقسم الاعظم من بلاد المشرق المعروفة قديما)

(١) مبادئ المملكة الفارسية (٢) كورش (٥٥٨ — ٥٢٩) وفتح بلاد مادای (سنة ٥٤٩) وبلاد ليديا (سنة ٥٤٦) (٣) فتح آسيا العليا وبلاد كلديا (سنة ١٣٨) وموت كورش (٥٢٩)
(٤) كمبيز (٥٢٩ — ٥٢٢) وفتح مصر
(٥) جنون كمبيز وموته (٥٢٥)

١ — مبادئ المملكة الفارسية

حل الفرس في أوائل الغارة الآرية بالبلاد الواقعة شرقي عيلام ثم امتدت أملاكهم من مصب نهر طاب في الغرب الى بوغاز هرمز واعلم أن أرضها التي الى السواحل قاحلة لا تروي بالانهار بالكفاية ولا يصل من أنهارها الى البحر الا طاب وبند أمير وكوراب وأما بقية الانهر فتتجمع مياهها في قيعان الوديان فتتكون منها بحيرات كبيرة أو صغيرة بحسب الفصول الاربعة وقد قسمت القبائل الفارسية البلاد التي فتحتها الى جملة أقسام وهي پاريتاسينه (بلاد الجبل) وماردیانه (مازندران) في الجبال وتوكانه على الساحل وكرمان في الغرب وبنوا فيها بعض قرى كبيرة أهمها فرسپوليس [1] وپازاركد

(١) هي الآن تشمل منارأي الاربعون عمودا وأطلالها قائمة حول مدينة اصطخر بحيث ان كثيرين من العلماء يعتبرونها هي نفس اصطخر وهو وهم

وكانت هذه القبائل خاضعة لملوك من سلالة رجل اسمه اخمينيس وهو قائدهم أثناء الغارة وقد انتزع فرع من هذه العائلة بلاد انشان من العيلاميين وجعلها امارة كان أسيادها تيسپس وكورش الاول وكمبيز الاول يعترفون بسيادة الماديين مدة تقارب قرنا من الزمان

٣ — كورش وهو كيكسرى (٥٥٨ — ٥٢٩) وفتوح بلاد مادای (٥٤٩) وليديا (٥٤٦)

فلما جاء كورش الثانی (كيكسرى) ابن كمبيز (شكل ٣٦) نهض بالفرس من وهدة الخمول والانحطاط وجعل لهم السيادة والسيطرة على آسيا وقد تناقل القوم رواية تقضى بانه من سلالة كيا كسار وانه حفيد استياج (كيكاوس) من ابنته مندان وذلك ان استياج رأى أحلاما أزعجته اذ أنبأته بشوكة الغلام فى مستقبل الايام وان قدره سيعلو على جميع الانام فأراد أن يقتله عند ولادته فوكل بهذا الامر أحد سادات بلاده واسمه ارپج (*Harpage*) غير أن هذا الرجل اقتصر على ترك الغلام كورش فى الغابات فجاءت كلبة (على قول البعض) وزوجة أحد رعاة الملك (على قول الآخرين) وغذته وربته حتى كبر وترعرع ولكن ذلك لم يرد فى التاريخ الحقيقى فان مبلغ ما جاء فيه ان كورش ملك انشان حارب الماديين فوقعت فتنة فى جنود استياج وسلموا أميرهم هذا الى الملك الجديد (٥٤٩) فكان فى ذلك انتقال الملك من عائلة لعائلة من غير أن يكون فى الحقيقة فتحا أجنبيا فحلت الدولة الفارسية محل الدولة المادية من غير أن يحدث اضطراب أو انقلاب

ثم امتدت الدولة الفارسية بسرعة فان كورش ابتدأ بمقاتلة الليديين وكان أميرهم كيريسوس بن اليات يحكم عليهم منذ سنة ٥٦٢ وقد افتتح هذا الرجل افسس وازمير وساد على جميع الامم المتوطنة غربي نهر هاليس (قزل يرمق) وصار له في العالم كله صيت عظيم يضرب به المثل الى يومنا هذا من حيث الغنى والكرم (١) فأول ما شاع خبر سقوط استياج (كيكاوس) تحالف مع أمم الشرق القديمة فان ظهور هذه الدولة الجديدة كان يهددهن كلهن فتحالف مع أماسيس ملك مصر ونابوناهيد ملك كلديا بل ومع القدمونيين وحينئذ آنس من نفسه قوة بمؤازرة هذه الشعوب له فبدأ بالقتال في ربيع

(ش ٣٦) الملك كورش وهو مصور في رسم بارز في مرغاب

سنة ٥٤٦ واجتاز نهر هاليس (قزل يرمق) واستحوذ على قلعة پتريا (واسمها الآن بوغاز كوى) لانها كانت تشرف على البقعة التي

(١) كما يضرب المثل عند الشرقيين بمال قارون

لابد للفرس من اجتيازها لمقاتلته ولم يتهيأ لكورش (كيكسرى) صد هذه الهجمات الا فى أواخر الصيف فوقعت بينهما معركة بالقرب من نهر هاليس (قزل يرمق) ولم يتبين فيها الغالب من المغلوب ولهجوم الشتاء رجع كريسوس الى سرد (سرت) وصرف جنوده لمدة الشتاء حاسبا أن الفرس لا يهاجمونه قبل حلول الربيع

ولكن الحوادث لم تحقق هذا الحسبان فان الفرس والوا القتال فى فصل الامطار وتقدموا فى زحفهم حتى دخلوا الى قلب ليديا فباغتوا ملكها وهزموه فى أول معركة بحيث التجأ الى التحصن فى سرد (سرت) وبعث يستغيث بحلفائه ويستنجدهم عند الشدة

وكانت المدينة مشهورة بانها منيعة لا ترام فصدت هجمات الفرس مرات عديدة ولكن اتفق ذات يوم أن أحد عساكر الحامية سقطت خوذته من أعلى القلعة الى خارجها فنزل وأخذها ثم عاد من الطريق الذى نزل منه فأبصره أحد المحاصرين وسار على أثره حتى دخل القلعة مع نفر من رفقائه وقد كانت المدينة قاومت مدة أربعة عشر يوما (سنة ٦٤٥) وجاء فى الرواية ان كريسوس حكم عليه بالموت فى وسط النار ولكن هذه النار كانت بردا وسلاما عليه اذ نجاه من هذا العذاب الاله أپولون الدلفى فلذلك صار الرجل صديق الملك الذى فاز عليه ومستشاره الامين وقد وكل كورش قواده باتمام فتح القطر فأخضع أرپج بلاد ليكيا (صوف زاويه) والمدائن اليونانية التى كانت فازت فى مقاومتها العائلة الحرمناس وخرج أهل فوكية من ديارهم وبعد أن لاقوا

في طريقهم جملة حوادث ووقائع ذهبوا الى بلاد الغاليا وأسسوا فيها مدينة مرسيليا أما سكان مدينة اكسانثوس فقد استماتوا في الدفاع عن وطنهم حتى هلكوا عن آخرهم ولم يرضوا بتسليم مدينتهم بخلاف بقية البلاد فقد رضيت بما قدره الله عليها وقبلت سيادة الفرس

٣ — فتوح آسيا العليا و بلاد كالديا (٥٣٨)
وموت كورش وهو كيكسرى (٥٢٩)

وبينما كان أربج يتم اخضاع آسيا الصغرى كان كورش (كيكسرى) يوالى المحاربات ويشن الغارات في الاقاصي الشرقية من الهضبة الايرانية فألحق بمملكته بلاد بلخ[1] والمرج (بقطريانة ومرجيانة) وبنى في بلاد الصغد جملة معاقل وحصون أهمها كوروبوليس أو كوريشاتة (أى مدينة كورش) وهى مدينة حصينة تشرف على نهر سيحون ولم يوقفه عن سيره الى الشمال الا متاوز سيبيريا وفدافدها وكانت الشاش آخر امة أخضعها في نواحي المشرق ولما غادرهم مرّ على بلاد آرية (سجستان والقسم الشرقى من خراسان) وآركوسيا (سستان) وعلى البلاد الواقعة فيما بين نهر كابل والسند ولكن الظاهر أن صحارى جدروسيا (مكران) كانت أمام جنوده مانعا منعهم عن التقدم والفتوح فاستغرق كورش في هذه المحاربات نحو خمس أو ست سنين (من سنة ٥٤٥ الى سنة ٥٣٩) وترتب عليها

(١) اسمها القديم بقطر (*Bactres*) ومعروفة عند الامم الشرقية بانها «أم البلدان»

اتساع مملكته ضعف ما كانت عليه وبمجرد عودته نازل كالديا ففاز بسهولة على ملكها نابوناهيد واستولى على بابل في سنة ٥٣٨ فخضعت له الأقاليم التابعة لها من غير حرب ولا قتال وبذلك صارت تخوم الدولة الفارسية مجاورة لحدود المملكة المصرية

وكان اماسيس ملك مصر هو الذي يُظن فيه الكفاءة دون سائر ملوك العالم القديم لمناظرة الفارسيين في السطوة والشوكة فتوقف كورش (كيكسرى) برهة عن مقاتلته ثم انثنى نحو الشرق واختفى بكيفية عجيبة غريبة (سنة ٥٢٩) وقد جاء في أشهر الروايات المتداولة انه طلب أن يتزوج بالملكة طوميرس ملكة المساجيت ولكنها استخفت به واحتقرته فأشهر عليها الحرب العوان وغلبها وأخذ منها ولدها فقتل الولد نفسه لاستيلاء اليأس والقنوط عليه ثم ان الدائرة دارت على كورش فانهزم أمامها بعد قليل من الزمان ومات في ميدان القتال فبحثت طوميرس على جثته ووضعت هامته في زق قد ملأته من دم الناس ثم أكثرت من سبابه ولعنه وقالت «اني وان بقيت متمتعة بالحياة وبالنصر ولكنك أعدمتني في الحقيقة اذ خطفت مني ولدي بالحيلة والخديعة فلا تجرعنك الدم تجريعا» (١) ثم توصل الفرس لاخذ جثة ملكهم

(١) عندي تاريخ بخط اليد مكتوب في ٢٩ بؤنه سنة ١٥٧٦ قبطية وهو المشهور بتاريخ يوسف بن كريون العبراني وقد رأيت فيه هذه القصة مسرودة بعبارة أخرى فاحببت الجمع بين الروايتين لتتم الفائدة قال ما نصه «ولما بلغ كورش عن ملك المنطيم (أو الشطيم) انه قد عصاه سار اليه وقاتله وقتل كثيرا من أصحابه وهرب من بقي منهم مع امرأته وابنه وكان اسمها يونيد الى حصون منيعة لهم

ونقلوها الى بازاركد ودفنوه في بساتين قصره باحتفال عظيم واكرام بالغ

٤ – كمبيز (سنة ٥٢٩ الى سنة ٥٢٢) وفتوح مصر (سنة ٥٢٩)

وخلف كورش على مملكته كمبيز (ويسمى في كتب العرب قباسوس وفي كتب الفرس لهراسب) وهو أكبر أولاده أما ابنه الثاني بردية (سمرديس) فقد أوصى له بالحكم على جملة ولايات وكان قصده بذلك ان يمنع الخصومات التي تحصل في بلاد المشرق عادة عقيب انتقال الملك من يد الى أخرى ولكن اماني كورش (كيكسرى) ذهبت ادراج الرياح فان كمبيز (لهراسب) بمجرد ارتقائه على سرير الملك ذبح أخاه بغاية التستر وكمال التبصر حتى ان العامة لم تشعر بذلك وظنت الامة وأهل البطانة الملكية ان بردية مسجون في أحد القصور القاصية ببلاد مادای وكانوا ينتظرون عودته بعد قليل من الزمان

فتحصنوا فاحتال عليهم كورش حتى خرجوا من الحصون فقتل كثيرا منهم وقتل ابن ملكهم وهو ابن توليد وفتح حصونهم ومدنهم فاستباحها وجعل فيها ولاة من قبله وانصرف راجعا الى بلاده فلما رأت توليد ان ابنها قد قتل وان ملكها قد زال لم تجد فيها الصبر موضعا فحملت نفسها على الموت وجمعت من بقي من رجالهم ومضت فكمنت لكورش في الطريق مع أصحابها وكان أكثر عساكره قد تقدمه راجعا الى بلاده وبقي معه بعض أصحابه فكبسته توليد بعسكرها فقتل كورش وكل الذين معه من أصحابه وأخذت رأسه فاحتفظتها وجعلتها توليد في زق قد ملأته دما وقالت «اشرب يا كورش وارو من الدماء التي كنت تحب سفكها اذا غابت اشفاق ولا رحمة»

فلما تخلص كمبيز (قمبيز) من هذا النظير الذي كان يتوقع منه الخطر رجع الى اتمام ما شرع فيه أبوه ولم يكن عليه الا اخضاع مصر ولما رأى اماسيس ملكها سقوط كريسوس توقع غارة الفارسيين على بلاده فأخذ اهبته وأعد لهم ما استطاع من قوة فعقد المحالفات الوثيقة مع كثير من الممالك الاغريقية وقوى جيشه بكثير من المرتزقة وحصن حدود الدلتا تحصينا جيدا وكان بين ينيسوس آخر نقطة من جهة الشام وبين بيلوزه (الطينة) أول نقطة من جهة مصر بيداء يبلغ طولها تسعين كيلومترا ولا يكاد يوجد فيها الماء وهي بحيث لا يتأتى لأية فرقة عسكرية أن تخترقها في أقل من ثلاثة أيام ولكن فانيس الهليكارناسي أحد الرؤساء اليونانيين الذين في خدمة فرعون مصر خانه وخفر عهده فسهل على كمبيز الاتفاق مع القبائل الرحالة النزالة المتوطنة بهذه البوادي فتحصل منها على ترتيب منازل بهذه البيداء يكون فيها الماء الكافي للجنود

فلما وصل الفارسيون الى بيلوزة (الطينة) علموا أن اماسيس قد مات وان ابنه ابسامتيك الثالث خلفه على سرير الملك فجاء هذا الملك الجديد بنفسه على رأس جيشه وقاتل المغيرين امام بيلوزة وقد كان فانيس الخائن أبقى أولاده في مصر فأحضرهم العساكر الكاريون واليونيون الذين كانوا تحت امرته وذبحوهم أمام الجيش ووضعوا دمهم في اناء كبير قد ملؤا نصفه بالنبيذ ثم شربوا هذا الخليط وانقضوا على الاعادي مقتحمين نيران الوغى وقد أخذت منهم سورة الحمية مأخذها

ولكن ما جاء المساء حتى انثنت الصفوف المصرية وابتدأت الهزيمة ولم يمض الا أيام قليلة حتى تم اخضاع الدلتا كلها وفتحت منف أبوابها ووقع ابسامتيك وعائلته في قبضة الفاتح ولم يحصل مقاومة قط في مصر العليا وكذلك الليبيون وأهل برقة فانهم لم ينتظروا وثوب الفرس عليهم لدفع الجزية بل أدوها وهم صاغرون فكان في سرعة سقوط هذه الدولة التي قاومت المشرق مدة قرون عديدة وفيما أصاب ملكها الذي ما لبث أن لبس ثوب الملك حتى خلعه وخلع منه عجب عجاب وقد رقت لذلك قلوب جميع المعاصرين

٥ — جنون كمبيز (لهراسب) وموته

فكانت هذه الحوادث سببا في وقوع العالم الشرقي القديم في قبضة رجل واحد يتصرف فيه كيف يشاء ولم يقنع كمبيز (لهراسب) على الوقوف عند هذا الحد بعد أن دمر الدولة العظيمة التي لم ينج غيرها من سطوة أبيه بل أراد أن يسوق عساكره الى تلك الاراضي الغربية التي انفرد الفينيقيون بالوصول اليها وكان أمامه طريقان أحدهما في الشمال فيما وراء بوغازات آسيا الصغرى وهو طريق افريقية وايطاليا والثاني في الجنوب وهو طريق ايتوبيا وقرطاجه فبدأ بمقاتلة افريقيه فانه بعد أن استولى على تاج الفراعنة وحصل على محبة المصريين له وميلهم اليه لتلطفه واعتداله أرسل جيشين أحدهما لمهاجمة قرطاجه والثاني لمقاتلة ملوك نپاتا وأخذ في سيره طريق النيل فأما الجيش الاول فقد سار الى ليبيا (لوبيا) ولما بلغ منتصف الطريق الموصل

الى واحة آمون (سيوه) أثارت الريح الرمال على الاجناد فدفنتهم عن آخرهم وأما الجيش الذى أرسله على اتيوبيا فقد بلغ نباتا ولكن الصحراء التى بين نباتا ومروى صدته عن الاستمرار وقد فقد خلقا كثيرين فكان لهذه الخيبة فى المشروعين أسوأ تأثير على كمبيز (الهراسب) لانه كان من عهد طفوليته عرضة لنوبات صرع شديد فاذا جاءه الدور غاب عنه العقل وضاع منه الصواب فلما حلت به هذه المصائب اشتد مرضه لاستيلاء القنوط عليه فازداد عدد النوبات وطالت مدتها حتى لقد طعن بخنجره الثور (ابيس) وأمر باعدام كهنة الآلهة فكرهته الامة المصرية الشديدة التمسك بدينها كراهة ليس عليها من مزيد وانحرفت قلوبها عنه الى ماشاء الله ثم تزوج بشقيقته وقتلها ثم صوب سهمه نحو ولد بركزاسبس أحد مشيريه فخرق احشاءه ثم أمر بدفن اثنى عشر رجلا من وجوه فارس وهم أحياء ثم انه بارح مصر وقد مقته جميع الناس وسخطوا عليه ولما وصل بجنوده الى شمال الشام جاءه رسول وأعلمه بخلعه من الملك وأمر الذين أطاعوه الى هذا الوقت بان يؤدوا البيعة ويمين الطاعة لبرديه ابن كورش الذى نادت بارتقائه على سرير الملك فارس ومادى والاقاليم التى فى قلب المملكة (يوليو سنة ٥٢٢) فهده هذا الخبر قواه وأذهب رشده فى أول الامر ولكنه عزم على موالاة السفر بمن بقى مواليا له من الجند غير أنه جاءته النوبة واشتدت عليه فأجهز على نفسه بيده

خلاصة ماتقدم

(١) كان الفارسيون مقيمين في بلاد جبلية بعضها قليل الخصوبة وهي ممتدة فيما بين عيلام وبوغاز هرمز وكان الملوك الحاكمون عليهم من سلالة اخيمنيس وقد تفرع من هذه العائلة فرع انتزع اقليم انشان من يد العيلاميين

(٢) وخرج منهم كورش الثاني كيكسرى (سنة ٥٥٨ — سنة ٥٢٨) مالك انشان من حيز الخمول والاضمحلال الى ذرى المجد والرفعة وضرب استياج كيكاوس الذي هو جده على ما قالته الرواية ثم دمر المملكة المادية سنة ٥٤٩ ثم وجه عزيمته الى ليديا وأخذ سرد (سرت) من ملكها كريسوس فجأة ثم عهد الى قواد جيشه باتمام اخضاع آسيا الصغرى

(٣) ثم حمل على المشرق وأخضع الاقسام الشرقية من هضبة ايران وهي بلخ والصغد (سنة ٥٤٥ — سنة ٥٣٩) وجعلها تابعة لمملكته وانتصر على نابونهيد وتمم خراب دولة الكلدانيين (سنة ٥٣٨) ومات في حربه مع المساجيت وكان ذلك في سنة ٥٢٩

(٤) وابتدأ كمبيز (كمبوجيه) حكومته بقتل أخيه بردية ثم انقض على مصر فهزم بسامتيك الثالث في بلوزة (الطينة) واستحوذ على أرض مصر كلها (سنة ٥٢٥)

(٥) ثم جال بخاطره ان يتمم فتح افريقية وبعث جيشين أحدهما على الاتيوبيين وقد اضطر لان يرجع القهقرى بعد أن وصل الى نباتا والثاني على قرطاجنة وقد ابتلعته رمال ليبيا عن آخره فكانت هذه الخسائر سببا في وقوعه في نوبات جنون شديد ارتكب في أثنائها أمورا جعلته ممقوتا مسخوطا عليه عند الخاصة والعامة وقد قتل نفسه عند عودته من مصر أثناء نوبة شديدة وقع فيها عند ما علم بقيام فارس عليه تحت قيادة رجل كذاب سمى نفسه بردية (سنة ٥٢٢)

الباب الحادى والعشرون

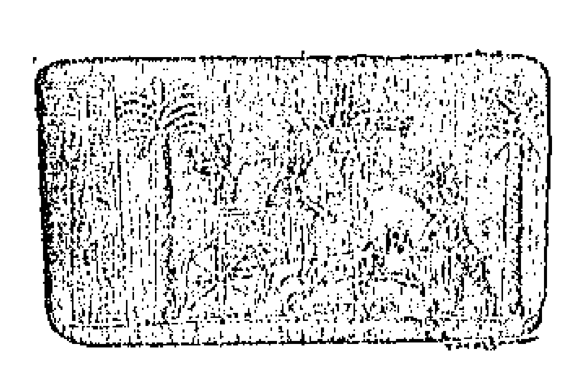
دارا . تنظيم مملكة الفرس

(١) بردية الكذاب (سنة ٥٢٢ — سنة ٥٢١) (٢) السنوات الاولى لدارا (سنة ٥٢١ — سنة ٥١٩) (٣) انقسام المملكة الى مرزبات (٤) مالية المملكة الفارسية (٥) دارا فى الهند (٥١٢)

١ — بردية الكذاب (سنة ٥٢٢ — سنة ٥٢١)

لم يكن ملك فارس الجديد الا رجلا كذابا دعا نفسه ببردية زورا وبهتانا واسمه الحقيقى جوماته وكان له أخ اسمه پاتيزيتس قد وكله كمبيز (لهراسب) بالنظر فى شؤون بيته وكان هذان الرجلان يعلمان ما حل ببردية ويعلمان أيضا ان أغلب الفارسيين يجهلون هذا الامر ويعتقدون أن هذا الامير مازال على قيد الحياة فلما مات كمبيز (لهراسب) لم يدر بخلد أحد من الفارسيين والماديين بل ولا من آل اخمنيس أن ينازع الملك الجديد فكان الكل موقنين بأنه الوارث الشرعى للمملكة وانه ابن كورش (كيكسرى) العظيم على أن تصديق العموم له لم يبق ثابتا وطيدا فى نهاية الامر اذ علم القوم من نساء السراى ان هذا الذى يدعى بأنه بردية هو رجل آذانه مقطوعة وانه لص مختلس من هلافيت العامة وشناتير الناس فاتحد دارا

ابن هستسب (واسمه فى كتب الفرس جوشتسب) مرزبان هرقانيه[١] وهو من فروع العائلة الملوكية مع ستة من وجوه فارس وأمرائها وباغت المغتصب فى أحد قصوره ببلاد مادای وقتله (مارس سنة ٥٢١) هو وأخاه فنودى به فى الحال ملكا على البلاد (شكل ٣٧) وأول عمل قام به هو تطهير المعابد والهيا كل التى كان سلفه قد دنسها ونجسها واتخذ مهرجانا يحتفل به فى كل عام تذكارا لقتل الدعى "جوماته" والمجوس الذين أيدوا دعواه



ش ٣٨ (الطابع الذى كان دارا يختم به وهو محفوظ الآن بالمتحف البريطانى)

٣ — السنوات الاولى لدارا[٢]

قد وقعت فى بلاد فارس فتنتان متواليتان فى أقل من سنة من الزمان فلذلك تزعزعت مملكتها واضطربت أحوالها لانها كانت شبيهة بمملكة مصر واشور فى كونها ليست الا خليطا يتألف حينما اتفق من عدة أقاليم وولايات يديرها حكام يكادون يكونون مستقلين ومن جملة ممالك تعترف بسيطرتهم ومن مدائن وقبائل غير

(١) هو اقليم مؤلف الآن من شرقى مازندران وجنوبى داغستان

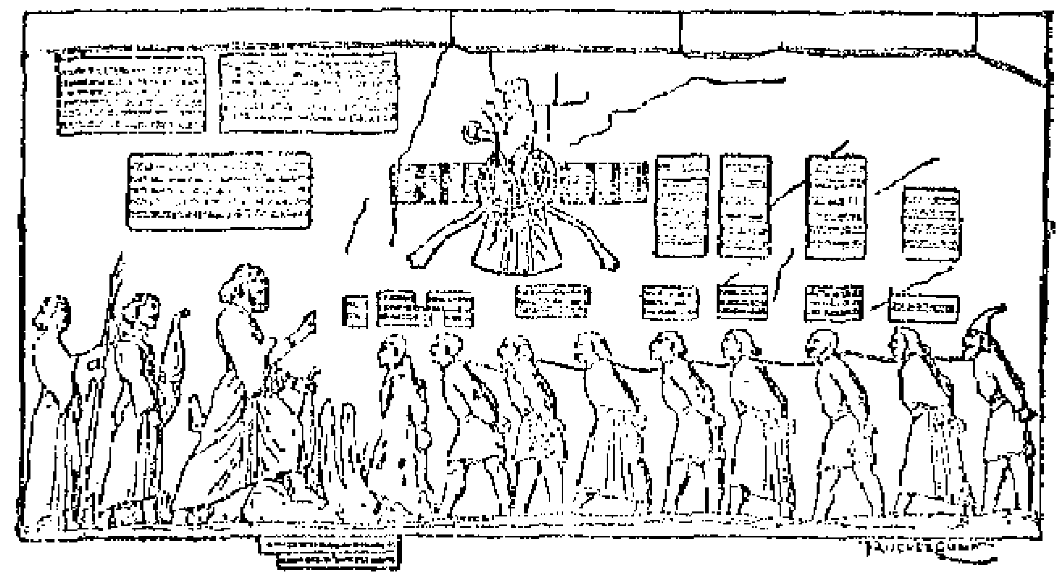
(٢) ورد بهذا النص فى أشعار العرب وكتبهم كما ورد أيضا فى تواريخهم باسم داريوس كاللفظ اليونانى

خاضعة لهم تمام الخضوع وقد اضطرمت نار الفتنة في آن واحد في مكانين وهما سوسن [1] وكلد يا حيث جادعي يقول انه ابن نابوناهيد ولقب نفسه بلقب جليل فخيم وهو بختنصر فاضطر الفارسيون الى مقاتلته فأشهروا عليها الحرب العوان مرتين ثم حاصروه مدة طويلة حتى توصلوا الى اخماد أنفاسه (سنة ٥٢١ الى سنة ٥٢٠) وقد ترتب على تأخر قمع هذه الثورة حصول ثورات أخرى

فان أهالي مادى استهواهم رجل اسمه ستارتيا كان يقول انه من سلالة كياكسار ونادى بنفسه ملكا باسم فراورت واعترفت بسلطانه أرمينية وآشور وقام في أثناء ذلك السجرتيون وأهل المرج مع رؤسائهم الوطنيين وقد انشقوا على مواليهم الفارسيين وخلعوا طاعتهم فارسل دارا جنوده لاطفاء نار هذه الفتن المتواصلة ولكنها لم تظفر بالفوز في معمعة القتال حتى ان ولايتي هرقانية وفرطيانه انضمتا الى الثائرين بل ان ولاية فارس الحقيقية نفسها انحازت الى دعوى كذاب جديد يدعى نفسه بردية فلما جاء دارا تغيرت الاحوال وتبدلت الامور فدخل مادى من مضيق كرند وانتصر نصرة عظيمة بالقرب من قرية كوندوروس كانت هي الخاتمة لكل هذه المشاغب (يونيو سنة ٥٢٠) فهرب فراورت الكذاب الى الشمال ولكن قبض عليه بالقرب من رغا ثم سيق الى اكباتانة (همذان) فلاقى فيها

(١) اسمها عند الافرنج (Suse) وسميت باسم الزهرة المعروف بالسوسن لكونها تنبت كثيرا في مروج هذه المدينة المعروفة الآن باسم شستر

العذاب الاليم الفظيع إذ جُدع أنفه وصُلمت أذناه وقطع لسانه وفقئت عيناه ثم ربط بسلسلة متصلة بباب القصر الملوكى ثم وضع على الخازوق حتى اكتفى العامة والرعاع من رؤية ما ألم به من الاحن والمحن وأمر الملك بوضع بعض شيعته على الخوازيق وقطع رؤس الآخرين



ش ٣٨ (دارا منصورًا وأمامه أعداؤه فى نقش بارز فى بهستون التى هى الآن تخت سليمان)

ولم يكن الفوز فى جهات فارس أبطأ منه فى مادى بل قد أسرع النصر الى دارا ولكن الحرب كانت كأنها تنطفئ نارها من جهة لتشتعل فى جهة أخرى فان النجاح الوقتى الذى ناله بردية الكذاب الثانى أظهر فى العالم كذابا ثانيا باسم بختنصر أيضا وقد لاقى حتفه بعد بضعة أشهر من ظهوره وبذلك تم لدارا اعادة افتتاح مادى وفارس واقليم بابل ولم يكن فى اخضاع الاقاليم الاخرى (هرقانية وهرجيان وبلخ) كبير عناء ولا تعب يذكر حتى اذا انتهى عام ٥١٩ كان السلام ضاربا اطنابه

ناشرا لواءه فى جميع انحاء المملكة وكان دارا جالسا على عرش الملك من غير منازع ولا ممانع وبعد ذلك أمر بكتابة مايدل على نصره على جدران بهستون (مدينة تخت سليمان) ونقش فيها نقوشا بارزة يراه الانسان فيها قاهرا أعداءه وهم موثقون بالسلاسل والاغلال (شكل ٣٨)

٣ — انقسام المملكة الى مرزُبات [١]

وقد اعتبر دارا بما وقع له فى هذه السنين الاولى فان كورش وكمبيز افتتحا المملكة وأخضعاها فأراد هو اصلاحها وتنظيم شؤنها ولا ريب فى انه ساعد الامم الخاضعة له على المحافظة على لسانها وأخلاقها ودياناتها وشرائعها ونظاماتها الخاصة بها وقد كان كورش سمح لليهود بالرجوع الى أورشليم فاذن لهم دارا باتمام بناية الهيكل وأقر الاغريق على حكوماتهم المتنوعة وأبقى الفينيقية ملوكها وسفطاءها (وهم قضاتها الحاكمون فى الخصومات الذين كانوا يعقدون مجلس الشيوخ ويتولون قيادة الجيوش فى بعض الاحيان) [٢] واستمرت مصر على حكومتها

(١) جمع مرزُبة وهى العمالة الفارسية يكون المرزبان والياعليها

(٢) اللفظ الوارد بالافرنكى هو (Suffète) وقد شرحت المراد منه فى صلب الكتاب وهو مأخوذ من اللغات القرطاجية والفينيقية والعبرانية (شوفط — كما ورد فى التوراة) ومعناه فيها كلها القاضى ولما كان القضاة عند الاتراك لا يؤخذون الا من طلبة العلم المعروفين عندهم بالسفطاء فربما كان هذا الاسم عندهم مأخوذا من الاسم القرطاجى القديم وان كان بعض العلماء المحققين قالوا ان لفظة السفطاء عند الاتراك مأخوذة من اللغة الفارسية محرفة عن كلمة «سوخته» بمعنى الذى يحترق احتراقا أى المولع بطلب العلم الدينى المغرم بتحصيله

الاخاذية ولكنه جعل فوق هذه السلطات المحلية سلطة عالية واحدة في جميع الاقطار فقسم أراضي المملكة الى حكومات كبيرة يختلف عددها بحسب اختلاف الزمان فكانت في أول الامر عبارة عن ثلاث وعشرين مرزُبة ولما مات دارا كانت قد بلغت احدى وثلاثين

ولم تكن ادارة كل واحدة منها في يد رجل واحد بل كان يقوم بالحكومة فيها ثلاثة كل منهم مستقل عن صاحبيه وتابع للملك مباشرة وهم المرزُبان وكاتب السر الملوكي وقائد الجيش فكان الملك يختار المرازبة من أية طبقة من طبقات الامة بين الفقراء والاغنياء ومن الاغراب أو أهل فارس على حد سواء ويقومون بوظائفهم ماشاء الملك أن يقوموا ولهم الادارة المدنية المطلقة من توزيع الضرائب واقامة رسوم العدل وحق اعدام الحياة وابقائها وكان بجانبهم كاتب السر الملوكي يقوم في الظاهر بخدمة ديوان الانشاء ولكنه في الحقيقة عين من عيون الملك يراقب المرازبة وكل مساعيهم فيخبر بها من له الشأن في جميع أعمالهم وكانت الجنود الفارسية والوطنية والمرتزقة في الاقاليم تحت امرة قائد الجنود الذي يكون في أغلب الاحوال معاديا للمرزبان ولكاتب الاسرار فكان هؤلاء الاخصام الثلاثة بعضهم على بعض رقيب بحيث ان الفتنة كان يصعب وقوعها ان لم نقل باستحالته وكانت علاقاتهم متصلة على الدوام مع الملك بواسطة سعاة البريد الذين يسيرون بانتظام تام فينقلون الرسائل من أقصى المملكة الى أقصاها في بضعة أسابيع وكان الملك يرسل في كل عام نوابا من طرفه

الى الاقاليم « يسمونهم عيونه وآذانه » لانهم كانوا مكلفين بان يروا ويسمعوا بالنيابة عنه ما يقع فى الاصقاع القاصية من مملكته فكانوا يجيئون فى الوقت الذى لا يتوقع أحد مجيئهم فيه ويبحثون فى أحوال البلاد ويعدلون بعض ما يرون لزوم اصلاحه فى جزئيات الادارة ويعنفون المرزبان أو يوقفونه عن وظيفته عند الاقتضاء وكانوا يستصحبون معهم جماعة من الجند لتؤيد نصائحهم بالقوة وتعضد أحكامهم بالاقتدار فكان التقرير السيئ فى حق المرزبان أو أقل مخالفة منه لاوامر النواب بل مجرد الشبهة فى هذه المخالفة يكفى لسقوطه بل وهلاكه لان الملك كان يأمر بخلعه وقد يحكم عليه بالموت من غير محاكمة فيجىء نجاب بغتة ويسلم الحامية أمرا بقتل رئيسهم فيمتثلون الامر بمجرد رؤية فرمان الملك

٤ — مالية الدولة الفارسية

فلم يرق هذا الاصلاح فى أعين أعيان الفرس وانتقدوا بالاستهزاء والاستخفاف بالطاعة التى ظن دارا الزامهم بها فكانوا يقولون «قد كان كورش والدا وكمبيز سيدا وأما دارا فليس الا تاجرا شرها للكسب» فان تقسيم المملكة كان فى الحقيقة عملية يقصد بها جمع المال كما يقصد بها انتظام السياسة فان أعظم واجب على المرزبان هو توزيع الضرائب وجبايتها وتوريدها خزينة الدولة وأما فارس الحقيقية فقد أعفى أهلها من بعض الضرائب الشرعية وأما بقية العمالات فقد فرضت عليها الضريبة بحسب اتساعها وثروتها وتدفع الضريبة نقدا وعينا

ولاجل تسهيل الدفع على كل انسان أمر دارا بتداول نقود من الذهب والفضة سميت بالدارية وقد استعملها على الخصوص فى دفع أرزاق الجند ولم ينتظم تداولها فى الاقاليم التى على سواحل البحر الابيض المتوسط وأما فى أواسط آسيا فاستمر الناس على استعمال الوزن فى تقدير المعادن اللازمة للمعاملات التجارية وحاجات المعيشة اليومية

ولم يكن تحصيل الضريبة العينية بكيفية واحدة فى جميع العمالات فكانت مصر تقوم بما يلزم من القمح للجنود المحتلين لها احتلالا عسكريا وعددهم ١٢٠٫٠٠٠ رجل والماديون يدفعون فى كل سنة ١٠٠٫٠٠٠ رأس غنم و ٤٫٠٠٠ بغل و ٣٫٠٠٠ فرس والارمن ٣٠٫٠٠٠ مهر وكيليكيا ٣٦٥ فرس قرطاسى اللون (أشهب أى أبيض) ولم تكن الضرائب الملوكية فادحة ولكنها لا تدل على مقدار التكاليف والاحمال التى على كل عمالة وذلك لان المرازبة لم يكن لهم مرتب معلوم يصرف من خزينة الدولة بل كانوا يتعيشون هم وحشمهم وخدمهم من البلاد الحاكمين عليه ويلزمون الاهالى بان يدفعوا لهم النفقات الزائدة والمرتبات الباهظة مثال ذلك ان حكومة بابل وحدها كانت تدفع الى حكامها مبلغا معينا فى السنة من المعادن توازى قيمته ٣٫٦٠٠٫٠٠٠ فرنك وكان حكام مصر ومادى والشام يستغلون من ولايتهم مالا ينقص عن ذلك القدر الا يسيرا وإن أفقر العمالات لم تكن أقلها فى تأدية الرسوم الزائدة عن الحد للوكلين بها وماذلك الا لان نفقات المرزبان كانت على الاقل مساوية للنفقات التى يحتاج اليها الملك نفسه

٥ — دارا في الهند

فكانت هذه الطريقة أفضل بكثير من جميع الطرق التي استعملها الملوك قبل ذلك في بلاد المشرق اذ كانت تضمن للمالك ميزانية منتظمة وتجعل العمالات في قبضة يده والثورات الوطنية في غاية الصعوبة بحيث ان موت كل ملك لم يكن يعقبه كما في السابق ثورات وفتن يضطر الملك الجديد لصرف جزء عظيم من وقته في سبيل قمع القائمين بها وإخماد نارها ولم ينحصر فكر دارا كله في تنظيم المملكة الفارسية بل



ش ٣٩ (صورة الملك الفارسي دارا فدمان المعروف عند الفرس باسم داراب مأخوذة من فسيفساء محفوظة بمتحف نابولي)

اخترع شكلاً من أشكال الحكومة قد اتخذه بعض الدول الشرقية الكبرى نموذجاً لها واسوة تقتدي بها فانه جعل نفسه ملك الملوك (شاهنشاه) والملك الاكبر فقد اجتهد ملوك آسيا في شأنه وسعوا في أن يناظروه في أبهته وعظمته وفخامة دولته (شكل ٣٩)

واذ ازدادت فتوحات الفرس وتوالت في جميع الجهات حتى لم يبق لهم منفذ من المواصلات مع البقاع الخارجة عن ملكهم الا طريقان

أحدهما في الشرق نحو الهند والآخر في الغرب نحو اغريقية اليونان وفيما عدا ذلك كانت مملكتهم تنتهي من كل ناحية بحار أو بعقبات لا يكاد يتسنى قطعها للجنود المثقلة بالآت الحرب المدججة بالسلاح التي كانت في ذلك العصر فقد كانت مملكتهم الواسعة تنتهي في الشمال عند البحر الاسود و بلاد القفقاسية (القوقاز) وبحر الخزر (المعروف بحر طبرستان والبحر القزويني) وفدافد التتر وتمتد من جهة الجنوب الى بحر ايرتره (١) وهضبة العرب الرملية وصحراء افريقية وفي سنة ٥١٢ ظن الناس ان الفرس سينقضون على المشرق فانهم من أعالي ايران كانوا يشرفون على سهول بنجاب الفسيحة فشن دارا الغارة عليها وفتح فيها أراضي متسعة جعلها مرزبة جديدة وهي مرزبة الهند ثم انعطف الى الجنوب وأرسل اسطوله معقود اللواء لرجل يوناني اسمه سيلاكس من مدينة كاريانده باقليم كاريا فنزل نهر السند من بوسيلا أولا الى مصبه ثم عطف على المغرب ودار في أقل من ٣٠ شهرا حول سواحل جدروسية (التي هي الآن مكران ببلاد ايران) و بلاد العرب ولكن دارا أوقف سيره في هذه الجهة بعد ذلك الاجتهاد لان المغرب كان يغريه و يجتذبه اليه وخصوصا بلاد اغريقية فاستغرق النصف الثاني من حكمه في الاستعداد لها وشن الغارات عليها وهذه هي الحروب المادية الاولى

---

(١) (Erythrée) هذا اللفظ يعني به القدماء بحر القلزم (البحر الاحمر) والخليج الفارسي والجزء من البحر الكائن بين ساحل الحبشة وجزيرة سيلان فليس البحر الاحمر حينئذ الا جزءا من بحر ايرترة

خلاصة ما تقدم

(١) اعترفت المملكة كلها بسلطان جوماته وهو برديه الكذاب مدة شهور كثيرة ثم جاء دارا ومعه ستة من وجوه فارس فقتلوه هو وكل من شايعه من المجوس وكان ذلك في سنة ٥٢١

(٢) ثم ابتدأ دارا في أول الامر بقمع جملة فتن أولها في بابل تحت قيادة كذاب ين أعقب الواحد منهما الآخر وسمى كل منهما نفسه بختنصر مدعيا انه ابن نبونهيد (٥٢١ — ٥١٩) وثانيها فتنة عيلام وثالثها فتنة مادى تحت قيادة رجل سمى نفسه فراورت وادعى انه ابن كياكسار ولم يتم لدارا اخضاعه الا بعد معاركتين عظيمتين بالقرب من كوندوروس (سنة ٥٢٠) بل ان فارس نفسها قامت عليه وعلى رأسها رجل كذاب آخر سمى نفسه برديه ولم تنته هذه الثورات الا في أواخر سنة ٥١٩

(٣) وقد نظم دارا مملكة الفرس وقسمها الى مرزبات يحكم كل واحدة منها ثلاثة وهم المرزبان وكاتب السر الملوكي وقائد الجند وكل منهم مستقل عن الآخرين وكان الملك يرسل « عيونه واذانه » الى تلك الاقاليم لمراقبة سير هؤلاء العمال وتعرف أحوالهم

(٤) وقد أعفيت فارس الحقيقية من الضريبة وأما باقي العمالات فقد فرض عليها الخراج تدفعه من النقود الدارية أو من عين الاصناف والمحصولات وذلك بحسب ايرادها وقد التزمت أيضا بالقيام بنفقات حكامها الفارسيين وحواشيهم

(٥) ومازال الفارسيون يفتحون الاقاليم حتى بلغت أطراف مملكتهم الجبال والبحار فلم يكن لهم للخروج منها الى غيرها سوى منفذين أحدهما في الشرق نحو الهند والآخر في الغرب نحو اغريقية وفي سنة ٥١٢ فتح دارا بلاد بنجاب ثم تحول الى اغريقية وابتدأ الحروب المادية

الباب الثاني والعشرون

الديانة . الاخلاق . العادات . الآثار

(١) زرادشت والبستاه (٢) هرمز واهرمان (٣) العبادة والكلام على المجوس (٤) الاحتفال بالجنائز
(٥) الفنون الفارسية
(٦) الزخرفة بالبناء

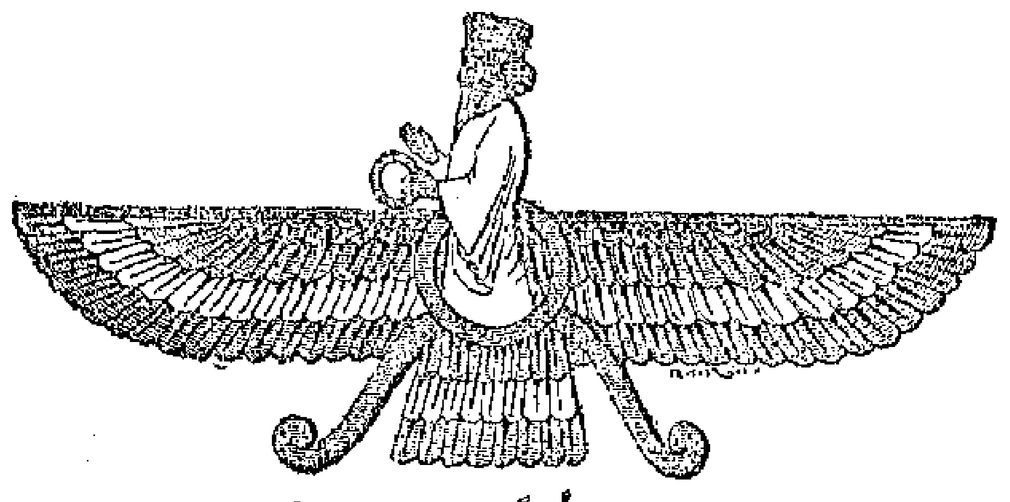
١ – زرادشت والبُستاه[١]

ديانة الماديين والفرس مأخوذة عن عبادة الامم الارية القديمة كما يدلنا على بعض ذلك كتب الهند المقدسة وجاء في الخرافات المتداولة عند العامة أنها من صنع رجل واحد وهو زرادشت أو زرثوسترا[٢] وأن هذا الرجل من السلالة الملوكية وكان مولده في راغة في مادای أو في اتروپاتان (اذربيجان) وقد ظهر أيام كان الايرانيون ضاربين خيامهم في اقليم بلخ وأمضى طفوليته وشبيبته في مقاومة الشياطين والابالسة حتى اذا بلغ الثلاثين من عمره عرج بروحه الى الباري تعالى فأعلمه أن أفضل المخلوقات على الارض انما هو الانسان ذو القلب السليم الطاهر وبعد امتحانات كثيرة ابتلاه بها سبحانه وتعالى أعطاه بيده كتابا يحتوي على الشريعة وهو البُستاه ثم هبط عائدا الى الارض ودعا الى هذا الدين الجديد فدخلت فيه الامة الايرانية بأسرها

(١) اسمه عند الافرنج *(Avesta)*
(٢) اسمه في الفارسية زردست وفي البهلوية زردُشت وفي اللغة الزندية زرثشترو

٣ — هرمز واهرمان

كان الاله الاكبر عند الايرانيين في أول الامر هو (قوس السماء الكامل وهو أمكن الآلهة وأمتنها لانه يكتسي بقبة الفلك المتينة) وجسمه نوراني وعينه هي الشمس ثم تعرى عن الهيولى وصار آهورامزد (أورمزد — هرمز) العالم بكل شيء المتفرد بالحكمة الكبرياء والرحمة والبطش والعقل والجمال (شكل ٤٠)



ش ٤٠ (هرمز مُحلقاً في السماء فوق رأس الملك كما في نقش بارز بمدينة تخت سليمان)

وبحذائه إله يعاديه وله من الشر بقدر ما لهرمز من الخير واسمه أنجرمينيوس (اهرمان)(١) وهو يجتهد في ملاشاة ما في الكون من الخير والجمال

وكان هرمز قد خلق كل شيء بفعل كلمته واتخذ لنفسه ستة أرواح أو آلهة من طبقات عليا يعينونه على حفظ نظام العالم وتدبير شؤونه

(١) واسمه أيضاً هرمند ومعناه أصل الشر وهو الشيطان عند الاعجام

وهم المعروفون بأميشاسبنتاس وهؤلاء الآلهة اتخذوا أيضاً آلافاً من اليزتاس يحكمون عليهم وهم منتشرون في الكون للمحافظة على بقاء أعضائه ودوران دولابه فجعل اهرمان آلهة ظلمات وشرور في مقابلة آلهة الخير والنور وعارض الاميشاسبنتاس الستة بستة أرواح شريرة تعادلها في القوة والشوكة ثم سلط الابالسة على اليزتاس وسماهم الديوة (الشياطين) وهم لا ينفكون عن محاصرة الكون ومنع انتظام حركاته ولا يزال القتال مستمراً بين هذه الارواح المتكافئة في العزيمة والبطش الى انقضاء الزمان ولا ينتهي كفاحها الا بانقراض العالم اذ يتم النصر لهرمز على اهرمان

٣ — العبادة والمجوس

فكان الانسان يعيش بحسب الشرع والعدل في الدرجة التي قسمت له والآلهة يتنازعون ويتخاصمون وكان بجانبه حافظ له أمين عليه يعرف بالفراقاشي يسهر على وقايته ويدفع عنه كيد الشياطين مستعيناً باليزتاس وكان القوم يعتقدون ان هرمز انما أوجد الانسان في هذا العالم لكي ينازع اهرمان في أقسام الارض القاحلة ولذلك كان أول الواجبات عليه أن يحرث الارض ويستغل القمح منها وثانياً أن يحمي مخلوقات هرمز ويبيد مخلوقات اهرمان وعندهم ان أفضل مخلوقات هرمز هو الكلب وان من قتله وقع في الاثم بل ان من أعطاه «عظاماً لا يمكنه أن يأكل منها شيئاً أو طعاماً ساخناً يحرق فمه» ارتكب خطيئة فاحشة وأتى أمراً نكراً وعندهم ان الرجل

البار هو من كانت أفكاره جيدة وأقواله جيدة وأفعاله جيدة فاذا خرج عن دائرة الكمال فلا يعود اليها مهما أكثر من تقديم القرابين والضحايا اذ لا تغتفر الهفوة الا لمن تاب وعمل صالحا ومن مكفرات السيآت التى نصت عليها هذه الشريعة قتل الحيوانات المؤذية كالضفدع والثعبان والنمل واحياء الارض الموات وتزويج العذراء الطاهرة النقية النقية بالرجل العادل الصالح

وكانت احتفالات الديانة والعبادة بسيطة وقليلة العدد فلم يكن لهم تماثيل وانصاب ولا محاريب سرية ولا مذابح للقربان بل كان له بيوت نار[1] فوق المشارف يحافظ القوم فيها على بقاء النار المقدسة على تعاقب الزمان وكان الموكاون بها جماعة من الكهنة وظيفتهم أن لا يدعوها تخمد مطلقا وكانت الكهانة فى بلاد مادى ثم فى بلاد فارس منحصرة فى طبقة لا يدخلها غير أهلها وهى طبقة المجوس وقد صار لها نفوذ كبير وجاه عظيم حتى تجاوزت حدود وظيفتها بالتعدى على حقوق غيرها فى بعض الاحيان وكانوا يلبسون قفاطين ضافية بيضاء اللون وعلى رؤسهم طرطور طويل وفى أيديهم أغصان الطرفا (باريسما) اذ بدونهم لا يكون أى عمل دينى مقبولا ولا صحيحا وكانوا يصعدون على مذابح القربان بموكب حافل ويحضرون الضحية ثم يصبون عليها البخور ويتلون عليها الاناشيد السرية التى تجعل فيها الخاصية اللازمة والفضيلة المطلوبة وأهم ضحاياهم هو الفرس

(١) بيت النار يسمى بالفرنساوية (Pyree)

ولكنهم كانوا يقربون أيضا الثور والماعز والشاة فكان الكاهن يبتدئ باحضار الهوما (نوع من الخمر أخذه الايرانيون عن القبائل الآرية الاصلية) ثم يوزعه على الحاضرين وبعد ذلك يذبح الضحية ويفصلها قطعا يضعها امام الاتون لا في داخله لان ملاصقتها النار المقدسة تدنسها وتنجسها ثم ينتهي الاحتفال بوليمة رسمية يأكل الحاضرون فيها لحم الضحية

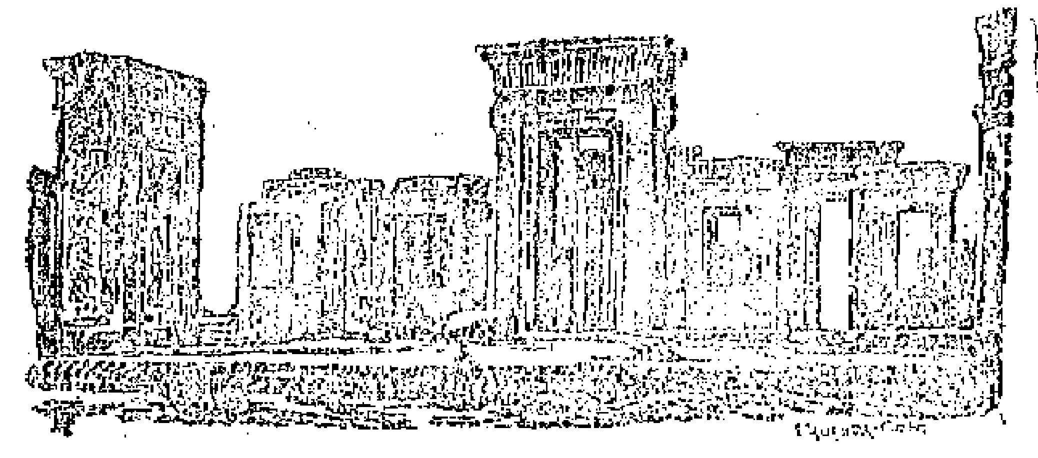
٤ — الاحتفال بالجنائز

كان الفارسيون اذا مات الواحد منهم لا يجوز لهم احراق جثته ولا دفنها ولا طرحها في نهر من الانهار لان ذلك يدنس النار أو التراب أو الماء وكان لهم وسيلتان للتخلص من الجثة من غير أن يمسوا طهارة العناصر الاولى وذلك أنهم يغطونها بطبقة من الشمع ثم يدفنونها معتقدين أن هذا الطلاء يحول دون النجاسة التي تحصل من ملامسة الجثة للتراب مباشرة والطريقة الثانية انهم كانوا يتركونها للطيور الجارحة تفترسها وبنوا لهذا الغرض صروحا كبيرة مستديرة مفتوحة من أعلاها واتخذوها مقابر لموتاهم أما الروح فكانوا يزعمون أنها تبقى بجانب جسدها الفاني ثلاثة أيام حتى اذا كان فجر اليوم الرابع فارقته وذهبت الى محل الدينونة وهناك توزن أعمالها من خير ومن شر لتبرئة ساحتها أو للحكم عليها بحسب ما تشهد به حياتها وبعد خروجها من المحكمة تساق الى قنطرة شنفال وهي قنطرة مقامة فوق الجحيم ويتوصل المار عليها الى النعيم فاذا كانت من أهل الكفر والضلال لا يتيسر

لها اجتيازها فتسقط الى الدرك الاسفل واذا كانت من أهل الطهر والعفاف مرت عليها من غير عناء ثم تمثل بين يدى هرمز فتجلس فى مكان يعين لها وتبقى فيه الى يوم تحشر الاجساد

٥ — الفنون الفارسية

انتقل الفارسيون بغتة من الخمول ومن حالة تقرب من الهمجية الى ذروة المجد والفخار فصار لهم ملك آسيا كلها فى وقت قريب ولذلك لم يمض عليهم الزمن الكافى لتوسيع نطاق تمدنهم وعلومهم الادبية



ش ٤١ (قصر دارا فى مدينة فرسيوليس)

وفنونهم الخاصة بهم فتخلقوا باخلاق الامم التى تغلبوا عليها من أشوريين ومصريين وهيلانيين (يونان) وأخذوا عنهم كل مالم يكن عندهم فلبس ملوكهم الارجوان الصورى وأقمشة بابل المطرزة وقباطى مصر المشهورة وكتبوا كتاباتهم بحروف استعاروها من الاقلام المسمارية المستعملة عند الامم المتوطنة على سواحل الفرات ودجلة وقد استعملوا

في بعض الاحيان نقاشين من اليونان في زخرفة قصورهم ومن نظر الى مابقي لنا من عمائرهم رأى فيها في كل خطوة آثارا تذكره بفنون مصر وأشور هذا وان بعض الاجزاء في قصر دارا بمدينة فرسبوليس[1] (شكل ٤١) توشك أن تكون اطلال أحد المعابد المصرية فان جميع الابواب محلاة من أعلاها باطناف[2] تشبه الاطناف المصرية وعليها دلائل القوة والمتانة التي هي خاصية الآثار بوادي النيل ومن نظر الى مصارعة الملك مع أحد الارواح الشريرة (وكثيرا مايوجد رسمها في الاطلال) (شكل ٤٢) علم أنها مأخوذة مباشرة عن الكلدانيين والاشوريين



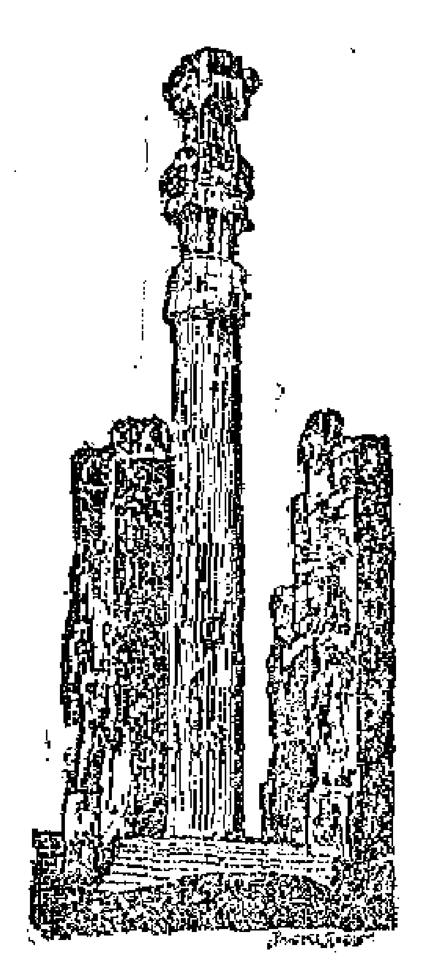
ش ٤٢
(مصارعة الملك مع الروح الشريرة)

(١) تشهد منارا الآن واطلالها قائمة حول مدينة اصطخر

(٢) جمع طَنَف وطُنُف وطَنَف وطُنْف وهو افريز الحائط وما أشرف خارجا عن البناء ومقابله في الفرنساوية لفظة (Corniche)

٦ — الزخرفة بالمينا

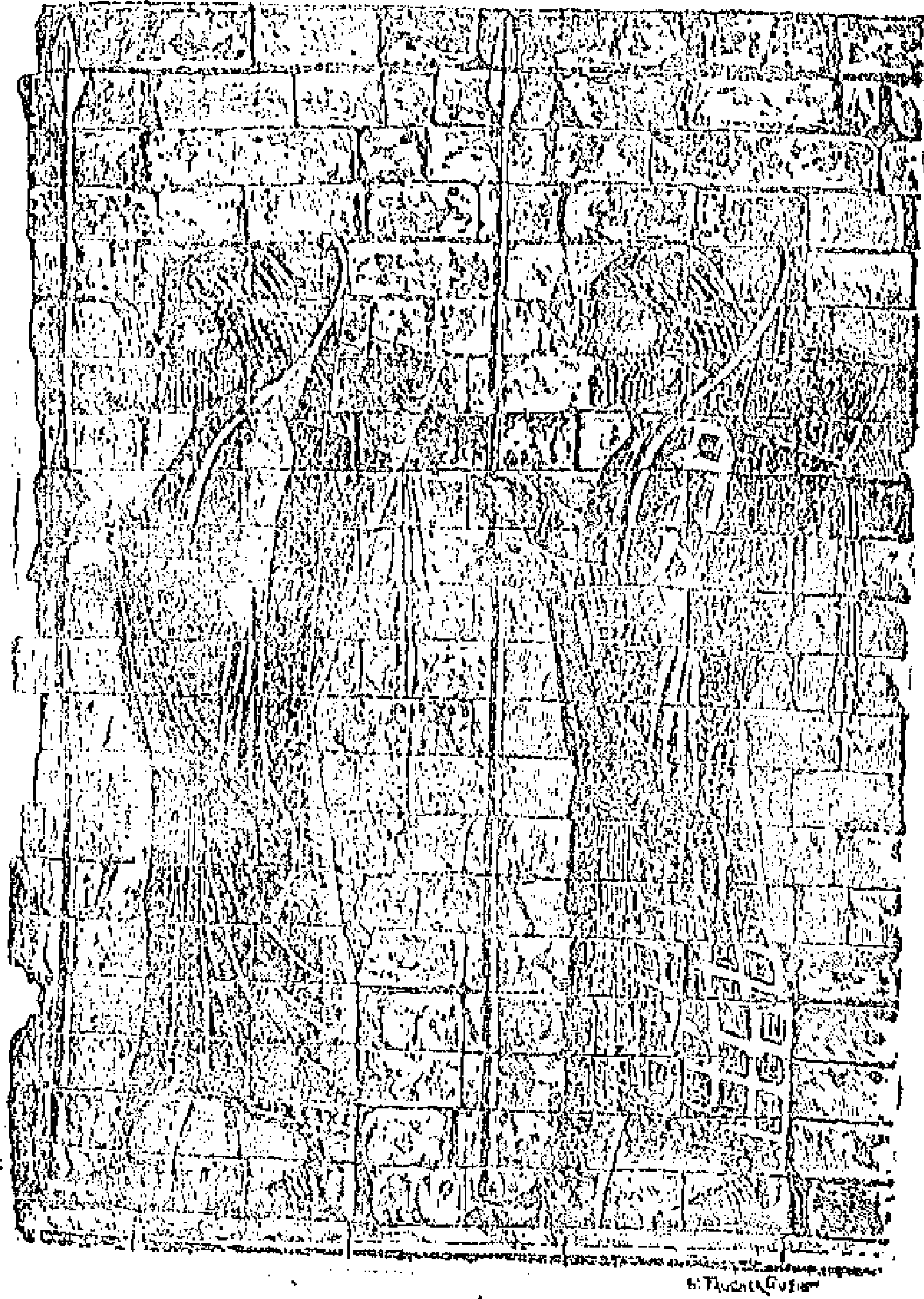
على أنه ينبغى لنا تقرير حقيقة وهى أنهم جمعوا هذه العناصر المختلفة ووفقوا بينها توفيقا لطيفا فان الايوانات التى كان الملك يقابل الوفود فيها أيام التشريفات ليست غير جديرة بان تكون نظيرة للغرف ذات العمدان فى المعابد المصرية لأن الاساطين التى هى مستندة عليها بالغة نهاية الظرف فقواعدها مخروطية وتيجانها مزينة برؤس أثوار تحمل قمة العمود وهذه العمد محلاة برسوم تظهر فيها جراءة الصناع وابتكارهم (شكل ٤٣) أما زخرفة الاسطحة الفسيحة الخارجية لجدران القصور وحيطانها فقيها صور ورسوم ونقوش بالغة فى الكثرة وكلها متآلفة متناسبة بشكل لم يبلغه الانسان الى هذا الزمان وكانت هذه الزخرفة بواسطة لبن مموه بالمينا مثل اللبن المستعمل فى بعض الابنية الاشورية



ش ٤٣ (أحد عمدان قصر دارا بفرسبوليس)

والكلدانية ولكن الفرس لم يحاكوا أهل بابل ونينوى فى جعل الرسوم على المينا بخط واحد لاترى معه بارزة عن الجدار بل توخوا

أن تكون الرسوم ظاهرة البروز عن اللبن بمسافة كبيرة مع تمام المشابهة للبروز الحقيقي



ش ٤٤ (اثنان من الخالدين من متحف اللوفر)

وأكمل مثال للفن المزخرف بالمباني هو ما عثر عليه المسيو ديولافوا وزوجته وهو الآن في متحف اللوفر وهو عبارة عن افريز (Friso) طويل منقوش عليه صور رجال من الحرس الملوكي (المعروفين عندهم بالخالدين) وهم يسيرون بعظمة ووقار وفي أيديهم الحراب (شكل ٤٤)

فجميع ما في هذه القطعة بالغ في الابداع والجمال يظهر فيها بطء حركة الجنود المثقلة بالسلاح وعلى وجوههم مخايل المهابة وثبات الجنان ويرى على قاماتهم سيما الشمم والاقتدار فهي كنموذج اختلط فيه العرفان بالبساطة فظهرت حرية الحركة الخاصة بالفنون اليونانية ممزوجة بطرائق الصنائع المشرقية القديمة وقد لونوها كلها بألوان تجمع بين الكثرة والتناسب بحيث لا يتسنى لأرباب الفنون عندنا في هذا الزمان أن يفوقوهم فيها بل هم والحق يقال يعجزون عن مجاراتهم ويقعدون عن مباراتهم في هذا المضمار فان اختلاف الالوان في هذه القطعة وتركيبها بجانب بعضها هما على شكل يوجب زيادة قيمة كل منها في البهاء الرواء وربما كانت هذه القطعة أجمل ما خلفه لنا السلف من نموذجات الزخرفة في العمارات

خلاصة ما تقدم

(١) كانوا يقولون ان ديانة الماديين والفارسيين هي من وضع زرادشت وان كتاب الابستاق يحتوي على مبادئها

(٢) ومن مقتضى هذه الديانة ان هناك أصلين متضادين وهما هرمز (أورمزد) أصل الخير والنجوريمنيوس (اهرمان) أصل الشر وكان كل واحد منهما يتسلط على الكون بواسطة جماعة من الارواح يقتتلون على الدوام ولا يزالون على هذا الحال الى أن ينقرض العالم بهزيمة اهرمان

(٣) فكان الانسان يعيش بحسب الشرع والعدل والآلهة متنازعون متخاصمون ويكفر عن سيآته بالتوبة والعمل الصالح لا بالقربان وعبادتهم كانت في غاية البساطة وتحصل في بيوت النار حيث يقيم الكهنة الموكلون بحفظ النار المقدسة وكانوا في بلاد ماداي عبارة عن طبقة متميزة دينية تعرف بالمجوس وقد صار لهم نفوذ عظيم حتى كانوا يتجاوزون حدودهم ويتدخلون في بعض الاحيان

(٤) وكان الفرس يتركون جثث موتاهم للطيور الجارحة وأما الروح فإنها بعد الدينونة تسقط في مهوى الجحيم أو تذهب الى فردوس النعيم على قنطرة شنفال بحسب ما تقتضي لها أو عليها

(٥) أما الفنون الفارسية فهي خليط من عناصر أشورية ومصرية ويونانية

(٦) ومع ذلك لم تكن قصور الملوك مجردة عن العظمة عارية عن جمال الآثار فان البناء المطلي بالمينا المنقوش بالنقوش البارزة التي كانت تزدان به حيطان القصور كان مصنوعا على طراز عجيب جميل وذا لون رائع وأجود أنواع هذا البناء هو ما جلبه المسيو ديولافوا وزوجته وهو محفوظ الى الآن بمتحف اللوفر

انتهى والحمد لله

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٥٤	١٢	من أعم	مزاعم
٥٧	٧	طالما	طولما
١٢٣	١٦	الذى	الذين
١٣٥	٢	بالفسين	بالفون
١٤٩	٢	ويرونه	ويروون
١٥٩	٣	كل	لكل
١٧٣	١٨	قرهموسل	قره مرسل برائين وان كان الافرنج يستبدلون الثانية بواو
١٧٧	١٦	اشتقاقا	تعريبا
١٧٩	١٦	Srayeux	Syracuse
١٨٠	١٠	طرهم	طردهم
١٨٧	١٩	قادوس	كدوس چاى
١٨٧	٢٠	منـدر	بيوك مندرس
في الباب السابع عشر / في الباب الثامن والعشرين		سرت *Sardes*	صارت *Sardes*
		يقيل يرمق *Iris*	يشيل ايرماق *Iris*
		قزل يرمق *Halys*	قزيل ايرماق *Halys*
		جبل طاغ	جبل الطاق

صحيفة

١٦٨ حجر الجمشت المسمى عند الافرنج (*Amethyste*) يسمى عند أهل الصعيد حجر اللبون

١٧٨ المعروف من تواريخ الافرنج وخرافات اليونان ان هرقل الجبار لما وصل الى بحر الزقاق المعروف الآن ببوغاز جبل طارق كتب على عمودين من النحاس عبارة معناه لا تتعدوا (*Nec plus ultra*) وقد سرت هذه العبارة عند الافرنج كأنها مسرى الامثال ومعناها «ليس بعد ذلك شئ» وقد رأيت المسعودي أورد هذه الحكاية في مروج الذهب حيث قال ما نصه «وعلى الخليج الذي بين هذين البحرين أعنى بحر الروم وبحر اقيانس المنار النحاس والحجارة التي بناها هرقل الملك الجبار عليها الكتابة والتماثيل مشيرة — لا طريق ورائي»

١٨٧ نهر كايكوس (*Caicus*) يسمى عند الاتراك الآن باقرچاي كما ان نهر كايستر (*Cayster*) يسمى عندهم كوچك مندرز صولي

الكتاب الاول

تاريخ مصر

الكتاب الثانى

تاريخ الكلدانيين والاشوريين

صحيفة

الكتاب الثالث

تاريخ الفينيقيين

صحيفة

الكتاب الرابع

تاريخ الماديين والفرس

(تمت فهرست المواد)

(تمت فهرست الاشكال)